حماد الراوية

بين الوهم والحقيقة

د. فضل بن عمّار العماري
قسم اللغة العربيّة - كليّة الآداب
جامعة الملك سعود

رفعه لكم / أبو هادي
غفر الله له ولوالديه

حماد الراوية بين الوهم والحقيقة
د. فضل بن عمّار العماري

حماد الراوية
بين
الوهم والحقيقة

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٤١٦هـ - ١٩٩٦م



الرياض - المملكة العربية السعودية - شارع جرير
هاتف ٤٧٦٣٤٢١ ص. ب ١٨٢٩٠ الرمز ١١٤١٥

حماد الراوية

بين

الوهم والحقيقة

د. فضل بن عمّار العماري
قسم اللغة العربيّة - كليّة الآداب
جامعة الملك سعود

مكتبة
التوبة

بسم الله الرحمن الرحيم

حماد! ثم ثاروا
راوية أهل العراق، لا يدري عما يسأل
ثم انتبهت، فقلت:
ثم ثاروا إلى الصبوح

* * *

ما شعر فيه أوتاد؟
... بدر إلي وهمي شعر الأفوه الأودي

الإهداء

إلى الصديق الأستاذ
الدكتور عبد الرحمٰن عبد الرؤوف الخانجي
الذي أدركت فيه المودة والمحبة والإخاء

المقدمة

مرت قرون طوال والقدماء يتناقلون الأحاديث عن حماد الراوية، وراح اللاحق يضيف أشياء من عنده على ما قال السابق، حتى غدت صورة الرجل أشبه بالخطوط المتقابلة والمتقاطعة التي تتحرك وسط دائرة واسعة الأقطار. ومن هنا خرج الخبر من الواحد ليقع في مجال المجموع، أي إنه ابتعد عن بنائه الأصلي ليصبح نوعاً من الحكاية الشعبية، أو السرد التاريخي غير المبني على وقائع ثابتة.

ثم جاء المحدثون، فتعاظم الأمر لديهم، وتنادوا بالويل والثبور على الرجل، وأصبح إيراد اسمه مرادفاً للتشويه، والإنكار، والرفض، والفساد، والتخريب.. وما إلى ذلك، من العبارات والألفاظ التي كادت تصدىء العقول لتكرارها.

ومع أن هناك من حاول أن يناقش بعضاً من هذه الأخبار الرائجة عنه، إلا أنه سرعان ما يقف محتاراً متعجباً، لما يثيره التشكك في أصل الرجل، وتدينه وعلاقاته من ريب وتساؤلات؟! وهكذا دخلت السياسة في تفسير الحدث، وانعكست تياراتها على معتقده، حتى أصبح يحمل أعباء العصر الذي عاشه، والمرحلة التي انتقل إليها بعد قيام الدولة العباسية.

وها نحن هنا نحاول ـ وهي محاولة يدرك المشتغلون بالأدب والتاريخ، أنها قد تستغرق زمناً لتحقيق نتائجها ـ أن نلملم أطراف القضية،

فنضعها في سياقها الذي مرت به، وذلك بمتابعة الموضوع منذ نشوئه، مارين بجزئياته اليسيرة، بما يحقق الفحص العلمي والتجربة الموضوعية.

إن نبش الماضي وغربلته أمر عسير، بعد أن أطبقت على حماد كل الحدود، فكان الخروج، بنتائج مستنبطة من الواقع، محتاجاً إلى جهد جهيد. وكان مثار الاستغراب أنه رجل كان أول من التفت إلى أهمية الجمع والتصنيف، يحدوه ذوق رفيع وحاسة جمالية متميزة. فقدم للأدب العربي أعز ما لديه وأثمن، إنها المعلقات. لقد كان عاشقاً لأدب العرب ولغتهم، محباً لعلومهم، يجد في كل ذلك لذة ومتعة، حتى بهر من حوله، وشُدّت الرحال إليه. ولم يكن «راوية»، بكل ما تحمل الكلمة من معنى، بل كان أستاذاً ومعلماً، لم يشأ أن يندثر علمه بين جوانحه، فكان يعطي ما وسعه العطاء، ويبذل من وقته وحاله بذلاً سخياً. فكان لذلك نادرة زمانه، وأعجوبة عصره، علا صوته فوق كل نداء، وتلألأ نجمه وسط الأضواء، ولم تستطع الأيدي أن تطاله، ولا الملكات الأخرى أن تحلق في خياله، فصمت حساده، وانكفأ أعداؤه حتى حين. فلما قلب الزمن له ظهر المجن، ظهرت له فتن وإحن، فتلاشى صيته، وتوارى في طي النسيان ذكره، فاختلط الحابل بالنابل، واشترك معه من يحمل اسمه. فحماد عجرد، وحماد بن الزيرقان، وحماد بن يحيى، وحماد بن عباس، وحماد بن سابور، بل حماد بن سلمة، كل ذلك هم: حماد الراوية؛ فالزنديق هو، والكذاب هو، والسكير هو، والفاسق هو؛ إنها الهاوية، جرته إليها السياسة وعداوة الإنسان للإنسان من أجل مصلحة شخصية، أو منفعة مادية، وتعبيراً عن ماض يراد طمسه، وحاضر يرغب في إعلائه ونشر فضله، حتى وصل الأمر إلى مسخ شبه تام لمآثره وأعماله، ومن ثم شخصيته.

ولا غرو أن يتعرض رجل مثله إلى كل ذلك، فقد كان ممثلاً لتفكير خاص، وطريقة خاصة في التناول والتعبير؛ إنها المرحلة الشفوية التي كان

هو أساسها، والمبدع فيها، فلما جاءت الكتابة، واعتُمد التدوين، كان التفكير غير التفكير والطريقة غير الطريقة. وزاد الأمر بلاء، أنه زعيم مدرسة، وكبير رواة، حشدت ضدهم المدرسة الأخرى المناوئة، كل طاقتها في الجرح والتجريح.

عالجت الدراسة كل ما يتعلق بحماد، وكان تأثيره بارزاً في كل مرحلة تخطوها، وكان حماد يعيش حياً بين سطورها، ويتألق فذا كلما أمعنت الدراسة في البحث والتحقيق. ولا شك أن هذا الشعور الذي تدفق بين طيات الصفحات، كان يدرك مدى حيوية الرجل وقيمة عطائه. وربما كانت هذه الحيوية، وتلك الإيجابية هما أحد العوامل التي جَرَّأَت الخصوم عليه، فأسيء فهمه، وبولغ في هدمه.

وتخلص الدراسة ـ وهي تأمل أن يشاركها في ذلك قراؤها والباحثون ـ إلى أن حماداً كان عملاقاً من عمالقة الرواية الشفوية، وأنه ذو عقلية متجددة آن الأوان لها أن تعود شامخة بين الشوامخ، فتأخذ دورها الريادي، كما أخذته إبّان ازدهارها ومجدها.

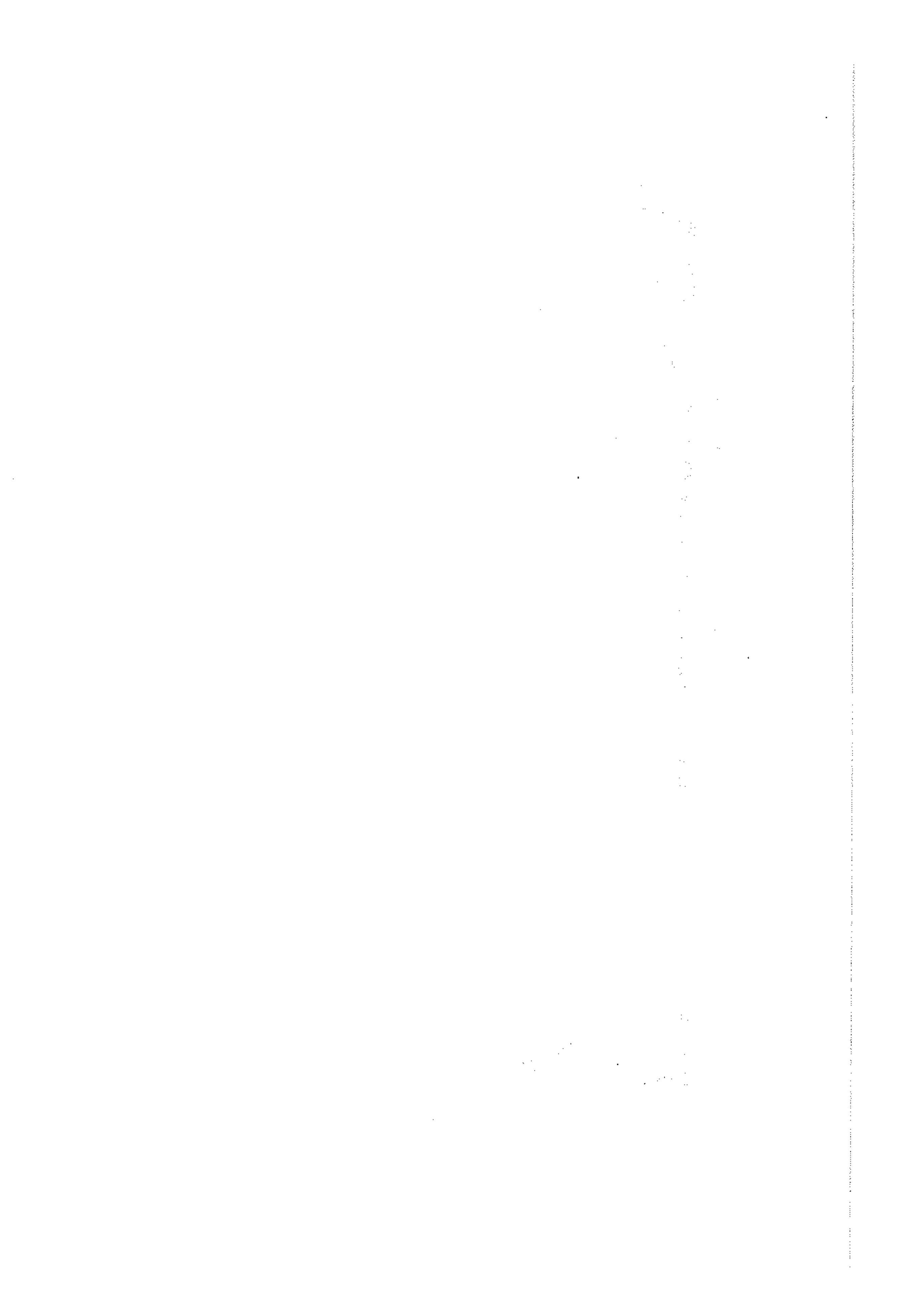
وإذا شئنا ـ بعد ـ أن ننصف الرجل، فما علينا إلا أن نعود من جديد ونجمع ما له من حسنات وفضائل، ونقابل بينها وبين تلك المثالب والتهم، على أن يكون رائدنا العدل والإنصاف، وسوف نجد أنفسنا ـ كما وجدت هذه الدراسة ـ أن التاريخ كان مغلوطاً، وأن الحقيقة كانت غائبة. فحماد كان راوية، صادق الرواية، صائب المنطق، ولم يكن لحانة، أو مصحفاً، أو مزيفاً، بل كان يروي سماعاً، وينقل حجة. وما دارت بخلده قط تلك الأفكار التي راودت غيره، خاصة دارسينا المحدثين، الذين جعلوا «الشعوبية» من خصاله، وما كان حماد شعوبياً، وما كان أبداً يحسب نفسه غير عربي، ولم يره معاصروه مولى متعصباً ضد العرب، ولم يقولوا ذلك ألبتة.

أما تهم الانتحال، التي فهمت على غير حقيقتها، فهي تهم لا تخضع للنقد والدرس. ولو أن النقاد تخلصوا من ريب الماضي، لاستدلوا على حقيقة روايته؛ فالرواية الشفوية ذات مظاهر شتى، أهمها التداعي، والاختلاط، والتداخل، والنسيان، والتوهم، وكل هذا كان يعرض له، لأن ذلك جزء من الطبيعة البشرية. فإذا ما انتقل الإنسان إلى مرحلة الكتابة والتدوين،ضعف الاعتماد على الذاكرة، وبدأ التحليل والترجيح. وحماد كان من رجال المرحلة الأولى، وهكذا تلقاها، وشاءت الظروف أن يمتد به الأجل، حتى مرحلة متأخرة، نافسه فيها رجال من المرحلة الثانية، فكان البون بين المرحلتين جد بعيد.

وعلى كل، فنأمل أن تفي هذه الدراسة بغرضها، وأن يجد القارىء في ثناياها ما يقنعه، أو يخفف من تحامله ضد الرجل.

ويسعدني أن أنوه بجهود الأستاذ الصديق الدكتور عبد الهادي الحاج عبدالله محمدين، الذي لم يأل جهداً في مراجعة الكتاب وإبداء الرأي. وهناك أيضاً الأستاذ الدكتور مصطفى حسين الذي كان لتوجيهاته أثر بالغ في تصحيح خطوات الدراسة وتقويمها. هذا بالإضافة إلى الدكتور الفاروق عمر عبد الرسول (القاهرة ـ المنيل) الذي تكرم علي بإرسال نسخة من الكتاب الذي صدر عن حماد لعبد الحكيم مصطفى. فإليهم وإلى كل من شارك في عرض وجهة نظره، كل شكر وتقدير.

المؤلف





الباب الأول

الإطار العام لحياته



أ ــ أصله:

تحدث القدماء عن أصل حماد، فأجمعوا على تحديد موطنه بأنه من بلاد الديلم خاصة. وهناك روايتان فيما يتعلق بموطنه ونسبه:

الأولى:

وهي الرواية التي تجعل أباه من سبي ابن زيد الخيل أو حفيده، والتي تقول:

١ ــ «حماد بن هرمز، كان أبوه من سبي مكنف بن زيد الخيل وكان ديلمياً»[1].

٢ ــ «حماد بن هرمز، وكان هرمز من سبي مكنف بن زيد الخيل، وكان ديلمياً»[2].

[الثانية:

وهي الرواية التي تجعل أباه إما من سبي الأولَين، فباعاه إلى بني بكر، وإما من سبي بني بكر وولاؤه في شيبان، تقول هذه الرواية:

---

(١) ابن قتيبة، المعارف، ص ٢٣٥.

(٢) أبو الطيب اللغوي، مراتب النحويين، ص ٧٣.

١ ــ «حماد بن ميسرة. . . مولى بني شيبان. . الأصمعي. قلت لحماد: ممن أنتم قال: كان أبي من سبي سلمان بن ربيعة، فطرحتنا سلمان لبني شيبان، فولاؤنا لهم»[(١)].

٢ ــ «أبو القاسم حماد بن سابور بن المبارك بن عبيد، وكان سابور يكنى أبا ليلى، من سبي الديلم، سباه (ابن) عروة بن زيد الخيل، ووهبه لابنته ليلى، يخدمها خمسين سنة، ثم ماتت، فبيع بمئتي درهم، فاشتراه عامر بن مطر الشيباني وأعتقه»[(٢)].

٣ ــ «حماد بن ميسرة بن المبارك بن عبيد الديلمي، مولى بني بكر ابن وائل، وقيل مولى مكنف بن زيد الخيل، الكوفي المعروف بالراوية»[(٣)].

٤ ــ «أبو القاسم حماد بن أبي ليلى سابورَ، وقيل: ميسرة بن المبارك بن عبيد الديلمي الكوفي، مولى بني بكر بن وائل»[(٤)].

وسواء أكان الذي سبى أباه، هو مكنف بن زيد الخيل، حسب رواية ابن قتيبة، أو ابن أخيه عروة بن زيد الخيل، حسب رواية ابن النديم، فإن المدة الزمنية الطويلة التي قضاها والده في خدمة ليلى بنت عروة (خمسين سنة)، لهي دليل على أن السبي وقع في أثناء الفتوحات الإسلامية الأولى، ثم بيع حماد وأبوه إلى بني شيبان.

وتذكر رواية أوردها المبرد أن حماداً روى لابنة عروة، ليلى، خبراً عن واقعة اشترك فيها زيد الخيل[(٥)].

---

(١) الأصفهاني، الأغاني جـ٦، ، ص ٦٨.
(٢) ابن النديم، الفهرست، ص ١٠٤.
(٣) ياقوت، معجم الأدباء، جـ ٤، ص ١٣٧.
(٤) ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ٢، ص ٢٠٦.
(٥) الكامل، جـ ٢، ص ص ٢٠٠ ـ ٢٠١.

ويقدِّم تاريخ ميلاد حماد، حوالى سنة ٧٥ هـ، أو ٩٥ هـ، وهو ما سنناقشه بعد قليل، دليلاً آخر على قدم هذا السبي، فإذا طرحنا خمسين سنة من خمس وتسعين، فالباقي هو خمس وأربعون (٩٥ ـ ٥٠= ٤٥) وهنا نقترب جداً من عصر الفتوحات تلك، ونكون قد اقتربنا أكثر لو أخذنا بالرأي الذي يجعل ميلاده سنة ٧٥ هـ (٧٥ ـ ٥٠= ٢٥).

أما الخلاف حول سلسلة نسبه، فيَحُلُّه اتفاق ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ)، وأبي الطيب اللغوي (ت ٣٥١ هـ) على اسم والده: هرمز، ثم عدم تجاوز أبي الفرج (ت ٣٥٦ هـ)، ذكرَ والده ميسرة، وتأكيده في رواية أخرى نقلاً عن الأصمعي أن المسبي هو أبوه: «كان أبي...»، وهذا ما وجدناه أيضاً في رواية ابن النديم الذي قال:

«حماد بن سابور بن المبارك بن عبيد، وكان سابور يكنى أبا ليلى، من سبي الديلم، سباه (ابن) عروة بن زيد الخيل».

فالمسبي على هذا، هو والد حماد. أما الأسماء الأخرى، فلعلها متداخلة، ولعل سابور أباه، في رواية ابن النديم، هو سابور جده عند ابن خلكان، ولعله هو المبارك وعبيد عنده وعند غيره، أو لعل هذه التسميات تسميات استجدت على سلسلة نسبه بعد أن دخل في الإسلام.

ولا بد أن نضع في الحسبان، أن هناك حماداً آخر، يلتبس اسمه باسم حماد، حتى يغدو من الصعب التفريق بينهما. يقول الجاحظ:

«حماد بن سابور، يهجو حماد بن أبي ليلى الراوية»[1] وليس في أيدينا ما يحل هذا اللبس، فقد رأينا حماداً صاحبنا، مرة: حماد بن سابور، ومرة أخرى: حماد بن أبي ليلى.

ومع كل، فنسب حماد عند ابن قتيبة ثنائي هو:

---

(١) البرصان والعرجان، ص ص ٣٠٠ـ٣٠١.

حماد بن هرمز

وعند أبي الفرج ثنائي أيضاً، وهو:

حماد بن ميسرة

أما عند ابن خلكان، فثلاثي وهو:

حماد بن أبي مسيرة بن ليلى سابور

وهو رباعي عند ابن النديم:

حماد بن سابور بن المبارك بن عبيد

وعند ياقوت:

حماد بن ميسرة بن المبارك بن عبيد

وعند ابن خلكان كذلك:

حماد بن ميسرة بن المبارك بن عبيد

وعلى الرغم من أن ابن قتيبة وأبا الطيب اللغوي، يتفقان على أن مكنف بن زيد الخيل هو الذي سباه، فإن رواية ابن النديم التي تجعل السبي يقع من ابن عروة بن زيد الخيل، أقرب إلى الترجيح. حقاً عاش مكنف إلى ما بعد سنة ٢٢ هـ/ ٦٤٣ م، وكان صحابياً شهد حرب الردة مع خالد بن الوليد[١]، ولكن رواية المبرد (ت ٢٨٥ هـ)، تجعله ألصق بليلى بنت عروة بن زيد الخيل[١]، وقد وقع ابن النديم في خطأ عندما جعل ابن عروة، هو الذي وهب والد حماد إلى ليلى، في حين أن ذلك هو عروة بن

---

(١) الزركلي، الأعلام، جـ ٨، جـ ٢١٣.
(٢) الكامل، جـ ٢، ص ص ٢٠١ ـ ٢٠١.

زيد الخيل، وهو من روى عنه حماد، وقد شهد القادسية[1].

ومهما يكن، فأصل حماد من بلاد الديلم، التي تقع خارج حدود إقليم بلاد فارس، الذي يقع على بحر الهند والخليج العربي، بين البصرة والأهواز وكرمان[2].

ولهذا فلا عبرة بما قاله الطاهر مكي من أنه: «**من أصل فارسي**»[3]، ثم من أين علم الطاهر مكي أنه: «**ينتمي إلى أسرة محاربة من الديلم**»[4]، وما سُبِي والد حماد إلا لأن بلاده فتحت حرباً؛ وإن كان أبوه شارك في الحرب، فهذا لا يعني أن الأسرة كلها محاربة، ومعنى «**محاربة**»، ذات قيمة في الترتيب الطبقي الاجتماعي في ذلك الزمان وفي ذلك المجتمع الأجنبي بوجه خاص.

ب ــ ميلاده:

رأينا فيما سبق أن المسبي هو والد حماد، وأنه أمضى زمناً طويلاً

---

(١) ابن الشجري، الحماسة الشجرية، ص ص ٧٤ ـ ٧٥.

(٢) انظر الدراسة القيمة التي قدمها طه الحاجري عن أبي عبيدة. مجلة الكتاب المصري، ص ص ٢٧٧ ـ ٢٧٨.

وانظر دراسة غير منشورة عن حماد، محفوظة بدار الكتب المصرية: عبد الحكيم مصطفى، «حماد الراوية» (١٤٠٠ هـ/ ١٩٨٠ م) رقم ٢٥٣/ ١٩٨١، الرقم الخاص ٨١٢٠٦. ومع أن هذا الكتاب البالغ ١٤٥ صفحة، مخصص لحماد، فإن ما يتعلق فيه به هو من ص ص ١١٦ ـ ١٤٢، والباقي حديث عام مكرور عن قضية الانتحال. بل إن تلك الصفحات نفسها تعد إعادة لما تداولته الأقلام عن حماد، وفي الدراسة من موافقة المأثور شيء كثير، مثل موافقته للتهم الموجهة إليه ص ص ٣٦ ـ ٣٧، وأجملها رأيه ص ١٣٥، وعلى العموم، فالكتاب نموذج لكتب المحاضرات «الجامعية» المطبوعة.

(٣) مصادر الأدب، ص ٢٤.

(٤) المرجع نفسه.

ويبدو أن الديالمة كانوا محاربين أشداء ويكونون فرقة قوية كبيرة في الجيش الفارسي الذي حارب في القادسية ضد المسلمين، واشترك فيها عروة بن زيد الخيل. انظر أبيات عروة، في ابن الشجري، الحماسة الشجرية، ص ص ٧٤ ـ ٧٥.

في خدمة ليلى بنت عروة بن زيد الخيل منذ أوائل الفتح الإسلامي في أواخر العقد الثاني من القرن الأول الهجري. وهناك رأيان حول ولادة حماد، **فابن النديم (ت ٣٨٥ هـ)، يرى أنه ولد سنة خمس وسبعين من الهجرة**[١]، **أما ابن خلكان (ت ٦٨١ هـ)، فيجعلها سنة خمس وتسعين من الهجرة**[٢].

ومن الملاحظ أن حماداً كان راوية يُعتد به في عهد خالد القسري[٣] (١٠٥ هـ ـ ١٢٠ هـ)، والظاهر أن هناك تصحيفاً وقع في وفيات الأعيان، فبدلاً من (وسبعين)، صارت عنده (وتسعين)، وبهذا ترتد سنوات ميلاده لتقترب من التاريخ الذي حدده ابن النديم، أي سنة ٧٥ هـ. ويتناسب هذا مع ما مر من أن والد حماد أمضى خمسين سنة، بزيادة هذه السنين الخمسين على أواخر العقد الثاني من القرن للهجرة.

حـ ـ سنه:

قلنا تواً أن سنوات ميلاده تقترب من تحديد ابن النديم، أي إنها لا تتطابق معها، فعلى الرغم من أن ابن النديم قدَّم تاريخاً لميلاده، يمكن أن يؤخذ به، فإنه يبدو تاريخاً غير دقيق، ويخضع لبعض الاحتمالات، إذا ما رحنا نفحص بعض الروايات التي صاحبت حياته، فمن ذلك:

١ ـ روى أبو الفرج أنه اجتمع بزياد بن أبيه، فأنشده، يقول:

«دخلت على زياد، فقال لي: «أنشدني...»[٤].

---

(١) الفهرست، ص ١٠٤.
(٢) وفيات الأعيان، جـ ٢، ص ٢٠٩.
(٣) المصدر نفسه، جـ ٢، ص ٢٠٩.
(٤) الأغاني، ص ٦، ص ٨٨.

وقد تولى زياد البصرة والكوفة وسائر العراق من سنة ٤٤ هـ إلى وفاته سنة ٥٣ هـ[١].

٢ ـ ذكرت إحدى مخطوطات وفيات الأعيان، أنه اجتمع بعبد الملك ابن مروان (ت ٦٩ هـ)[٢].

ويلغي هذان الخبران تماماً ذلك التحديد الذي حدده ابن النديم لسنة ميلاده، بل إنه يبتعد عن ذلك التأريخ (٧٥ هـ)، بمسافة زمنية إلى الوراء، تصل إلى عشرين سنة تقريباً. ومع ذلك فستمسك بتحديد ابن النديم[٣].

وتتوالى بعد ذلك الإشارات على تأكيد تقدم عمره في هذا العصر بالذات، فنجد:

١ ـ روى ابن خلكان عن حماد قوله:

«كان انقطاعي إلى يزيد بن عبد الملك بن مروان في خلافته، وكان أخوه هشام يجفوني لذلك، فلما مات يزيد، وتولى هشام... فإذا شرطيان قد وقفا علي وقالا: يا حماد، أجب الأمير يوسف بن عمر الثقي...»[٤].

ثم علق ابن خلكان على ورود اسم يوسف بن عمر، فقال:

«وما يمكن أن تكون هذه الواقعة مع يوسف بن عمر الثقفي، لأنه لم يكن والياً بالعراق في التاريخ المذكور، بل كان متوليه خالد بن عبد الله القسري»[٥].

---

(١) الزركلي، الأعلام، جـ ٣، ص ٨٩.

(٢) جـ ٢، حاشية ص ٢٠٦.

(٣) انظر الاضطراب في الرواية التي تحكي عن قصة لقائه بزياد بن أبيه في: المرزباني، الموشح، ص ص ٢١٦ ـ ٢١٧.

(٤) وفيات الأعيان، جـ ٢، ص ص ٢٠٧، ٢٠٨.

(٥) المصدر نفسه، ص ٢٠٩.

ولخبر ابن خلكان وملاحظته وجهان ذوا قيمة:

الأول:
أن حماداً أدرك ولاية يزيد بن عبد الملك (١٠١ هـ ـ ١٠٥ هـ).

الثاني:
أن الأمير المقصود هنا، ليس هو يوسف بن عمر الثقفي، وإنما هو خالد بن عبد الله القسري، الذي قُتِل على يد يوسف بن عمر، والي العراق وخراسان (١٢٠ هـ ـ ١٢٦ هـ). في عهد هشام[١].

ويدل هذا على تأكيد اشتهار صيت حماد في خلافة يزيد بن عبد الملك، وهذا الخبر هو عين الخبر الذي سبق أن أورده أبو الفرج[٢]، مما يثبت اتصال حماد بيزيد بن الوليد حقيقة.

وهناك خبران آخران يدلان دلالة قاطعة على حقيقة ذلك الاتصال:

أحدهما:
أنه صَنَع، فيما قيل، أبياتاً لخالد بن عبد الله القسري[٣].

والآخر:
أنه اتصل ببلال بن أبي بردة وروى له شعراً[٤]، وبلال كان عامل خالد بن عبد الله القسري على البصرة، وقتل أيضاً على يد يوسف بن عمر، عند مقدمه لولاية العراق سنة ١٢١ هـ[٥].

---

(١) الزركلي، الأعلام، جـ ٩، ص ٣٢٠. وانظر ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ٧، ص ص ١٠١ ـ ١١٢.
(٢) الأغاني، جـ ٦، ص ٧٢.
(٣) الأغاني، جـ ١٤، ص ١٥١.
(٤) المصدر نفسه، جـ ٦، ص ٨٤.
(٥) ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ٧، جـ ١٠٦.

فإذا حسبنا عمر حماد في هذا الزمن، فإنه يكون قد اقترب من الخمسين سنة، وفق مقولة ابن النديم (أي سنة ٧٥ هـ)[1]، (أو يزيد على ذلك كثيراً، أي يقرب من السبعين سنة، مقارنة بلقائه زياد بن أبيه).

ولعل مما يشجع على تجاوز ذلك، أن مروان بن أبي حفصة، يتحدث عن لقائه حماداً في عهد الوليد بن يزيد (١٢٥ هـ ـ ١٢٦ هـ)، فيصفه بالشيخ، يقول:

«فأقبل عليّ الشيخ، وقال: يا ابن أخي»[2]

وفي عبارة حماد معنى يدعم هذه الصفة، فقوله: «يا ابن أخي»، يجعل من مروان بن أبي حفصة (١٠٥ هـ ـ ١٨٢ هـ)[3]، أصغر منه سناً ويجعل أبا حفصة والد مروان، هو الذي يساويه زمنياً. وتأتي الصفة: «الشيخ»، لتعود بنا أدراجاً إلى مرحلة أسبق، قد تتفق مع تحديد ابن النديم لميلاده، أي سنة (٧٥ هـ).

ولا يقصد مروان بالشيخ هنا احترامه وتقديره، وإنما يقصد عمره الزمني حقيقة، لأنه يسخر منه فيتهمه باللحن، حتى إنه يندهش لمحادثته الوليد نفسه[4].

ولا تقتصر الأدلة على تقدم سن حماد، على الناحية الحسابية فقط، بل إن هناك ما يحقق هذا من أقوال القدماء. فابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ)، يصفه بأنه:

«كان قديماً»[5]

---

(١) الأغاني، جـ ٦، ص ٨٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ٦٩.

(٣) الزركلي، الأعلام، جـ ٨، ص ٩٥.

(٤) الأغاني، جـ ٦، ص ٦٩.

(٥) المعارف، ص ٢٣٥.

وهكذا فعل أبو الطيب الذي قال عنه أيضاً:

«كان قديماً»

هذا من ناحية، أما من ناحية أخرى، فإن أبا عمرو بن العلاء (٦٩ هـ ـ ١٥٥ هـ)، كان يدرك هذه المكانة لحماد، فكان يقدمه على نفسه ويشيد بعلمه[١]. ولا يقتصر تقدير أبي عمرو لحماد على تلك المكانة، وإنما يضاف إليها عامل السن أيضاً، لتقاربهما سناً على الأقل.

ولقد عاصر حماد خليفتين آخَرين من الخلفاء الأمويين، عدا يزيد بن عبد الملك، إذ اتصل بهشام بن عبد الملك[٢] (١٠٥ هـ ـ ١٢٥ هـ)، وتوثقت صلته بالوليد بن يزيد بن عبد الملك[٣] (١٢٥ هـ ـ ١٢٦ هـ). وكان في عهدهما ذا باع طويلة في رواية الشعر، حتى امتلك في هذا العصر بالذات لقب «الراوية»[٤].

د ـ وفاته:

ظهر لنا أن حماداً كان «قديماً»، حسب وصف ابن قتيبة له، ومن ثم أصبح تأريخ وفاته نفسه مثار سؤال وعدم يقين. وربما ألقى هذا التساؤل وعدم اليقين بظلالهما حتى على سنتي وفاته: التي قال بها ابن خلكان، أي ١٥٥ هـ، والتي قال بها ابن النديم، أي ١٥٦ هـ. فعمره حسب تاريخ ميلاده عند ابن النديم، يكون حينذاك (١٥٦ ـ ٧٥= ٨١ سنة).

وإنه لمن المؤكد أن حماداً أدرك ميلاد الدولة العباسية، ولعل مما

---

(١) مراتب النحويين، ص ٧٣.

(٢) الزبيدي، طبقات النحويين، ص ٣٧ وانظر، الأغاني، جـ ٦، ص ٧١.

(٣) الأغاني، جـ ٢٣، ص ٣٦٨.

(٤) المصدر نفسه، جـ٦، ص ٦٩.

(٥) المصدر نفسه، جـ٦، ص ٦٨.

يرجح وجوده في أوائل الدولة العباسية، ما روي عن اجتماعه بأبي مسلم الخراساني، ومعاصرته للخليفة الثاني في الدولة العباسية، أبي جعفر المنصور (١٣٦ هـ/١٥٨ هـ)، وقول مروان بن أبي حفصة:

«ثم لم ألقه إلى زمان المسودة»[١]

ومع أن الدارسين المحدثين يذهبون إلى رفض امتداد عمره حتى سنة ١٦٤ هـ، وهي السنة التي بنى فيها المهدي قصره من لبن، في عيساباذ[٢]. كما يرفضون بقاءه إلى سنة ١٦٦ هـ، وهي السنة التي انتقل فيها إلى قصره المسمى بـ «قصر السلامة»، والمبني بالآجر[٣]، والتقى فيها بالمفضل[٤]، فإن الإشارات التاريخية تؤكد تجاوز السنتين اللتين حددهما ابن النديم وابن خلكان، فقد ذكر أبو الفرج قصة أخرى التقى فيها حماد بالمهدي الذي تولى الخلافة سنة ١٥٨ هـ، كما قال ابن النديم عنه:

«جالس المهدي»[٥].

وفي استعمال ابن النديم للفعل: «جالس»، ما يدل على التكرار والمعاودة، وقال كذلك رواية عنه:

«كنت أنشد المهدي»[٦].

وقال ابن خلكان:

«قيل إنه توفي في خلافة المهدي»[٧].

---

(١) الزجاجي، مجالس العلماء، ص ٢٨.
(٢) الطبري، تاريخ....، جـ ٨، ص ١٥٠.
(٣) المصدر نفسه، ص ص ١٥٠، ١٦٢.
(٤) انظر مثلاً: الأسد، مصادر...، ص ٤٤٣. جواد علي، المفصل، جـ ٩، ص ٣١٧.
(٥) الفهرست، ص ١٠٤.
(٦) المصدر نفسه.
(٧) وفيات الأعيان، جـ ٢، ص ٢٠٩.

وهذا يعني أن ابن النديم وابن خلكان نفساهما تشككا بما ذكراه من تحديد. وعلى هذا الأساس، فلا مانع من قبول ذلك اللقاء في حدود السنتين ١٦٤ هـ و ١٦٦ هـ، وقبل وفاة المهدي سنة ١٦٩ هـ.

ويدفعنا هذا التحديد إلى استبعاد لقاء حماد بهارون الرشيد، وهو اللقاء الذي يحل فيه هارون الرشيد محل المهدي في لقائه بحماد والمفضل الضبي[١].

هـ ـ الشعوبية:

ربط كثير من الكتاب المحدثين بين الشعوبية وحماد، على أساس أن حماداً رجل فارسي، والفرس حملوا لواء العداوة والبغضاء للعرب، واتخذوا من الروايات المتعددة عن الانتحال التي راجت حوله، والتعبيرات التي وصفه بها بعض العلماء، أحكاماً يقيسون عليها مفاهيمهم عن الشعوبية: وإذا كان البحث (العلمي) المعاصر يتحمل مسؤولية تأكيد تلك الأحكام وترويجها، فإن المقاييس التي اتكأوا عليها هي مقاييس في أساسها، غير أكيدة وليست قوية، كما سوف نرى في نقاشنا المقبل.

وإذا كان الجاحظ هو أبرز دعاة العروبة، في مقابل الشعوبية، فإن الجاحظ ذكر في كتبه حماداً ولم يقرنه بالشعوبية، ولم يقل عنه ما توهمه المحدثون فيه. ولذلك فإن ربطه بأحد تصرفات الشعوبية، الزندقة، جاء متأخراً، وذلك انطلاقاً من مواقف دينية أو سياسية خالصة، لا علاقة لها بارتباط الزندقة بالشعوبية، وهو أمر سنتحدث عنه في حينه.

ولا بد أن نلتفت بَعْدُ إلى أن الشعوبية مسمى اختص به الفرس، وهو وليد اصطدام حضاري وثقافي واجتماعي بالعرب، ولم يكن

---

(١) السيوطي، شرح شواهد المغني جـ ٢، ص ٧٥٤.

حمادٌ فارسياً، وإنما هو من سبي الديلم، أي خارج المنطقة الجغرافية الفارسية. ثم ما لنا نذهب بعيداً، ونحن نجد أبا عبيدة، الذي أسهم في تغذية الشعوبية، يتهم حماداً وينقل ما يُجرِّحه، ولا يتخذ أحد ذلك دليلاً على حب حماد للعرب أو العربية؟

ومهما يكن، فإن حماداً نشأ في بيت أحد العرب، ممن له أمجاده وتراثه العريقان، وأخص من ذلك، نشأ في بيت أدب وثقافة؛ فتغذى على ذلك، ولم تكن هذه التربية متأخرة، وإنما كانت تربية مبكرة قبل بروز الشعوبية في العصر العباسي. ولعل مما يرجح تعلق حماد بالعربية، وعدم مشاركته في الشعوبية، أن شعراء موالي كثيرين، حتى من الفرس، فيما عدا إسماعيل بن يسار، أحياناً، كانوا منضوين تحت لواء العروبة والإسلام، ولم يكونوا أعداء لأي منهما. وربما تساءلنا بعد ذلك: أيجوز أن يصحب حمادٌ بلالاً، وهو المعروف بتشدده وتقواه، ثم تغيب عنه حركة حماد، وهو يلاحظ عليه ملاحظات هي أحد دوافع المحدَثين لاتهامه بالشعوبية؟

ولو أغفلنا الكثرة الكثيرة من الإنتاج الأدبي الذي يتناول هذا الزعم، فإنه قد يكون من المجدي أن نستشهد بقولين، هما في الحقيقة تكرار لما هو متداول عن حماد:

الأول:

يقول إبراهيم أبو خشب، وهو يتحدث عن ظاهرة الانتحال:

«وفارس هذا الميدان هو حماد الراوية لأنه بذَّ جميع الرواة عرباً وموالي... وكان ـ لبصره بالشعر ـ أقدر من غيره على الوضع والانتحال لأغراض شخصية أو شعوبية»[1].

---

(١) تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، ص ٧٢.

الثاني:

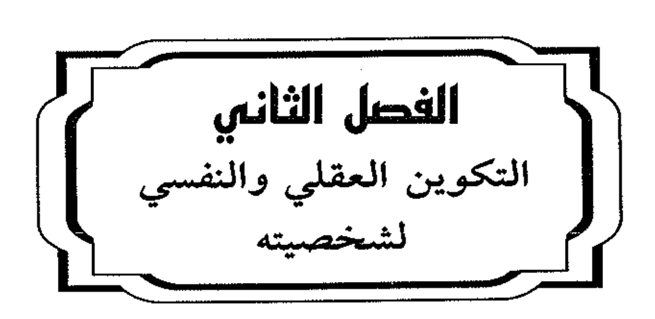
يقول حسين عطوان عن الظاهرة نفسها، وهو يتحدث عن هؤلاء الموالي بشكل عام:

«عبثوا بالشعر الجاهلي عبثاً شديداً، سواء بنسبة الشعر إلى غير قائله، أو بوضع الأشعار وإضافتها إلى تراث الجاهليين، حتى لا يكون للعرب أدب موثوق به، يطمئن الناشئة إليه، ويكبون عليه. وعرف منهم بذلك عديدون أشهرهم حماد الراوية، الذي جرحه علماء الكوفة والبصرة واتهموه بصنع الشعر وإفساد التراث...»[1].

وهذا كلام ألقي على عواهنه جزافاً، ولم يتأسس على حقائق بينة جلية، وإنما هو قول شاع وذاع، حتى لم يعد منه مفر، بعد أن أغمضت الأعين عن واقع مستتر، سنتبينه في كل سطر من سطور هذا الكتاب.

---

(١) الشعراء من مخضرمي الدولتين، ص ٢٤٩.



أ ــ الذاكرة:

ليس أمراً مبالغاً فيه أن يدّعي المرء أن حماداً أعجوبة عصره، وأحدوثة زمانه، فكل القرائن تشير إلى أنه ليس رجلاً عادياً، بل إنه رجل امتلك قدرة خارقة على الحفظ والاستظهار، حتى أذهل معاصريه، فأحاطت به هالة من الإعجاب والتقدير، دفعت بالخلفاء والأمراء، في إبّان نشاط ذاكرته، إلى استحضاره والاستماع إلى إنشاده، حتى إنهم في أسوأ الحالات معه ـ كموقف بلال بن أبي بردة من إنشاده أبياتاً للحطيئة في مديح أبي موسى الأشعري، وهو ما سنتناوله في حينه ـ كانوا لا يجدون بداً من مواصلة الاستماع إليه، والإصغاء إلى روايته.

حقاً، كان حماد ممن يمتلك ذاكرة عجيبة *Phenomenal Memory* */Phantastic Memory*، ذات امتيازات على التقاط الأصوات المثيرة إلى حد بعيد *Prodigious mnemonic feats*؛ وحتى لا يبدو هذا القول تحيزاً نحو حماد، أو مسايرة لما هو شائع عن أمثاله من المحترفين في كل الآداب العالمية، نستشهد هنا بإحدى الحالات، التي لا نعدم أمثالها كثيراً في الأدب العربي؛ إنها قصة العالم البصري، الأصمعي: ذلك أنه اجتمع هو ومعمر بن المثنى وأبو عبيدة، وعدد آخر من أهل الأدب في حضرة الحسن بن سهل لما قدم العراق، وفي أثناء الجلسة، راح الحسن ينظر في

خمسين رقعة بين يديه في قضاء حاجات الناس، ويوقع عليها، وبعد ذلك، أخذ الجلساء في ذكر الحُفّاظ، فقال أبو عبيدة للأمير، وهو يعني الأصمعي: «ما قرأ كتاباً قط، فاحتاج إلى أن يعود فيه، ولا دخل قلبه شيء فخرج منه». فالتفت الأصمعي، وقال للأمير: «الأمر في ذلك على ما حكى، وأنا أُقَرِّب عليه. قد نظر الأمير فيما نظر من الرقاع، وأنا أعيد ما فيها، وما وقّع به الأمير رقعة رقعة، على توالي الرقاع». وقد برهن الأصمعي للأمير على ذلك، ذاكراً ما كان في الرقعة واسم صاحبها، حتى سرد نيفاً وأربعين رقعة، وكان سيتمها لولا أن الأمير أوقفه[1].

ثم مالنا نذهب بعيداً وقد كان من أسس الرواية الصحيحة المعتمدة، تميز صاحبها بالحفظ والأخذ مشافهة، وهو ما ألح على توضيحه ابن سلام، حين شن حملة على من تكون بضاعته في الرواية محصورة في الصحف، أو يجعلها مستنده الرئيس[2].

وسوف نناقش فيما بعد أمثلة من روايات حماد التي حاز فيها على إعجاب غيره واهتماماتهم، حتى ذهبوا في تفسيرها مذاهب شتى، ويبقى بعد هذا أن هؤلاء كانوا يعترفون له بالتفوق في الحفظ حتى قال فيه الطرماح مقارناً إياه بغيره:

«كان . . . أحفظهم»[3].

ب ـــ الذكاء:

يصعب الفصل بين الذاكرة ذات المستوى الفائق والذكاء، فالرواة

---

(١) القفطي، إنباه الرواة، جـ ١، ص ص ٩٠ ـ ٩١.

(٢) طبقات، ص ٦.

وانظر الفصل الذي كتبه أستاذنا مصطفى حسين، عن «الحفظ» في كتابه، رواية الشعر العربي، ص ص ٣٧ ـ ٤٨.

(٣) الأغاني، جـ ٦، ص ٩٠.

العرب الذين عرفهم الأدب العربي ـ من غير أن نذكر العلوم الأخرى، كالحديث والفقه واللغة ـ كانوا يتمتعون بذكاء حاد يصل حد العبقرية، إن لم يكنها؛ فهم لا يختلفون في ذلك عن أولئك الرواة العالميين، من أمثال رواة الملحمة الهومرية، والرواة المتجولين في بلاد الغال، والرواة المغنين السلافيين والرواة الآيسلنديين القدامى... إلخ[1]. وربما كان الذكاء في حالة حماد، أبرز من غيره في توظيفه لخدمة مهنته، فقد تفرغ الرجل كلية للرواية، فتوجه ذكاؤه نحو تنميتها والمحافظة على استمرار عملها وصقلها بتركيز ودأب، فلم يكن منشغلاً إلا بمادته الشعرية التي يسعى للحصول على أكبر كم منها.

وحيث إننا سنصادف جوانب متعددة تثبت ذلك، فإنه مما يكفينا هنا أن نستشهد بموقف استغل فيه حماد ذكاءه للخروج من مأزق أعاق غيره، وهو في هذا إنما يلجأ إلى ذخيرته الشعرية، التي هي سلاحه، يقول أبو الفرج:

«قدم حماد الراوية على التفئة بالشأم، فشكوا ذلك إليه، وقالوا: والله، لقد ذهب طريح بأمير المؤمنين، فما نالنا منه ليل ولا نهار، فقال حماد: أبغوني من ينشد الأمير بيتاً من شعر، فأُسقِط منزلته، فطلبوا إلى الخصي، الذي كان يقوم على رأس الوليد، وجعلوا له عشرة آلاف درهم، على أن ينشدهما أمير المؤمنين في خلوة، فإذا سأله: من قول من ذا؟ قال: قول طريح، فأجابهم الخصي إلى ذلك، وعلموه البيتين، فلما كان ذات يوم، دخل طريح على الوليد، وفتح الباب، وأذن للناس، فجلسوا طويلاً، ثم نهضوا، وبقي طريح مع الوليد، وهو ولي عهد، ثم دعا بغذائه، فتغذيا جميعاً، ثم إن طريحاً خرج وركب إلى منزله، وترك الوليد في مجلسه ليس معه أحد، فاستلقى على فراشه، واغتنم الخصي خلوته، فاندفع ينشد:

سِيرِي رِكَابِي إِلَى مَنْ تَسْعَدِينَ بِهِ ... فَقَدْ أَقَمْتِ بِدَارِ الْهُونِ مَا صَلُحَا

---

(١) انظر عن هؤلاء *Zwettler, the Oral Tradition, P. 18*.

سِيـرِي إِلَـى سَيِّـدٍ سَمْـحٍ خَـلاَئِقُـهُ ضَخْمِ الدَّسِيعَةِ قَرْمٍ يَحْمِلُ الْمِدَحَا[1]

ويبرهن هذا على صدق مقولة الطرماح فيه مرة أخرى بأنه:

«كان أذكى الناس»[2].

ومع ذلك. فعلى الرغم من هذا المستوى الرفيع من حدة الذكاء وقوة الذاكرة، كما يثبته التجارب والتاريخ عنه، وعند أمثاله. فإن خلفا الأحمر يقول عنه:

«كان فيه حمق»[3].

فهل يعني خلف بالحماقة: السلوك، أم القدرات الذهنية؟ فلو كان ما يعنيه هو السلوك، فإنه قد يتوجه إلى ما سيأتي عن سلوكه، وهو مسألة أخلاقية يرجع الحكم فيها إلى نظرة الشخص ومواقفه، أما إذا كان ما يقصده، هو نوع من سوء التدبير أو التفكير، فإنه أمر - يبدو - غير صحيح.

وربما أوضح لنا قول خلف التالي، جانباً آخر من جوانب ذلك الحكم.

يقول خلف:

«كنت آخذ من حماد الراوية الصحيح من أشعار العرب، وأعطيه المنحول، فيقبل ذلك مني ويدخله في أشعاره»[4].

---

(١) الأغاني، جـ ٤، ص ٣١٤.

التفئة: الحين والزمان. الدسيعة: العطية، والجفنة الواسعة والمائدة الكريمة. كان الوليد في أواخر حكم هشام معتزلاً في الأزرق على ماء له بالأردن. انظر ابن الأثير، الكامل، جـ ٥، ص ص ٢٦٥ - ٢٦٦.

(٢) الأغاني، جـ ٦، ص ٩٠.

(٣) المصدر نفسه، جـ ٦، ص ٨٨.

(٤) المصدر نفسه.

فهل نستشف من ذلك أن حماداً كان غبياً، وهل يفسر هذا ما وصفه به، أي «أحمق»؟ لقد قالت سنية أحمد محمد عن هذه الحادثة:

«الحقيقة أن النص يشكل طعناً في خلف، قبل أن يكون طعناً في حماد، فكيف يأخذ عن أستاذ حقت عليه الغفلة والغباء؟».

ثم تواصل الباحثة رأيها فتقول:

«إن ما في هذا النص مشكوك فيه ومما يضاعف شكنا وجود نص مقارب له مروي عن أبي زيد يقول فيه: «حدثني خلف الأحمر، قال: أتيت الكوفة لأكتب عنهم الشعر، فبخلوا علي به، فكنت أعطيهم المنحول وآخذ الصحيح، ثم مرضت، فقلت لهم: ويلكم!، أنا تائب إلى الله هذا الشعر لي، فلم يقبلوا مني، فبقي منسوباً إلى العرب لهذا السبب».

ثم تنتهي إلى النتيجة التالية، فتقول:

«وهذا النص يكاد أن يكون النص الذي سبق أن أشرنا إليه، سوى أنه وسع دائرة الأمر، فجعله يعم الكوفيين جميعاً، ودواعي الشك فيه هي الغالبة، يتضح هذا المعنى من النص نفسه، حيث يناقض بعضه بعضاً، فتارة يبخل الكوفيون على خلف بالرواية، ثم يذكر أخذه للرواية الصحيحة منهم وإعطاءهم الرواية المنحولة، فكيف يحكم عليهم بالثقة دونما قصد وعلى نفسه بالوضع إن كان هذا رأيه حقاً؟»[1].

ورأي سنية ذو قيمة في إبطال تهمة الحماقة، أي الغفلة والغباء، كما فهمتها، ولعل ما أثارته من شكوك حول الخبر، كان دون إضافة الطعن في أي من الرجلين. وقد أبدى جواد علي، رأياً جديراً بالقبول حين قال:

«ويصعب في الواقع تصديق هذه الرواية المنسوبة إلى خلف الأحمر، فلم يكن حماد بإجماع المنافسين له على شيء من الغفلة والحمق،

---

(١) النقد اللغوي في القرن الثاني، ص ص ١٠٨ ـ ١٠٩.

حتى نصدق ما ورد في هذا الخبر الآحاد، الذي هو خبر من أخبار رواة البصرة، بل نرى من الأخبار الواردة عنهم العكس، نرى فيه الفطنة والخبث إلى آخر أيامه. ثم إنه كان أقدم وأشهر وأعرف وأحفظ من خلف الأحمر، وهو في معرفة الشعر وتمييزه أمرس من صاحبه خلف، فلا يعقل فوات ما نحله (خلف) القدماء على حماد. وقد كان الرواة أنفسهم يتعجبون من مقدرة حماد على التمييز بين الصحيح والفاسد من الشعر، وعلى إحاطته بأساليب الجاهليين في نظم القريض، وعلى إتقانه تلك الأساليب، حتى صار من الصعب على عشاق الشعر التمييز بين ما كان يصنعه حماد على ألسنة الشعراء الجاهليين وبين ما كان من نظمهم حقاً. ولهذه الأسباب يصعب التصديق بهذا الخبر، ورأيي أنه من وضع أهل البصرة، وضعوه على حماد، كرهاً له وللكوفيين. ورواته هم من البصريين»[1].

فإذا ما قبلنا حقيقة هذا الخبر، واستبعدنا الطعن فيه، أو التزيد من الآخرين (لا خلفاً وحده)، فإنه لا مناص من العودة إلى سن الرجلين للحكم على واقع هذا الخبر، فخلف الأحمر توفي **١٨٥** هـ، وحماد توفي مبكراً في أوائل الدولة العباسية، كما رأينا. وكان خلف في عنفوان شبابه وحيويته، وكان حماد شيخاً أثَّرت فيه السنون والأيام، فكان يَقبل ما يرويه خلف، ويعطيه ما لديه. ولا بد هنا أن نضع حداً بيناً لتفسير مفهوم **«المنحول»**، فهو لا يعني الموضوع، وإنما يعني ذلك الشعر الذي قبله أهل الكوفة، واحتاط في قبوله ابن سلام، لأن ابن سلام يصف أهل الكوفة بأنهم:

«يروون أكثر مما نروي»[2].

فالمنحول الذي قبله خلف، هو ذلك الشعر الذي لا يخضع لمقاييس

---

(١) المفصل، جـ ٩، ص ص ٣٢٤ ـ ٣٢٥ وانظر، الأسد، مصادر، ص ص ٤٥٠.
(٢) طبقات، ص ١٢٣.

مدرسة البصرة، ولو كان خلف يعني بالمنحول ما راج أخيراً عن هذه الكلمة، لقال: الموضوع، أو المصنوع، أو كما سماه ابن سلام أيضاً: «**المفتعل**»[1]، والنوع الأول: أي «المنحول»، يتفق مع ما ترويه مدرسة الكوفة، حتى قال ابن سلام عن مرويات المفضل الضبي لشعر الشاعر القديم الأسود بن يعفر:

> **«ذكر بعض أصحابنا أنه سمع المفضل يقول: له ثلاثون ومئة قصيدة، ونحن لا نعرف له ذلك، ولا قريباً منه»**[2].

وهكذا يفسر لنا هذا الفهم صفة الحمق التي ألصقها به خلف ـ على افتراض صحة ذلك الخبر ـ أي إن حماداً ومدرسته الكوفية، يفتقدون الجانب التحليلي في رواية الشعر، ولا يتناولونه بالنقد والمعاينة.

---

(١) المصدر نفسه، ص ٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٢٣.

الفصل الثالث

المؤثرات العامة في سلوكه

أ ـ اللصوصية:

اتضح لنا فيما مضى من حديث عن مراحل حياة حماد، أنه رجل ولد في زمن مبكر، أي قديم، كما قيل عن ذلك، إذ رأيناه قادراً على إنشاد الشعر في مطلع القرن الثاني، ويجالس الملوك والأمراء والشعراء، ويتأسس على هذا، ذلك الخبر الذي ارتبط بصباه، والذي يقول:

> **«كان حماد الراوية في أول أمره يتشطر ويصحب الصعاليك واللصوص، فنقب ليلة على رجل فأخذ ماله، وكان فيه جزء من شعر الأنصار، فقرأه حماد، فاستحلاه وتحفظه، ثم طلب الأدب، والشعر، وأيام الناس، ولغات العرب بعد ذلك، وترك ما كان عليه، فبلغ في العلم ما بلغ»**[1].

ولكن أنى للمرء أن يقبل هذا الخبر، مهما كانت قوة صدقه؟ فلو أن حماداً ولد في أوائل العصر العباسي أو أواخر العصر الأموي، لترجحت كفة صدق الخبر، أمّا وقد ولد في زمن المحافظة الشديدة والتقاليد الثابتة، فكيف وقع ذلك؟ ثم إنه عاش، كما تبينا مع ليلى بنت عروة، وكان يروي لها الشعر، أي إنه اضطلع بمهمة الرواية وحب الأدب قبل أن يخرج من

---

(١) الأغاني، جـ٦، ص ٨٣.

ولاء آل زيد الخيل، لا سيما أن سياق الخبر، يجعله فتى راشداً يتصرف تصرف اللصوص المحترفين، وهو ما تدل عليه عبارات الخبر نفسه، مثل: «**صحب الصعاليك واللصوص**»، و«**نقب**»، و«**قرأه**».

إن هذا الخبر يعطينا، من ناحية، صورة عامة عن نشأة حماد وتكوينه الفكري والسلوكي، ففي نفسه رغبة داخلية ملحة لطلب العلم والأدب، إذ دفعه إحساسه الداخلي ذاك إلى الإطلاع على الكِتاب والنظر فيه، ولم يصرفه حب المال عن حب الأدب. وتدل عبارة: «**فاستحلاه**»، على اللذة التي شعر بها عندما وقع في يده مثل ذلك الكتاب، كما تدل عبارة «**وتحفظه**»، على استعداده الذاتي للحفظ، وأهم من هذا كله، أنها تكشف عن أن الحفظ نفسه لم يكن أمراً سهلاً، بل كان يستدعي ـ كما هو في هذه الحالة ـ المراجعة والاستذكار المستمرين، وهو ما تؤكده عبارة: «**تحفّظه**»، أي المداومة والمثابرة، ومن ثم كانت النتيجة هي طلب الأدب، لأن ذلك هو الشيء الطبيعي والمتوقع.

أما من ناحية أخرى، فإن الخبر يكشف عن رغبة حماد في الانعتاق من القيود الاجتماعية، واللوازم الأخلاقية، وهو ما حققه فيما بعد، حين استقل بذاته، وراح يكوِّن علاقاته وصداقاته الخاصة. ولهذا أكدت الخبر عبارة مهمة هنا، وهي: «**يتشطر، وصحب الصعاليك واللصوص**». فمن خصائص «**الشطارة**»، وهي من المفردات المتأخرة، حيث كانت «**الفتوة**»، أسبق منها ـ أن يتصف الشاطر بالظرف والذكاء والاستعداد للتخلص من المواقف المحرجة، أما الصعاليك، فإن أعم صفة لهم، أنهم كانوا سيِّء الحال، فقراء، وسنلاحظ بعد قليل أن هذه الحالة الأخيرة، كانت حالته في إبّان حياته في الدولة العباسية، مما يجعل الخبر وليد عصر متأخر.

وهكذا يتضح أن تهمة اللصوصية، إنما جاءت لتفسير بلوغه ذلك المبلغ في العلم والمعرفة الأدبية، لأن الكيفية التي حصل فيها على هذا

العلم، أدهشت غيره، وهو المولى «الأعجمي»، فراحوا يطلبون لها تفسيراً، فلم يعثروا عليه إلا بإسقاط الحاضر على الماضي.

وإضافة إلى هذا، فإن مسألة وجود كتب شعرية في ذلك الزمان الذي كان فيه حماد يافعاً، هي مسألة فيها نظر، وإنما جاءت في سياق الهدف من إيراد الخبر.

ولا بد أن سيماء الذكاء وقوة الذاكرة بدت عليه من مراحله الأولى؛ وحيث كان في بيت شعر وأدب، فلا بد أنه كان يستمع إلى رواية الشعر منذ طفولته، ثم تنامى الموقف معه تدريجياً، ولا شك أن هذه المحاولات خلقت لديه أذناً حساسة مرهفة للإيقاع واللغة، حتى أصبح قادراً على تمييز الألفاظ والأصوات، ولولا أنه وجد في نفسه الجرأة على النشيد، لما بقي له ذلك المحفوظ، ثم لولا أنه تعهد نفسه بالمراجعة والمثابرة على الاستعادة والنشيد، بل التعلم من جديد، لخمدت جذوة ذاكرته[1].

ويبقى بعد ذلك أن من عادة التفكير الشعبي أن يحاول تفسير الأعمال الخارقة أو الأقوال الفذة في كثير من الحكايات والقصص الخاصة بالأبطال والزعماء والعظماء والمفكرين؛ مما دفع إلى القول إن حماداً كان لصاً وإنه نقب جداراً ذات يوم... إلخ، وما هذا إلا لتفسير ظهور حماد المفاجىء على مسرح الأدب العربي، واحتلاله ذلك المركز المرموق، حيث خمل ذكر كثيرين من أمثاله من الرواة، وارتفع شأنه أيما ارتفاع، حتى إنه جاء فاصلة بين مرحلتين في الرواية الشفوية: مرحلة الراوي المتخصص برواية شعر شاعر معين، ومرحلة الراوي الذي يجمع شعراً كثيراً لشعراء متعددين؛ لا سيما أنه جاء خروجاً حتى على الأعراف

---

(١) انظر عن إبقاء المحفوظ: *Hunter, Memory. PP. 39 - 40*.

والمواضعات في ذلك العصر (أوائل النصف الثاني من القرن الأول الهجري)، فهو غير عربي الأصل، وهو غير بدوي أعرابي.

ويمكن أن نفترض بدء نشاط ذاكرة حماد في سن السادسة أو السابعة، وهي السن التي تتهيأ فيها الذاكرة الإنسانية للعمل المستمر. أما القول إنه وجد ما شجعه على الحفظ، فعلاوة على أنه يؤخر نشاط الذاكرة إلى سن أخرى، قد تكون سن المراهقة، فإنه ينتزع منه الحافز النفسي المتولد ذاتياً لديه نتيجة لوجوده في بيت أدب وثقافة. فالاستعداد النفسي والفكري للأدب، هو الذي كان وراء ذلك المحفوظ المبكر.

لقد تلقى حماد محفوظه بشكل طبيعي، وأخذ يتمثله تلقائياً وهو يتحسس جمالياته ويستمتع بصياغاته، وهذا ما جعله يمر بمراحل تدريجية، أي إن استيعابه كان خلال المتابعة الحرة *Process*.

وإضافة إلى ذلك، فإن هناك عاملاً خطيراً في تنشئة حماد هذه النشأة، فإذا كان معروفاً بأنه الراوية، الذي كان ينشد في المحافل الرسمية، فيستمتع ذوو الأذواق بإنشاده، فلا بد أنه اكتسب هذا المران منذ صغره فاستساغ معه الأصوات والأصداء الشعرية، وأصبح في سن مبكرة يألف الإصغاء إلى نفسه وهو ينشد الشعر، كما كان يحس بتأثير إنشاده على الآخرين، فتربى على ذلك الإنشاد والترديد *rehearsal* حتى صار ذلك جزءاً من حياته، فغلب عليه، وسمي الراوية، لأن هذا هو ديدنه واحترافه خاصة في وسط جماعي، ولقد دعمت الأبحاث المعاصرة هذه الحقيقة، فثبات المحفوظ الجاهلي في ذاكرته، إنما يعني أن تلقيها كان مبكراً[1].

ب ــ المجون:

إذا كانت تهمة اللصوصية، تهمة أصبحت من الأخبار التي يصعب

---

(١) انظر عن هذا: *Howe, Introduction PP. 40 - 42*.

تصديقها لقيام قرائن كثيرة على بطلانها، فإن تضافر الأدلة على اتهامه بالمجون، تثبت أنها كانت حقيقة عنده. وفي تعريف المجون يقول ابن منظور:

«المجون أن لا يبالي الإنسان بما صنع، أو الذي لا يبالي بما قال ولا بما قيل له»[1].

فمن اتهام حماد بالمجون قول الطرماح بن حكيم (ت ١٢٥ هـ/ ٧٤٣ م) له:

«أنت رجل ماجن»[2].

فتهمة المجون إذن، تهمة صاحبت سيرة حياته المعروفة، ولكن ما المجون، بالنسبة إليه؟ إن ما تعكسه أخباره المتعلقة بمجونه، تكاد تنحصر في إقباله بشغف وحب شديدين على شرب النبيذ. وعلى الانطلاق مع هواجس نفسه دون اكتراث، وهو المعنى المتضمّن في المجون، وعلى هذا، فالمجون عنده هو: شرب النبيذ والعبث.

حـ ــ شرب النبيذ:

يروي أبو الفرج، أنه عندما أرسل المنصور إلى حماد رسولاً ليعرف رأيه عن أشعر الشعراء، وجده ذلك الرسول:

«في حانة وهو عريان، يشرب نبيذاً من إجَّانة، وعلى سوأته دَستَجة»[3].

---

(١) اللسان، «مجن».
(٢) الأغاني، جـ ٦، ص ٩١.
(٣) المصدر نفسه، ص ٧٧.
الإجانة: آنية تغسل فيها الثياب. الدستجة: الإناء الكبير من الزجاج.

وفي خبر آخر عنه، يقول:

«استهدى من صديق له نبيذاً، فأهدى إليه دُسَيتِجَةَ نبيذ»[1].

فالخبران كلاهما متفقان على أنه مولع بشرب النبيذ مغرم به. وقد اختلف بعض علماء العراق حول شرب النبيذ أحلال هو أم حرام؟ وقد درس المرحوم جميل سعيد الموضوع مفصِّلاً آراء الفقهاء حول شرب النبيذ[2].

ويكشف الخبر الأول هنا عن عدم تعرض السلطات العباسية لمثل هذه الأمور، فالمرسول مُمَثِّل الحاكم، وسيُبَلِّغ الحاكم بما رأى، وحماد نفسه لا يجد حرجاً في إظهار حاله على ما هو عليه، فهو مطمئن غير مرتاع من عقاب، وهذا الموقف متكرر في مواقف أخرى كما سنرى.

ولم يكن ذلك الرأي حول النبيذ في العصر العباسي، وإنما سبقه بزمان، حتى إن أنس بن زنيم الليثي يقول في موعظة له ونصح:

فَدَعْ عَنْكَ شَرَبَ الخَمْرِ وَارْجِعْ إِلَى الَّتِي	**بِهَا يَرْتَضِي أَهْلُ النَّبَاهَةِ وَالذِّكْرِ**
عَلَيْكَ نَبِيذَ التَّمْرِ إِنْ كُنْتَ شَارِباً	**فَإِنَّ نَبِيذَ التَّمْرِ خَيْرٌ مِنَ الخَمْرِ**
أَلَا إِنَّ شُرْبَ الخَمْرِ يُزْرِي بِذِي الحِجَى	**وَيَذْهَبُ بِالمَالِ التِّلَادِ وَبِالوفْرِ**
فَصَبْراً عَنِ الصَّهْبَاءِ وَاعْلَمْ بِأَنَّنِي	**نَصِيحٌ وَأَنِّي قَدْ كَبِرْتُ عَنِ الزَّجْرِ**[3]

ولعل هذا التسامح في شرب النبيذ هو الذي جَرَّأ حماداً وغيره على المجاهرة به وإعلانه، حتى إنه يجتمع نهاراً جهاراً مع أصحابه في بستان يغنون ويشربون، يقول أبو الفرج:

---

(١) المصدر نفسه، ص ٨٠.

(٢) تطور الخمريات.

(٣) الأغاني، جـ ٢٣، ص ٤٧٥. وانظر جواد علي، المفصل، جـ ٩، ص ٣١٤. وانظر، خليف، حياة الشعر في الكوفة، ص ص ٢١٩ ـ ٢٢١. هدارة، اتجاهات ص ص ٢٠٣ ـ ٢٨٠.

«اجتمع حماد الراوية، ومطيع بن إياس، ويحيى بن زياد، وحكم الوادي، يوماً على شراب لهم في بستان بالكوفة، وذلك في زمن الربيع، ودعوا جوهر المغنية، وهي التي يقول فيها مطيع:

أَنْتِ يَا جَوْهَرُ عِنْدِي جَوْهَرَهْ ... فِي قِيَاسِ الدُّرَرِ المُشْتَهَرَهْ

فشربوا تحت كرم معروش حتى سكروا...»[1].

وفي خبر آخر قال، وهو يتحدث عن عمار بن عمرو الملقب بذي كناز:

«... كان هو وحماد الراوية، ومطيع بن إياس، يتنادمون ويجتمعون على شأنهم لا يفترقون»[2].

فعامل الشراب قد جمع بين هذه المجموعة لتحقيق رغباتهم: «على شأنهم»، وفي الخبر الأول نجد: «على شراب»، وفي الخبر الثاني نجد: «يتنادمون» و«فشربوا ـ حتى سكروا». ومهما قيل عن آراء علماء العراق حول النبيذ، فالخبر الثاني يدل على أنه يؤدي إلى السكر، وفي الحديث الشريف: «ما أسكر كثيره فقليله حرام». فالنبيذ، يندرج أيضاً تحت مسمى الخمر، ومن هنا تحول ذلك المسمى فيما يتعلق بحماد، ليصبح خمراً حقيقة عند من جاء بعد ذلك، فقال المرزباني (ت ٣٨٤ هـ) في نور القبس نقلاً عن عبد الله بن جعفر:

«كان حماد يعاقر الخمر»[3].

فالنبيذ ههنا خمر، على حين كان حماد يشرب النبيذ، وهو الآن لا

---

(١) الأغاني، جـ ١٣، ص ٣٢٢.

(٢) المصدر نفسه جـ ٢٣، ص ص ٣٦٧ ـ ٣٦٨.

(٣) ص ٢٧١.

يشرب النبيذ، بل يعاقر الخمر، ومن ثم فهو محب للشرب مقبل على استهلاكه.

وفي هجاء فيه، قال أحد الشعراء:

أَلَـمْ تَـرَ حَمَّـاداً تَقَـدَّمَ بَطْنُـهُ ... وَأُخِّـرَ عَنْـهُ مَـا تُجِـنُّ المَـآزِرُ[1]

وفي هذا دلالة صريحة على كثرة تناوله الشراب (النبيذ في الأصل)، وهو الذي أدى إلى أن ينهدل بطنه ويتسع، حتى أدى إلى ظهوره بمظهر المتقوس، فأعلاه متقدم، وأسفله متأخر. وفي هجاء آخر فيه، قال أبو الغول مركزاً تركيزاً شديداً على عادته شرب النبيذ:

هَـدَلَـتْ مَشَـافِـرُهُ الـدِّنَـانُ فَـأَنْفُـهُ ... مِثْـلُ القَـدُومِ يَسُنُّهَـا الحَـدَّادُ

وَابْيَـضَّ مِـنْ شُـرْبِ المُـدَامَـةِ وَجْهُـهُ ... فَبَيَـاضُـهُ يَـوْمَ الحِسَـابِ سَـوَادُ[2]

وسواء أكان هذا في حماد الراوية أم حماد آخر[4]، كما سيأتي في حديث عنه، فإنه يثبت عدم انقطاعه عن الشراب حتى أثر في جسده تأثيراً بيناً.

إن السؤال المطروح هنا هو، متى وصل حماد إلى هذه الحالة، حالة المجون التي هي: «**أن لا يبالي الإنسان بما صنع**»، حتى يصل حد السكر، ويظهر كالعريان في حانة عامة؟ فلو أنه كان مستهتراً بالشراب إلى هذا الحد في عهد زياد بن أبيه، على افتراض إدراكه له، أو هشام بن عبد الملك، لأوقع عليه الحد دون ريب، وهذا ما لم يحدث. إذن، فلا بد أنه بدأ يظهر على هذه الحال في عهد الوليد بن يزيد ومَن جاء بعده، وقد كان الوليد بن يزيد نفسه مستهتراً بذلك، كما نرى من قصصه في اجتماعه بحماد، وكما هو معروف عنه.

---

(١) الأغاني، جـ ٦، ص ٨١.

(٢) المصدر نفسه، ص ٨٢.

(٣) ابن خلكان وفيات الأعيان، جـ ٢، ص ٢١١.

بل إن هذا يقودنا إلى افتراض أن حماداً لم يُقْبِل على الشراب هذا الإقبال إلا بتشجيع من الوليد نفسه، حتى اعتاد على ذلك وتجَرّأ على استساغته، لأن أخباره قبل أن يتصل بالوليد ذلك الاتصال الوثيق، كانت تظهره معقولاً في تصرفاته، ولم تتحدث المصادر عن مثل هذه التصرفات إلا بعد ذلك الاتصال.

ومع كل ذلك، فإنه لمن الراجح لدينا جداً أن هذه الصورة التي يقدمها الشعر لنا، صورة أخذت عنه في العصر العباسي، ولذلك سببان:

الأول:

أن هذه كانت هي الحالة الشائعة عنه وعن أمثاله في أوائل هذا العصر خاصة من أبناء الكوفة[١].

الثاني:

أنه أصبح يجد في الإدمان على الشراب، إن صح ذلك عنه، تعويضاً نفسياً للخسارة التي لحقت به اجتماعياً وأدبياً، جراء مقدم العباسيين، كما سوف نرى.

وعلى هذا، فإن حماداً كان في حقيقة الأمر ماجناً، أي يشرب النبيذ حباً له ورغبة فيه، قبل أن ينقضي العصر الأموي، وظل متماسكاً قبل أن يتقدم به العمر، وقبل أن تتغير الأوضاع فجأة من حوله؛ ثم انقلب مع زمانه، فصار مفضوح الحال مشتهر الأمر، وهو لا يزداد إلا لذة وانشراحاً، حتى وصل به الأمر إلى أن يصبح سكران لإفراطه في تناول النبيذ، الذي غدا مفعوله فيه كمفعول الخمر.

وإنه لمن المستغرب أن يقول الطاهر مكي عن حماد الراوية:

«كان مع حماد عجرد الشاعر، وحماد بن الزبرقان النحوي، يكوّنون

---

(١) خليف، حياة الشعر في الكوفة، ص ص ٢١٤ ـ ٢٢٥.

في الكوفة ثالوثاً مزعجاً، يعيش حياة لاهية، ومنطلقة غير مسئولة، يتنادمون ويتعاشرون وكأنهم نفس واحدة. . وتثير حياتهم نقمة الطبقة المحافظة، وكثيراً ما كان يلقى بهم في السجن فلا يبرحونه إلا بعد شفاعة من كبير يمدحونه. . .»[1].

فعلاقة حماد لم تقتصر على هذين الاثنين، فهم كانوا أكثر من هذا، كما ذكر الطاهر نفسه بعد ذلك[2]، أما وجه الغرابة في هذا الكلام، فهو قوله: «كثيراً ما يلقى بهم في السجن»، فإن صدق هذا على غير حماد، فإنه فيما يتعلق بحماد غير صحيح على الإطلاق. فليس في أخباره أنه أودع السجن ذات مرة، أو أنه جر على نفسه عقوبة ما. وقد رأينا كيف أنه يستهتر بالشراب، دون أن يخشى أي أذى، وظهر في عبثه المزعوم في هذا العصر، في وضع مشابه.

ومما هو جدير بالذكر أن عدداً من العلماء المرموقين في التراث، وشابت سلوكهم شوائب، قد جرحوا تجريح حماد، فابن دريد مثلاً، وهو العالم الراوية اللغوي الكبير، كان غير منقطع عن شرب النبيذ إلى جانب حبه للطرب، وهكذا كان اليزيدي الذي اتهم بالشذوذ، ومن أمثالهم كثيرون، إلا أنهم سلموا على الأقل من نقمة العصر وسوء المنقلب.

د ــ العبث:

وجدنا في تعريف المجون أنه يعني عدم المبالاة وانعدام الحياء. وفي اجتماع مبكر لمروان بن أبي حفصة بحماد عند الوليد بن يزيد، قال مروان عنه بعد أن اتهمه باللحن واستخف به:

«فتهانف الشيخ»[3].

---

(١) مصادر الأدب، ص ٢٤.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) الزجاجي، مجالس العلماء، ص ٢٧.

والتهانف هو: الضحك في سخرية. فحماد لم ينفعل أو يُحبَط، وهو يواجَه في مجلس الخليفة بهذا الهجوم والتحدي، بل استقبل ذلك استقبالاً غير مبال به، وراح يضحك في سخرية من كلام مروان وتحديه، حتى لم يعد لذلك تأثير فيه ولا في جلسائه، وكأن مسألة كبيرة كمسألة اللحن، وهو الراوية ذو الشهرة، ليست ذات أهمية بالنسبة له، ويبدو من ذلك أنه ذو روح هازئة مرحة وخفيفة، ونفس غير متوترة أو مضطربة، حتى إنه لا يجد في النقد، مهما كان جارحاً، غضاضة أو تبرماً.

هذا إذا قبلنا تلك الأخبار على علاتها دون فحص أو تدقيق، فحماد كان مولعاً بشرب النبيذ حقاً، ولكن هل وصل به الأمر، مهما كانت الظروف، إلى التخلي تماماً عن سلوكه المعتدل في الماضي، ليهوي فجأة إلى هذا الحضيض الذي يصفه به خبر رسول المنصور؟ أليس في الخبر ما يدعو إلى التريث في قبوله، فهو يقول:

«في حانة وهو عريان، يشرب نبيذاً من إجانة، وعلى سوأته دستجة»:

فحماد هنا في مشرب، وهو عريان تماماً، حتى إن قوله: «**وعلى سوأته دستجة**»، جاءت لتجاري التساؤل عن وضع التعري التام هذا، لأن الدستجة وعاء.

وفي خبر ثان، مشابه تماماً لهذا، روى يحيىٰ بن سليم أن أبا جعفر المنصور بعثه إلى الكوفة ليسأل حماداً عن أشعر الناس، فإذا حماد عريان، وعلى سوأتيه شاهشفرم[1]. والشاهشفرم: هو الريحان.

وفي خبر ثالث يختصر تلك الحالات، يأتي فيقول إن المنصور طلب حماداً ببغداد، فلم يوجد، ووُجد هذه المرة في البصرة. يقول الرسول الذي لم يُذكر اسمه:

(١) العباسي، معاهد التنصيص، جـ ١، ص ١٩٧.

«فما رأيت رسالة أرفع، ولا حالة أوضع من تلك»[١].

وتجمع الأخبار الثلاثة تلك على تصوير حماد بالإباحية التامة، وعدم الحياء نهائياً، سواء أكان أمام الناس عامة، أم كان وحده.

ولو كانت مثل هذه الأخبار صحيحة، فلماذا لم نعثر عليها عندما استدعاه هشام بن عبد الملك أو الوليد بن يزيد؟ أليس من المحتمل جداً أن الخبر الثاني، بصياغاته المختلفة، جاء ليتوافق مع الأهواء السياسية في العصر العباسي، الذي كان حماد أحد المبعَدين عنها كما سنرى؟ ولعل مما يرجح هذا الاحتمال أن حماداً كان على العكس تماماً، أبعد من الظهور بهذا المظهر، والعباسيون يتربصون به وبأمثاله من بقايا الذكرى الأموية.

إذن، فحماد كان يشرب النبيذ، وكان يلهو بحرية قبل مقدم العباسيين، أما عندما جاء العباسيون، فهو أشد حذراً واحتراساً.

وفي ضوء تلك الأخبار التي تحاول أن تظهر حماداً كأشنع ما يكون، اندفاعاً وراء الأهواء السياسية العباسية، حيث كان التركيز على التشهير به كل التشهير، روي أنه:

«مر مطيع بن إياس، بيحيىٰ بن زياد وحماد الراوية، وهما يتحدثان، فقال لهما: فيم أنتما؟ قالا: في قذف المحصنات. . .»[٢].

وقذف المحصنات من الأمور التي تستوجب الحد شرعاً، ولكن حماداً وأصحابه ـ ومطيع هذا هو أحدهم ـ بلغوا ـ كما يصورهم الخبر ـ حد المجاهرة بما في ضمائرهم، ولعل حماداً وزياداً، لم يفعلا ذلك، ولكن الأجواء تعكس ما أصبح شيئاً معتاداً كالحديث العادي البريء.

---

(١) الأغاني، جـ ٦، ص ٧٧.
(٢) المصدر نفسه، جـ ١٣، ص ٢٨٧.

ومن الملاحظ أن المجون كان إحدى الظواهر الاجتماعية المعروفة في الكوفة، قبل مقدم الدولة العباسية، كما أنه لم يقتصر على عدد محدود من هواة الأدب أو الشعراء، يقول نالينو عن عدد من شعراء الكوفة الذين ذكرهم:

«إن كل من سبق من هؤلاء الشعراء الكوفيين، يليق به أن يوصف بهذا القول: شاعر خليع ماجن منهمك في شرب الخمر»[(١)].

فمجون حماد، على هذا، مجون طبيعي متأثر بالمحيط الاجتماعي والثقافي، ولم يكن شذوذاً أو انحرافاً منه، ولكن الفرق بين مجون هذا العصر ومجون العصر الذي سبقه، هو أن المُجَّان أخذوا وافر حريتهم، فانطلقوا كيفما يشاؤون، على حين كانوا قبل نهاية العصر الأموي يحتاطون نوعاً من الاحتياط. ويبين مصطفى الشكعة هذه الظاهرة في هذا العصر فيقول:

«أما ندوات المجان من الشعراء فكانت من الانحلال والتهتك بحيث لم نكد نشهد لها مثيلاً في تاريخ المجتمع الإسلامي من قبل أو من بعد. لقد كان الشعراء يلتقون في الأماكن العامة، ثم يحاول كل منهم أن يستأثر بالمجموعة في بيته أو بستانه حيث يخلعون العذار ويعاقرون من ضروب الشراب ويمارسون من أسباب الانحراف ما شاءت لهم طبيعتهم أن يمارسوا، فيقوم كل منهم بوصف ما سوف يقدم لهم من أنواع الإغراء غير الحلال. ويصوغ ذلك كله في قالب من الشعر. ومن يقدم مغريات أكثر من شعر أملح يفوز بالعصبة في بيته»[(٢)].

---

(١) تاريخ الآداب العربية، ص ٢٨٢.
وانظر يوسف خليف، حياة الشعر في الكوفة، ص ص ٦٠٥، ٦٠٧.

(٢) الشعر والشعراء، ص ١٨٣.

ومن المؤكد أن الحياة الاجتماعية في الكوفة شجعت على هذا النوع من الممارسات اللاهية، فقد شهدت قبل نهاية العصر الأموي دُوراً للهو والغناء، منها دار ابن رامين ودار زريق بن منيح، ودار محمد بن سيار، ودار القراطيسي... إلخ[1].

وإذا صح أن حماداً كان يشرب النبيذ قبل العصر العباسي، ولا بد أنه كان ممن يرتاد هذه الدور طلباً للهو والغناء، فإنه في العصر العباسي، الذي صُوّر فيه حماد على غير ما كان عليه في عصره السابق، كان أيضاً يشرب بالطريقة نفسها لا بطريقة مغايرة. ولكي نصبح على يقين من أن مثل تلك الأخبار المبالغ فيها حول مجونه، إنما اختُلِقت عليه، علينا أن نضع سِنَّهُ نصب أعيننا، فهو حسب رواية ابن النديم كان قد شارف على الستين سنة «١٣٢ ـ ٧٥ = ٥٧»، (أما حسب التقائه بزياد فيكون قد قارب الثمانين سنة «١٣٢ ـ ٥٣ = ٧٩»)، فإذا أضفنا إلى ذلك السنوات حتى خلافة المنصور (ت ١٣٦ هـ)، فسنكون قد وجدنا رجلاً شيخاً، مهما بلغ به النشاط، فلن يصل الحد الذي وصله أولئك الذين ذكرهم الشكعة من تهتك وانحلال، وواضح من تعبيراته أن هذا الوصف ينطبق على الشباب لا على الكهول من أمثال حماد الراوية، وهذا ما سنجده عند حديثنا عن الزندقة، حيث أُقحم حماد في كل مناسبة.

هـ ـ الشذوذ الجنسي:

هناك ثلاث تسميات لهذا النوع من الاتصال الشاذ، وهي:

الميل إلى الاتصال بالجنس المماثل.

الميل إلى الجنس الآخر.

الميل الأنثوي.

---

(١) انظر تفصيل ذلك في: خليف، حياة الشعر في الكوفة، ص ص ٢٠٩ ـ ٢١٣.

ويكاد الدارسون المحدثون يجمعون على أن الشذوذ الجنسي بوجه عام دخيل على الشخصية العربية والمجتمع العربي، وأنهما ظلا متماسكين خلال الحقبة الجاهلية حتى عصر الوليد بن يزيد على الأقل. ومهما كانت التفسيرات السياسية لربط هذه الظاهرة، أو الظاهرة التي سبقتها (المجون)، بالوليد بن يزيد، فإن عوامل التخلخل الاجتماعي والسياسي كانت قد أخذت تفعل فعلها في الكيان الأموي، حتى أدت إلى سقوطه نهائياً[(١)].

ويأتي إجماع أولئك الدارسين على تأكيد هذه الحقائق الملحوظة، وفي الكوفة على وجه الخصوص، التي كانت تشكل أيضاً موطن المعارضة السياسية والخروج الاجتماعي على كثير من الأعراف والقيم السائدة، يقول يوسف خليف:

«انتشرت هذه الموجه الشاذة المنحرفة في مستهل العصر العباسي وغمرت في تيارها مجموعة كبيرة من المجان العرب والأجانب على السواء ألفت بينهم، فمضوا يجتمعون ولا يكادون يفترقون، ولا همَّ لهم إلا الشراب والعبث بالغلمان، والتغزل الفاضح بهم في صراحة بغيضة وإباحية مسرفة»[(٢)].

ويقول عزيز فهمي:

«شاع» الأمر «في العصر العباسي شيوعاً غريباً، وتواردوا الغزل الفاضح بالغلام في شعر أغلب الشعراء...»[(٣)].

ثم يقول:

«أول من تغزل بالغلمان من الشعراء حماد عجرد ومطيع بن إياس ويحيىٰ بن زياد وتبعهم الشعراء»[(٤)].

---

(١) خليف، حياة الشعر في الكوفة، ص ٢١٦.
(٢) المرجع نفسه، ص ٦١٥.
(٣) المقارنة بين الشعر الأموي العباسي، ص ٢٨٥.
(٤) المرجع نفسه، ص ٢٨٧.

فهذه الظاهرة، ظاهرة الشذوذ الجنسي، من ثم، ليست ظاهرة أموية، وإنما هي ظاهرة عباسية. وفيما يتعلق بحماد نجد أن مطيع بن إياس في رسالة شعرية دعا يحيىٰ بن زياد، إلى مجالس اللهو والشرب والغناء، التي حضرها حماد الراوية وحكم الوادي، ومعهم غلام اسمه زياد[1].

إن ما تعكسه أبيات تلك الرسالة هو الرقة في ألفاظها والعذوبة الموسيقية الصادرة عنها، ثم ما تنقله من أجواء لاهية عابثة مكشوفة غير متحرزة، وهي أجواء تنقل صورة عن بعض جوانب الحياة في العصر العباسي الأول، والأمر الأخر الملحوظ، هو أن نوع الشراب المستخدم هناك، هو ذلك النوع المعروف بـ «النبيذ»، أما الجديد في الأبيات، فيما يتعلق بحماد، فهو دعوته إلى ممارسة الشذوذ.

وكما سبق أن مر بنا، فمطيع أحد أصحاب حماد، وكذلك يحيىٰ بن زياد، فالأبيات صريحة الدلالة على إضافة الشذوذ الجنسي إليه.

وتتضمن الأبيات تفرغ حماد إلى لذاته الحسية، فهو يرتكب الفواحش، منصرفاً مع غرائزه دون حد. وقد سبق أن مر بنا اجتماع حماد وبعض هذه المجموعة في بستان بالكوفة ومعهم جوهر المغنية.

إن ما اقتربنا على الاتفاق عليه، هو أن حماداً كان قد بلغ الستين سنة عندما جاءت الدولة العباسية، أو يزيد (أدرك زياداً (ت ٥٣ هـ)، وجاء العباسيون سنة (١٣٢ هـ)، فهل يعقل أن يمارس حماد الراوية في هذه السن هذه الممارسات الشاذة، وأن يأنس به شباب لاهون هذا الأنس؟ لنقل إنه كان يجالسهم، أي يشرب النبيذ معهم، فهل كان يتصرف تصرفاتهم

---

(١) انظر الأبيات في الأغاني، جـ ١٣، ص ٢٩٧.

الشاذة المحرمة، حتى لو اقتصر ذلك على ممارسة الجنس مع النساء.

إن ما يمكن تصوره هو جانبان:

أحدهما:

أن هذه الصورة صورة سابقة على العصر العباسي، وهي صورة تقتصر على شرب النبيذ والاجتماع واللهو في بساتين الكوفة.

الآخر:

أنها صورة من صور بعض شباب المجتمع العباسي، الذين كانوا يمارسون الشذوذ ضمن ما يمارسون من سلوكيات منحرفة، وهو ما يتفق أغلب الدارسين المعاصرين عليه، وهو ما تعكسه العناصر الفنية في الأبيات أيضاً.

وعلى هذا الأساس، فإن الصورة الأولى متفقة تمام الاتفاق مع مجون حماد الراوية، أما الصورة الأخرى، فهي صورة، إن شارك حماد فيها، فهو إنما شارك للمحادثة والمجالسة، وليس للمارسة الجنسية.

وكما اهتزت ثقتنا بخبر تلك الأبيات، نجد أن ثقتنا أكثر اهتزازاً بالخبر الذي يرويه الخريمي الشاعر عن ممارسة شاذة قام بها حماد معه[1]. فهو يصور حماداً في هذا العصر يتمتع بقدرات جنسية شاذة، لا تتفق مع سنه أو تفكيره.

ولا تتوقف هذه الحيطة في قبول هذين الخبرين على الواقع النفسي أو السياسي في هذا العصر، الذي نتصور أن جميع أخباره التي شاعت عنه، فيما يخص جانب الشذوذ والمجاهرة بالمجون، إنما جاءت لاحقاً، وعن أناس، إن صدق ما قيل فيهم، محدودي العدد ـ بل إن هناك أدلة مادية تقف

---

(١) الأغاني، جـ٦، ص ٨٠.

حائلاً دون تصديقهما التصديق المتسرع، فكما سوف نرى، وألمحنا إلى ذلك، كان حماد ثانوي المنزلة في زمن العباسيين، وكان قبل هذا العصر، ذا أسرة، حتى إن الوليد يأمر له بمال يصرفه على عياله[1].

وثمة إشارة ذات قيمة في هذا الجانب، فإذا كان حماد الراوية شاذاً جنسياً، فلماذا لم يُتَّهم بالهيثم بن عدي (١٢٨ هـ - ٢٠٩ هـ)، صاحبه وراويته، كما يقول أبو الفرج[2]، والذي كان هشام بن الكلبي (٢٠٦ هـ)، إذا رآه يذوب كما يذوب الرصاص[3]؟ لماذا سكت أبو الفرج عن مثل هذا التعليق، ولماذا سكتت المصادر الأخرى عن مثل هذه الإشارة، والهيثم، كما نرى، كان يمكن أن يسمى على أقل تقدير غلام حماد لصغر سنه؟.

ولعلنا نصل هنا إلى الخبر الذي يقول:

«قال إسحاق... أهدى حماد إلى صديق له غلاماً»[4].

فهو خبر ينقله إسحاق الموصلي (١٥٥ هـ - ٢٣٥ هـ)، أي إنه وقع في العصر العباسي، وعلى هذا فهو يقع في دائرة تلك الأخبار التي تظهره بمظهر المستمتع صاحب الوفرة المادية، بحيث يهدي غلاماً إلى صديق له، وما سنقدمه من كشف لحياته المادية في هذا العصر يُسقط هذا الخبر، كما **يُسقط غيره من أخبار مشابهة، إلا أن ما يهم هنا هو أن وصف حماد بالشذوذ، اقتصر على نقل الصورة عنه في مجالس الغناء والطرب في بساتين الكوفة، ولم يأت أي تعليق عن مثل هذه الممارسة الشاذة في أخباره السابقة أو أقواله.**

---

(١) المصدر نفسه، ص ١١٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ٦٨.

(٣) المصدر نفسه، جـ١٨، ص ٢٨٤. وهو خبر يبين حقيقةً، حُسن الهيثم، ولكنه يصعب التصديق به لتقارب سن الرجلين، كما هو واضح.

(٤) الأغاني، جـ٦، ص ٨٠.

لقد تحدثنا حتى الآن عن الشذوذ الجنسي من زاوية الميل للآخر، وفي أخبار حماد أقوال تتهمه بالأُبْنة، أي الميل الأنثوي، فمن ذلك قول مطيع بن إياس فيه، حسب رواية ابن منظور:

نَـــحَّ السَّـــوْءَةَ السَّـــوْآ ءَ يَـا حَمَّـادُ عَـنْ خُشَّـهْ
عَـنِ التُّفَّـاحَـةِ الصَّفْـرَا ءِ وَالأُتْـرُجَّـةِ الهَشَّـهْ[(٢)]

وفي هذين البيتين استخدام للاستعارة التي قد توحي بأن حماداً كان مأبوناً، ولعل هذا هو عين ما قصده من قال فيه:

فَيَـا لَيْتَـهُ أَمْسَـى قَعِيَـدَةَ بَيْتِـهِ لَـهُ بَعْـلُ صِـدْقٍ كَـوْمُـهُ مُتَـواتِـرُ
فَحَمَّادُ نِعْمَ العِرْسُ لِلْمَرْءِ يَبْتَغِي الـ نِّكَاحَ وَبِئْسَ المَرْءُ فِيمَنْ يُفَاخِرُ[(٣)]

فإذا علمنا بعد، أن مطيعاً ـ إذا كان قال ما قال في حماد الراوية ـ كان أحد أصحاب حماد، وأن الرجل الذي قال هذا القول فيه، إنما استثاره حماد عندما حط من قدره، لأنه لا يستطيع أن يقول شعراً، بدا لنا أن هذا السلوك ليس من سلوك حماد، وإنما كان دافعه المداعبة والمزاح من قِبَل مطيع، والغيظ والانفعال من قبل الرجل. ويحتمل بيتا مطيع معنى آخر، فهو يقول له: استر من عيوبك الرذيلة ما إن لو ظهر، لأفسد رائحة الطيب الذكية، بل تعدى ذلك إلى التفاحة والأترجة الناضجتين، ولذلك قال له: «**السوءة السوآء**».

أما قول الرجل، فينقضه قول حماد نفسه له:

«حسبنا، عافاك الله، هذا المقدار وحسبك! قد علمنا أنك شاعر وأنك قائل الشعر الأول وأجود منه، وأحب أن تكتم هذا الشعر ولا تذيعه،

---

(١) اللسان، «خشش». حذف المتحرك الأول من «نحِّ» ولعلها (فنح).
خش: الطيب بالفارسية، عربته العرب، وقالوا: المرأة خشة، كأن هذا اسم لها.
(٢) الأغاني، جـ ٦، ص ٨١ الكوم: النكاح.

فتفضحني؛ فقال له: قد كنت غنياً عن هذا. وانصرف الرجل، وجعل حماد يقول: أسمعتم أعجب مما جَرَرت على نفسي من البلاء!»[1].

وهذا يعني أن الأبنة ليست من خصاله، وأنه مجرد هجاء شخصي. وقد كان حماد يتهم مطيعاً بأنه حَلَقي[2].

ولعلنا نجد في ذلك الادعاء ما يلغي الادعاء السابق عليه، فكلتاهما تهمتان يناقض أحداهما الآخرى، فالرجل الميال للجنس المماثل، لا يكون في الوقت نفسه رجلاً أنثوياً، كما يصوره قول مطيع وقول الرجل، خاصة أن سيرة حماد لا تعكس هذا السلوك الآخر عليه، على الأقل. ولم نجد أياً من خصومه أو أنداده في أي من العصرين، يتهمه بواحدة منهما، بل كان محل إعجاب وتقدير عند كل من اجتمع به.

وكما كان ذلك هجاء شخصياً فيه، أو ردة فعل غاضبة من نقد، فإن أبا الغول عندما قال يهجوه أيضاً:

حَمَّادُ يَا ضَبْعاً تَجُرُّ جِعَارَهَا ... أَخْنَى لَهَا بِالقَرْيَتَيْنِ جَرَادُ
سَبْعاً يُلاَعِبُهَا ابْنُهَا وَبَنَاتُهَا ... وَلَهَا مِنَ الخِرَقِ الكِبَارِ وِسَادُ[3]

هو قول لا يختلف عن سابقه، ويراد منه إظهار حماد بذلك المظهر الشائن؛ هذا إن كان المهجو حماداً الراوية حقاً، أما إذا كان المهجو حماداً آخر، وهو الواقع، كما سيأتي من حديث، فإن هذه التهمة كلها يمكن نقضها من أساسها، لأنها تنصرف إلى غيره ولا تخصه، كما سوف نرى وسيثبت لنا ذلك أيضاً.

ولو عدنا لاستجلاء الحقيقة من هذا الركام، لوجدنا أن حماداً بريء

---

(١) الأغاني، جـ٦، ص ٨١.

(٢) المصدر نفسه، جـ ١٣، ص ص ٣٢٩ ـ ٣٣٠.

(٣) الأغاني، جـ٦، ص ٨٢. الجعار: جمع جعر، وهو كل ذات مخلب من السباع.

من كل هذا التشويه، فالبيتان اللذان نسبهما ابن منظور لرجل لم يذكر اسمه في حماد الراوية، هما في الحقيقة لحماد عجرد في مطبع بن إياس، وهو يعني بالخشة صلعته الفاقعة الاحمرار[1].

أما الخبر الذي رواه أبو يعقوب الخريمي، وجمع فيه بين حماد الراوية وحماد عجرد حين قال سابقاً:

> **«كنت في مجلس فيه حماد عجرد وحماد الراوية ومعنا غلام أمرد، فنظر إليه حماد الراوية. . . .»[2].**

> فهو خبر باطل منقوض من أساسه، فحقيقته أنه ليس في حماد الراوية، وإنما هو في حماد عجرد، وقد أضيف حماد هناك لمجرد توارد الأسماء، وما يمكن أن يكون ذلك العمل من حماد الراوية، فهذا هو الخريمي نفسه يأتي ليروي الخبر مع فاعله الملائم له، وعلى وجهه الصحيح، فيقول:

> **«كنت في مجلس فيه حماد عجرد، ومعنا غلام أمرد، فوضع حماد عينه عليه. . .»[3].**

> والقصة هنا بألفاظها ونسيجها السابقين، إلا أنها خلت من اسم حماد الراوية.

وهكذا فيما يتعلق بالخبر الثاني، الذي رواه إسحاق، والذي يذكر فيه أن حماداً الراوية أهدى غلاماً إلى صديق لم يفصح عن اسمه، وختم رسالته إليه بقوله:

---

(١) المصدر نفسه، جـ ١٣، ص ٢٨١.
(٢) المصدر نفسه، جـ ٦، ص ٨٠.
(٣) المصدر نفسه، جـ ١٤، ص ٣٢٤.

«أهدى حماد إلى صديق له غلاماً، وكتب إليه: قد بعثت إليك غلاماً تتعلم عليه كظم الغيظ»[1].

فهو أيضاً ليس في حماد الراوية، وإنما في حماد عجرد حقيقة، وبالأسلوب نفسه فهو يقول رواية عن أبي يعقوب الخريمي كذلك:

«أهدى مطيع بن إياس إلى حماد عجرد غلاماً، وكتب إليه: قد بعثت إليك بغلام تتعلم عليه كظم الغيظ»[2].

و ــ الزندقة:

تحقق لنا الآن أن تلك الصورة التي نقلتها المصادر العباسية، كانت صورة خالفت كثيراً من الحقائق والوقائع التاريخية، فهي لم تقدم حماداً إلا ماجناً سكيراً عربيداً شاذاً جنسياً كل الشذوذ، فتغافلت بذلك عن سن الرجل وعن ظروفه السياسية والاقتصادية التي جاءت بعد ذلك مرددة الأقوال نفسها، وأضافت ما لديها بدوافع من اتجاهاتها، بل تجاوزت ذلك إلى إكمال الصورة، حتى يتناسب وضع حماد فيها تماماً مع العصر العباسي، فيصبح أحد أعضائه النشطين ممن برزوا أعلاماً في هذا التيار الجارف.

إنما تكشف لنا حتى الآن، أن حماداً كان مدمناً على شرب النبيذ، وله صحبة بجماعة معروفة في الكوفة بهذا الميل إلى الشراب، ذلك كان قبل نهاية العصر الأموي، واستمر حتى مجيء العباسيين، ثم كان التحول الخطير في العصر العباسي الأول عندما حدث انقلاب سياسي واجتماعي في المجتمع العباسي كلِّه، وكان تأثيره شديداً على الكوفة خاصة، فإذا بشباب الكوفة يخلعون عذارهم ويعلنون تمردهم على كل الأعراف والآداب

---

(١) المصدر نفسه، جـ٦، ص ٨٠.

(٢) المصدر نفسه، جـ١٤، ص ٣٣٨.

الاجتماعية. حقاً كانت هناك بوادر واضحة لهذه الخلاعة وهذا التمرد، وهو ما عبر عنه يوسف خليف بـ «**الجسر الذي يصل بين الشاطئين الأموي والعباسي**»[1]. ولكن التحلل نهائياً من القيود الدينية والاجتماعية، إنما حدث بفعل هذا الانقلاب.

لقد كان حماد يجتمع بعدد من أصحابه الذين لم يكن الجامع بينهم هو حب الشراب وحده، بل حب الأدب أيضاً. يقول الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ):

«**كان حماد عجرد، وحماد الراوية، وحماد بن الزبرقان، ويونس بن هارون، وعلي بن الخليل ويزيد بن الفيض، وعُبادة، وجميل بن محفوظ وقاسم، ومطيع، ووالبة بن الحباب، وأبان بن عبد الحميد، وعمارة بن حربية، يتواصلون وكأنهم نفس واحدة، وكان بشار ينكر عليهم**»[2].

فهذه المجموعة تجمع بينها صداقة حميمة حتى «**كأنهم نفس واحدة**». وليس في تعبير الجاحظ ما يوضح سلوك أي منهم، وإن كنا نرى أن هذا التواصل إنما كان للتقارب الفكري والعقلي والنفسي، ولعل وسيلة التقارب هو الشراب «النبيذ». صحيح أن بعضهم رمي بالشذوذ، وكان مفضوحاً به مثل والبة بن الحباب، صاحب أبي نواس[3]، ولكن الجاحظ يقول: «**وكان بشار ينكر عليهم**»، فبشار (ت ١٦٧ هـ/ ٧٨٤ م) ينكر عليهم هذا التواصل، أي الاجتماع الذي ربما كان للهو والمتعة الذي كان الشراب (فيما يخص حماداً كما بينا) وسيلته، ولا يمكن أن يعني الجاحظ بهذا أنه ينكر عليهم الزندقة، لأن بشاراً نفسه كان من المرميِّين بها. فالزندقة تقع

---

(١) حياة الشعر في الكوفة، ص ٦٠٥.
(٢) الحيوان، جـ ٤، ص ص ٤٤٧ ـ ٤٤٨.
(٣) الأغاني، جـ ١٨، ص ٤٨، ابن منظور، أخبار أبي نواس، ص ١٢٧.

خارج اتهام الجاحظ، كما تقع أيضاً خارج اتهام بشار. وقد يكون بعضهم أيضاً زنديقاً، كما في حالة مطيع بن إياس (ت ١٦٦ هـ/ ٧٨٣ م)، الذي اعترفت ابنته للرشيد بأنها تعلمت دين الزنادقة وقرأت كتبهم[١]، كما كان حماد عجرد إماماً من أئمة الزنادقة[٢]، ولكن عبارة الجاحظ لا تحتمل الزندقة، بل لا تحتمل حتى الشذوذ الجنسي، وقد تنصرف إلى طلب الاجتماع والاستئناس على الشراب.

ثم جاء ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ)، فقال:

«وكان بالكوفة ثلاثة يقال لهم الحَمَّادون: حماد عجرد، وحماد الراوية، وحماد بن الزبرقان النحوي، وكانوا يتنادمون ويتعاشرون، وكأنهم نفْس واحدة، ويُرْمَون جميعاً بالزندقة»[٣].

وبعد ذلك جاء عبد الله بن المعتز (ت ٢٩٦ هـ)، فجاء بعبارة الجاحظ وابن قتيبة معاً، بعد أن أضاف إليها ما يراه من تفسير، فقال:

«وكان بالكوفة ثلاثة يقال لهم الحمادون: حماد عجرد وحماد بن الزبرقان، وحماد الراوية، يتنادمون على الشراب، ويتناشدون الأشعار، ويتعاشرون أجمل معاشرة، وكانوا كأنهم نفس واحدة»[٤].

وتفسير ابن المعتز هنا، هو ذلك التفسير المحتمل في علاقات هؤلاء الاجتماعية والفكرية، إنهم: «**يتنادمون على الشراب، ويتناشدون الأشعار**»، ولعل من الملاحظ أن ابن المعتز قال: «**يتعاشرون أجمل معاشرة**»، فبالإضافة إلى أن هذه العبارة تؤكد ذلك اللقاء الاجتماعي، فإنها تخلو من

---

(١) الأغاني، جـ ١٣، ص ٢٩٦.
(٢) المصدر نفسه، جـ ١٤، ص ٣٢٤.
(٣) الشعر والشعراء، جـ ٢، ص ٧٧٩.
(٤) طبقات،، ص ٦٩.

الطعن فيهم ـ وما يهمنا هنا حماد ـ باتهامهم بالشذوذ، وعلى الأقل حسب رواية الخريمي السابقة. فحماد، إذا ما اجتمع بهؤلاء، وهو ابن الكوفة وهم أبناؤها، إنما يجتمع معهم على الشراب حسب تفسير ابن المعتز.

وتتجلى لنا عند هذا الحد من نقل الاهتمامات بحماد، الصورة التي رسمت عنه عند ظهوره على المسرح الأدبي حتى أواخر لحظات حياته، ولكن تداخل الصور وتداخل الشخصيات، جر ابن المعتز إلى أن يستكمل عبارته، فيقول عن أولئك جميعاً:

«وكانوا جميعاً يرمون بالزندقة، وإذا رأى الناس واحداً منهم، قالوا: زنديق! اقتلوه»[1].

فهنا نجدهم **«جميعاً»**، ونجد أن الناس إذا رأوا **«واحداً منهم»**، ونجد أن هؤلاء الناس كلهم يلاحقون أولئك ويصيحون وراءهم: **«زنديق! اقتلوه»**. وهذه إضافة أدبية، ولا شك، من ابن المعتز، إذ كيف يتفق الناس جميعاً هذا الاتفاق على القول والعمل، ثم يسلم كل من ذكرهم من القتل أو حتى المضايقة على أيدي الناس؟ أليس فيما نُقل عنهم من أخبار ما يخالف هذا الزعم كل المخالفة؟ ألم يعش هؤلاء تحت مرأى من السلطات الشرعية والرسمية، دون أن يلحق بهم أدنى ضرر؟ ثم أين سجن الزنادقة[2]، عن أي منهم؟ بل كيف ينظر المجتمع هذه النظرة العدائية لهؤلاء، ثم هم يتمتعون ويأنسون كيفما شاء لهم التمتع وحلا لهم الأنس؟ ألم يرسل المنصور رسوله من بغداد لأخذ رأي حماد الراوية عن الأعشى، ويجده الرسول على تلك الحالة السيئة؟ ألم يجالس حماد المهدي، حسب رواية ابن النديم؟ وقد قبلنا امتداد عمره حتى سنة ١٦٦ هـ.

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) الأغاني، جـ ١٤، ص ٣٢٤.

ولما جاء أبو الفرج (ت ٣٥٦ هـ)، وجد بين يديه ثلاثة نصوص: نص الجاحظ، ونص ابن قتيبة، ونص ابن المعتز، فأضاف إلى الأول ما استجد لديه من أسماء فقال:

«حماد بن العباس... كان هو ومطيع بن إياس وحماد الراوية ويحيىٰ بن زياد كأنهم نفس واحدة»[١].

والجديد هنا هو إضافة يحيىٰ بن زياد، ثم إضافة حماد بن العباس، وتثبت هذه العبارة مقولة الجاحظ السابقة: **«كأنهم نفس واحدة»**. وهو ما يساير حقيقة أولئك حسبما بينا. أما فيما يخص نص ابن المعتز، فيقول أبو الفرج:

«كان بالكوفة ثلاثة نفر يقال لهم الحمادون: حماد عجرد، وحماد بن الزبرقان، وحماد الراوية، يتنادمون على الشراب، ويتناشدون الأشعار، ويتعاشرون معاشرة جميلة، وكانوا كأنهم نفس واحدة، وكانوا يُرمَون بالزندقة جميعاً»[٢].

وهو عين نص ابن المعتز، إلا أنه يخلو من الإضافة الأدبية التي أضافها ابن المعتز: **«وإذا رأى الناس واحداً منهم، قالوا: «زنديق! اقتلوه»»**. ولعل أبا الفرج أدرك أن هذا لم يقع، فحذفه، وأبقى على بقية الرواية، ذلك أنه أعاد تكرار هذه المقولة حين ذكر، مضيفاً إلى تلك الجماعة، عمار ذي كناز:

«عمار ذي كناز...

كان هو وحماد الراوية ومطيع بن إياس يتنادمون ويجتمعون على

---

(١) المصدر نفسه، جـ ١٣، ص ٣٢٠.

(٢) المصدر نفسه، جـ ٦، ص ٧١.

شأنهم لا يفترقون، وكلهم كان متهماً بالزندقة»[1].

كما أضاف إلى النص السابق على هذا في موضع آخر قوله: **«وأشهرهم بها حماد عجرد»**.

ويهمنا هنا، تعبير أبي الفرج: **«وكلهم كان متهماً بالزندقة»**، وفي هذا القول تشكيك فيما نقله هو نفسه عن تأكيد ابن المعتز على زندقة هؤلاء، ولنقل حماداً خاصة. وعندما تصبح المسألة مسألة تهمة لا تأكيد، يصبح الاتهام نفسه موضع اتهام.

إنه لمن الواضح جيداً أن حماداً الراوية كثيراً ما أُقحم في هذا الوسط الذي عاشره معاشرة منادمة واستلطاف ـ إن كان عاشره حقاً ـ، فجنى عليه ذلك وزر اتجاهات بعضهم، صحيحة أو مفتراة. إن هذا هو حقيقة ما وجدناه عند ابن المعتز، وتجرد من مسؤوليته الجاحظ، الذي جعل بشاراً ينكر على تلك المجموعة توجهها نحو اقتراف اللذات، وهو المتهم بزندقته والمشكوك في دينه.

ولكن أبا الفرج عاد فأقحم بشاراً في وسط هذه المجموعة، وهو ما لم يفعله الجاحظ، ولم يذكره أبو الفرج نفسه سابقاً عنه، فقال رواية عن الجاحظ نفسه:

> **«كان والبة بن الحباب، ومطيع بن إياس، ومنقذ بن عبد الرحمٰن الهلالي، وحفص بن أبي بردة، وابن المقفع، ويونس بن أبي فروة، وحماد عجرد، وعلي بن الخليل، وحماد بن أبي ليلى الراوية، وحماد بن الزبرقان، وعُمارة بن حمزة، ويزيد بن الفيض، وجميل بن محفوظ، وبشار بن المرعث، وأبان اللاحقي، ندماء يجتمعون على**

---

(١) الأغاني، جـ ٢٣، ص ص ٣٦٧ ـ ٣٦٨.

(٢) المصدر نفسه، جـ ١٤، ص ٣٠٦.

الشراب وقول الشعر، ولا يكادون يفترقون، ويهجو بعضهم هزلاً وعمداً، وكل متهم في دينه»[1].

وعلى هذا النحو من تناقل الخبر، وتداخل الأهواء والميول، نجد الشريف المرتضى يأتي بنص الجاحظ، ليس من مصدره الأصلي، بل منقولاً عن غيره، ومدفوعاً بتأثراته، فإذا بنا نجد المجموعة تتسع لتشمل عدداً آخر من الأصحاب، يقول:

«قال عمرو بن بحر الجاحظ: كان منقذ بن زياد الهلالي، ومطيع بن إياس، ويحيىٰ بن زياد، وحفص بن أبي ودة، وقاسم بن زنقطة، وابن المقفع، ويونس بن أبي فروة، وحماد عجرد، وعلي بن الخليل، وحماد بن أبي ليلى الراوية، وحماد بن الزبرقان، ووالبة بن الحباب، وعُمارة بن حمزة بن ميمون، ويزيد بن الفيض، وجميل بن محفوظ المهلبي، وبشار بن برد المرعث، وأبان اللاحقي، يجتمعون على الشرب وقول الشعر، ويهجو بعضهم بعضاً، وكل منهم متهم في دينه. . .»[2].

ومع أن الشريف المرتضى أكد تعبيرات الجاحظ وابن المعتز وأبي الفرج، حول الالتقاء على الشراب وتناشد الأشعار: «**يجتمعون على الشرب، وقول الشعر**»، فإنه أضاف ههنا قوله: «**ويهجو بعضهم بعضاً**»، ولعل هذا القول يفسر بعض ما ذكرناه من اتهامات بالشذوذ، لأن الهجاء ذِكْر للمثالب والعيوب، رغبة في تشويه الخصم وتحقيره، خاصة بعد أن تبين لنا عدم صحة ذلك، وإلى جانب ذلك، فإن الشريف المرتضى استعمل تعبيراً مشابهاً لتعبير أبي الفرج الأخير، حين قال: «**وكل منهم متهم في دينه**»، فعلى الرغم من أننا هنا أمام شريحة واسعة من الشعراء والأدباء

---

(١) المصدر نفسه، جـ ١٨، ص ٤٤.

(٢) الأمالي، جـ ١، ص ١٣١.

والمفكرين، ومن بينهم حماد الراوية، فإن كل ما تنوقل عنهم، ما يزال مجرد اتهام، وللمرء أن يعجب، كيف حشر الشريف المرتضى كل هؤلاء في فقرة واحدة، مع ما بينهم من تناقضات في المزاج والتفكير والأخلاق، حتى إن أحدهم، وهو حماد عجرد شديد الإيذاء لبشار وينفر منه[1]. وفي هذا دلالة قاطعة على عدم أمانة نقل الخبر، مما ينبغي الاحتياط في ذكره والاستشهاد به.

فإذا كان هذا هو واقع الخبر عن هذه الفئة من الناس، فإنه لا مناص من الحذر في قبول قوله أيضاً عن حماد الراوية:

«**أما حماد الراوية، فكان منسلخاً من الدين، زارياً على أهله مدمناً لشرب الخمور وارتكاب الفجور**»[2].

فكون حماد «**مدمناً لشرب الخمور**»، أمراً أصبح مقرراً الآن، مع التأكيد على أن المقصود بـ«الخمور»، هو الأنبذة، جمع نبيذ، أما أنه مرتكب الفجور، فإن تفسير معنى الفجور ليس محدداً، فإذا كان يعني به الشذوذ، فإن أدلة الاتهام ضده لا حقيقة لها، وإذا كان يعني به النساء، فإنه اتهام يفتقر إلى أي دليل. والظاهر أن ما يقصده به هو عين ما ذكره: «**كان منسلخاً من الدين**». ولا دليل على هذا مطلقاً إلا ما تردد أخيراً عنه على لسان ابن قتيبة وابن المعتز وأبي الفرج، وهو انعكاس للتصرف الذي أشيع عنه في أخريات حياته، وهو الإدمان. وفي الفقرة السابقة، توضيح لما مر عن اتهامه بالزندقة، فمع أن الفقرة التي سبقتها قالت: «**وكل منهم متهم في دينه**»، فإن الفقرة الثانية، جاءت لتجعل حماداً، وهو أحد السابقين، «**منسلخاً من الدين**»، وهو تأكيد على انحرافه عن الدين، بدلاً

---

(١) الأغاني، جـ ١٤، ص ٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٥ـ٣٣٣، ٣٦٥، ٣٨٠.
(٢) الأمالي، جـ ١، ص ١٣١.

من اتهامه في السابق. ومع كل ذلك فالشريف المرتضى لم يصفه، ولم يصف أحداً من أولئك بالزندقة، مع أن هذا الوصف قال به من سبقه.

وسواء وَصَف الشريف المرتضى أو غيره، حماداً بـ «**الزنديق**»، أو «**الانسلاخ من الدين**»، فإنا مطالبون بحقائق ثابتة تبين ذلك، إذ إن مجرد الإدمان على الشرب، لا يجعل المرء يَتَّخذ موقفاً فكرياً، ولا يجعله أيضاً منسلخاً عن الدين. قد يتهم في دينه، ولكن ذلك لا يبلغ به حد الوصف بالزنديق أو الانسلاخ من الدين، أي الخروج منه، لا سيما إذا لم يعكس ذلك موقفاً فكرياً يتبناه المرء تجاه الدين أو الحياة.

ولعلنا الآن نتساءل عن قول الشريف المرتضى: «**زارياً على أهله**»، فعلى أي شيء اعتمد هذا الحكم؟ أعلى الجاحظ، والجاحظ لم يقل شيئاً من ذلك، أم على خبر مروي أم سند ثابت؟ إن كل ذلك غير موجود، ولا أساس له إلا الإقبال على الشراب. والإقبال على الشراب، ليس إدماناً كما قيل عن حماد وجماعته: «**يتنادمون على الشراب**»، الذي يبلغ بهم أحياناً حد السكر، **ولا يجعلهم مدمنين مخمورين سكارى**، فهم: «**يتناشدون الأشعار، ويتعاشرون أجمل معاشرة**». إن معنى الإدمان على الشراب، يعني عدم التخلص منه، ولكنه لا يعني فقدان الذاكرة والعقل. فحكم الشريف المرتضى، حكم شرعي جعل الشراب، هو الخمر، ولشارب الخمر حكمه في الإسلام، فما بالك إذا كان الرجل مدمناً على شرابه غير منقطع عنه أو تائب. أما حكم ابن المعتز فحكم سياسي جر إليه انضمام حماد إلى مجموعة فيها من اتهم بالزندقة، وعلى الرغم من ذلك، فإنه حكم ليس له مقومات ثابتة كما تبينا. ويبقى بعد ذلك رأي الجاحظ، وهو أقرب إلى واقع أولئك الأفراد.

إن كل هذا النقاش ليجعل المرء يرفض تماماً فكرة الزندقة فيما يخص حماداً، محل دراستنا، حتى لو رأى أحمد أمين عقد صلة بين

الزندقة واللهو والمجون، ثم أقره على رأيه هذا يوسف خليف الذي زعم قائلاً:

«ليس من العسير أن نفهم هذه الصلة التي تربط بين الظاهرتين فإن حياة اللهو والمجون تدفع بصاحبها إلى التحلل من الدين».

ثم راح يوسف خليف يعلل هذا بقوله:

«لأن الدين هو الذي يقف بينه وبين هذه الحياة، ويحول بينه وبينها، ولم يكن هناك مفر من أن يطرح هؤلاء المجان الدين وراء ظهورهم ليشربوا كؤوسهم حتى الثمالة، فمضوا يسخرون من المتشددين في الدين ثم مضوا يسخرون لا من المتشددين في الدين فحسب، بل من المتمسكين به أيضاً، ودفعهم حرصهم على الشراب إلى السخرية ممن يقول بتحريمه، ثم انتهى بهم الأمر إلى التعرض للدين نفسه بالشك، حتى وصل بهم إلى الإلحاد الصريح»[1].

فيوسف خليف لم يكتف بتأكيد إقبال هؤلاء على الشراب، كما أشار في أكثر من موضع في كتابه، بل جعل الشراب، الذي حدده بالنبيذ، والذي أشار إلى أن علماء الكوفة كانوا لا يرون فيه بأساً[2]، محرماً هنا، وجعل هؤلاء المجان يسخرون ممن يقول بتحريمه، وهكذا فعل أحمد أمين ويوسف خليف، ما فعل الأقدمون عندما عمموا الظاهرة، ظاهرة المجون المحددة بالإقبال على النبيذ لتشمل الزندقة، فإذا بالحقائق ينقض بعضها بعضاً. والملاحظ أن يوسف خليف، الذي ذهب ذلك المذهب في الجمع بين المجون والزندقة في أول كتابه، عاد في آخره ليبطل ذلك الجمع فيوجد نوعين من الزندقة، النوع الأول يشمل الاستهتار بالدين وعقائده للإغراق في الشراب والإدمان له، والنوع الثاني، زندقة دينية خالصة تشك في الإسلام بدافع الإلحاد واعتناق المانوية أو غيرها من

(١) حياة الشعر في الكوفة، ص ٢٢٤.
(٢) المرجع نفسه، ص ص ٢١٨ ـ ٢٢١.

الديانات الفارسية، وهو لهذا لا يريد أن ينجر ـ كما زعم ـ وراء إثارات الشريف المرتضى حول هؤلاء[1].

ومهما يكن، فلو صح ما قالاه عن بعضهم، فإنه فيما يتعلق بحماد الراوية، حتى حسب هذا الفهم الأخير، أمر اختلطت أوراقه، وغابت حقيقته في طوايا الاتهام والترويج.

وربما اعتمد الشريف المرتضى ومن سبقه على قول أبي الغول في هجاء حماد:

نِعْـمَ الفَتَـى لَـوْ كَـانَ يَعْـرِفُ رَبَّـهُ وَيُقِيـمُ وَقْـتَ صَـلاَتِـهِ حَمَّـادُ

هدلت مشافره الدنان[2]. . .

وهو قول مر بنا بعضه في اتهامه بشرب النبيذ والشذوذ، وهو يجعله لفرط شربه لا يعرف ربه، ولا يقيم الصلاة. ونحن هنا لسنا أمام رجل مفكر كابن المقفع، أو رجل شاعر معروف كبشار، وإنما أمام رجل يقبل على الشراب، حتى يشغله ذلك عن ذكر ربه وعن إقامة الصلاة. وهذان التصرفان يستحقان العقوبة الشرعية، إلى جانب التصرف السابق، وهي تصرفات تدفع بالمرء إلى إصدار حكم على حماد بالتقصير في الدين ومخالفة الأوامر الشرعية. ومن هنا قبل الشريف المرتضى هذا، فحَكَم ذلك الحكم، عندما وصف هذه المجموعة بالزنادقة، ونحن نقبل هذه الأحكام، على حماد، لو أن أنها استندت إلى توثيق من أية جهة، أما أن تتداخل الأخبار والأسماء حتى يندرج حماد فيها، فإن هذا أمر لا يقبله

(١) المرجع نفسه، ص ٦١٨.
(٢) الأمالي، جـ١، ص ١٣١ ـ ١٣٣. لم ينسبه المرتضى هنا إلى أبي الغول، ونسبه إلى رجل، والشطر الأول من البيت الثاني:
بسطت مشافره الشمول. . . .

العقل أو النقل، فهذا هو الشريف المرتضى نفسه، الذي نقل تلك الاتهامات عن حماد، يقول بشأن هذه الأبيات:

«أما حماد بن الزبرقان، فهذه طريقته في التخرم، والتهتك، أخبرنا أبو الحسن علي بن محمد الكاتب، قال: أخبرنا ابن دريد، قال: أخبرنا الأشناندانى، قال: دعا حماد بن الزبرقان أبا الغول النهشلي إلى منزله، وكانا يتقارضان، فانتهره أبو الغول، فلم يزل المفضل به حتى أجابه، وانطلق معه، فلما رجع إلى المفضل قال: ما صنعت أنت وحماد؟ قال: اصطلحنا على ألَّا آمره بالصلاة، ولا يدعوني إلى شرب الخمر. وأنشد المفضل قوله:

نعم الفتى لو كان يعرف ربه.

وذكر الأبيات...... منسوبة إلى هجاء حماد الراوية»[1].

فالهجاء إذن، لم يكن في حماد الراوية، وإنما في حماد بن الزبرقان، وهو هنا خبر موثق مستند إلى رواة علماء من بينهم ابن دريد والأشناندانى (ت ٢٨٨ هـ)، فالأشناندانى هو راوية الخبر. وبهذا تزداد ثقتنا في نسبة هذا الهجاء إلى حماد بن الزبرقان لا حماد الراوية.

وهناك عوامل مضعفة للخبر في حماد الراوية منها قوله: **«يتقارضان»**، وكما سنتبين، فحماد لم يكن ممن يقرض الشعر حتى يبلغ به مبلغ أبي الغول، حتى لو قبلنا هنا أنه كان يقرض الشعر أصلاً. والخبر يقول: **«فلم يزل المفضل به حتى أجابه، وانطلق معه»**، ونحن نعلم علاقة حماد الراوية بالمفضل الضبي، وهي: علاقة منافسة وتشهير. فإذا أضفنا إلى ذلك شكوك أخرى من مصادر أخرى، منها أن ابن خلكان، يذكر أن بشار بن برد، هو الذي قال ذلك في حماد عجرد[2]، ثم يضطرب الخبر،

---

(١) الأمالي، جـ ١، ص ص ١٣٢ ـ ١٣٣.

(٢) وفيات الأعيان، جـ ٢، ص ٢١١.

فيجعله ابن قتيبة في حماد الراوية يقوله حماد بن الزبرقان[1].

وجدير بنا أن نعود إلى ذلك اللبس في الأسماء، لا سيما بين حماد بن سابور وحماد الراوية، وذلك يعني أن تلك الشخصية الأخرى التي التبست بحماد الراوية، كانت هي الطاغية، ولعل الإشكال يحل لو تكشفت لنا بعض خيوط تلك الشخصية. وهنا، وعلى الرغم من الإلحاح المتزايد على أن الصواب هو أن الأبيات في غير حماد الراوية، فإن الجاحظ ينسبها إلى حماد بن سابور في حماد الراوية[2].

ومع أننا على ثقة تامة بأن أبا الغول قاله في هجاء حماد آخر، فإن هذا الخبر برمته يدخل في باب الهجاء الشخصي، الذي يهدف إلى الإنقاص من قدر الآخر والحط من قيمته، وقد لاحظ يوسف خليف فيما لاحظه على أعضاء هذه المجموعة ما أسماه بـ «**المعابثات**»، فذكر عبث مطيع بحماد عجرد، وملاحاة مطيع لصديقه يحيىٰ بن زياد[3]. وقد ذكرنا المهاجاة بين حماد عجرد وبشار وبين حماد بن الزبرقان وأبي الغول، وهؤلاء كلهم شعراء معدودون، أما حماد، فليس أحدهم، مهما بلغت شاعريته، وإنما وقع اسمه مكان آخر، فتحمل حماد الراوية وزره.

لقد كنا نناقش الأقوال كلها واحداً بعد الآخر حتى يثبت صدقها من بطلانها، وقد كانت الأدلة يأخذ بعضها بعنق الآخر مؤدية إلى استبعاد أغلب تلك التهم التي راجت حوله، وها نحن نأتي بتأكيد يبين تداخل الأسماء، واستبدال اسم حماد عجرد بحماد الراوية قصداً أو عن غير قصد، يقول الزبيدي في تاج العروس عما روي من هجاء حماد أبا عطاء السندي:

---

(١) الشعر والشعراء، جـ ٢، ص ٧٧٩.

(٢) البرصان والعرجان، ص ص ٣٠٠ ـ ٣٠١.

(٣) حياة الشعر في الكوفة، ص ص ٦٢٨ ـ ٦٢٩.

«الصواب لحماد عجرد، يعالي أبا عطاء محاجاة»[1].

ويمكن أن نقيس على مثل هذا الاستبدال مجمل ما مر أو يمر بنا فيما يتعلق بحماد الراوية، كما لاحظنا في الخبر الذي ساقه الشريف المرتضى عن حماد بن الزبرقان وأبي الغول، وفي هجاء حماد عجرد لمطيع.

ثم إنه لو كان حماد زنديقاً، أو متهماً في دينه، لذكر ذلك ابن النديم في ترجمته له، أو لأشار إليه ضمن من أشار إليهم في الفصل الذي عقده عن الزنادقة[2]، وقد كانت هذه الاتهامات بين يديه، غير أنه استبعدها، الأمر الذي يحقق عدم قناعته بها.

ولا بد أخيراً أن نذكر أن بداية ملاحقة الزنادقة، جاءت وحماد على قيد الحياة وهو يجالس المهدي، كما أشرنا سابقاً، فقد بدأت في عهد المهدي سنة (١٦٣ هـ/ ٧٧٨ ـ ٧٧٩ م)[3].

ومما يمكن أن نشير إليه هنا، هو أن الحمَّادين ممن هم على تلك الصفة كثيرون، فمنهم حماد بن يحيىٰ، الذي يُقْرَن أحياناً بحماد عجرد، يقول أبو الفرج عن أمير البصرة محمد بن أبي العباس في عهد أبي جعفر المنصور:

«وأصحبه المنصور قوماً يعاب بصحبتهم مجاناً زنادقة، منهم حماد عجرد، وحماد بن يحيىٰ، ونظراء لهم...»[4].

ويكشف عن هذا الخلط الذي وقع بين حماد الراوية وحماد عجرد أو

---

(١) «عوف».
(٢) الفهرست، ص ص ٤٠١ ـ ٤٠٢.
(٣) *Taheri, Zandaqa, P. 176*.
(٤) الأغاني، جـ ١٤، ص ٣٦٩.

حماد بن الزبرقان أو أي حماد آخر، ذلك الخلط الذي وقع بين اسمه واسم حماد بن سلمة الذي لَحَّن سيبويه في إعراب: «ليس أبا الدرداء»، الذي نطقه سيبويه: «ليس أبو الدرداء»، إذ يعلق السيرافي عليه فيقول:

«لا أظن اليزيدي عنى حماداً الراوية، وإن كان مشهوراً برواية الشعر والأخبار، لأنه من أهل الكوفة، وإنما قصد اليزيدي تفضيل أهل البصرة»[1].

وفي تعليق السيرافي ما يكشف عن مكانة حماد الراوية من جهة، كما يكشف من جهة أخرى عن الدوافع وراء تحميل الطرف الآخر المناوىء كل جريرة ونقصان.

واستناداً إلى هذه المداخلة بين حماد الراوية وحماد عجـرد خاصة، نذهب إلى الظن كثيراً أن المقصود دوماً هو حماد عجرد، كما تبينا في أكثر من مناسبة، ومنها ما رواه إسحاق الموصلي عن إهدائه غلاماً، ثم ذكر ذلك أبو يعقوب الخريمي عن حماد عجرد. ومما يحمل على ذلك الظن أن إسحاق الموصلي ألف كتاباً عن حماد عجرد[1]، ولعل القوم كانوا منه ينقلون، ثم تشتبه عليهم الأسماء.

ز ــ تدينه:

إن كل ما مر بنا سابقاً من جدل حول الزندقة التي اتهم بها حماد، ومن مسايرة لما تردد عند اتهامه بالتساهل في الدين، أو عَرْض لمسائل أخلاقية كالشذوذ، والمجاهرة بالفحشاء، إنما كان من قبيل الاستعراض والبحث، وليس من قبيل الموافقة أو التبرير، كما يتبين من ذلك، ولهذا كنا نغض الطرف أحياناً حتى عن إيجاد مخرج مذهبي لاستخدام النبيذ،

---

(١) أخبار النحويين، ص ٣٤.

(٢) الزركلي، الأعلام، جـ ١، ص ٢٨٣.

كما قبله علماء العراق، على أساس أن الشرب ما دام يؤدي إلى السكر، فهو خمر شرعاً. وإذا تركنا الآن جانباً، العامل السياسي، الذي سنتناوله بعد قليل، والذي أسهم أيما إسهام في تشويه صورة حماد، فإن العامل الديني كان قد أُغفل منه جانب إيجابي ذو أهمية بالغة في دحض ذلك الجانب السلبي من حياته، أو على الأقل في التخفيف من المغالاة باتهامه بالانسلاخ من الدين أو الزراية لأهله، على حد تعبير الشريف المرتضى، أو إدخاله في زمرة الزنادقة، كما فعل ابن المعتز.

ومما يلفت النظرلا إلى حد بعيد، أن هذه الصورة المشوهة، التي تهوي به في حُمّى الانحطاط والرذيلة، إنما جاءت عنه في إبان حياته في العصر العباسي، ولم تنقل عنه في حياته في العصر الأموي، حتى إنه يحق لنا أن نزعم أن المرحلة السابقة على العصر العباسي، التي وصفها يوسف خليف بالجسر العابر إلى الطرف الآخر، كانت مرحلة معتدلة فيما يتعلق بحماد، وقد مر على ذلك الجسر بسلام، حتى جرته الميول السياسية والمذهبية فجأة إلى الطرف الآخر، وأغفلت حقائق ثابتة عن حياته السابقة.

وإذا كنا حتى الآن متفقين على أنه كان ماجناً، حسب وصف الطرماح السابق له، أي يشرب النبيذ، وكان فاسقاً، حسب وصف الفرزدق، وهو وصف ينطبق على الفرزدق نفسه، كما ينطبق على حماد، مثلما روى أبو الفرج:

> **«كان حماد يفضل الأخطل على جرير والفرزدق، فقال له الفرزدق: إنما تفضله لأنك فاسق مثله، فقال: لو فضلته بالفسق، لفضلتك»[1].**

فإن كلا الوصفين: المجون والفسق - (وهو يعني الشُّربَ هنا لأن

(١) الأغاني، جـ ٨، ص ٢٨٦.

الأخطل كان يشرب، في حين اتهم الفرزدق بالنساء) ـ متفقان على أن حماداً كان يمارس هذه التصرفات ممارسة الإنسان الذي ما يزال يضع للمجتمع نوعا من الاعتبار، مهما كانت درجات ذلك المجون وذلك الفسق، فإذا كنا نحتكم في إصدار مثل تلك الأحكام على الاعتبارات الشرعية، فإن في سيرة حماد ما يجعله عضواً طبيعياً في المجتمع الإسلامي في ذلك العصر. وتدل الدلالات المتعددة على صدق ذلك، **بحيث يجد المرء نفسه ملزماً بإيجاد خط عريض فاصل بين العصرين، عصر بني أمية، الذي كان فيه كأي فرد في المجتمع، وعصر بني العباس الذي انتكس فيه حماد رأساً على عقب. فحماد الذي قيل عنه كل تلك الأقوال، نجد ما يناقضها في عصر بني أمية، فهو في هذا العصر** ملازم للمساجد، غير منقطع عنها، فهذا ابن عبد ربه (ت ٣٢٨ هـ)، يقول:

«إن رَقَبة بن مَصقلة، طرح نفسه بقرب حماد الراوية في المسجد»[1].

فلماذا جاء حماد أصلاً إلى المسجد؟ وهل مجيئه ذاك للزراية بأهله، أم لملازمته، خاصة أن تعبير ابن عبد ربه يعني أنه كان يطيل الإقامة فيه، حتى إن رقبة **«طرح نفسه بقرب حماد»**، والطرح لا يعني القدوم للصلاة فحسب، بل البقاء في المساجد حتى بعد أن فرغ الناس من أدائها.

وفي خبر آخر يرويه الزجاجي (ت ٣٤٠ هـ)، يقول:

«شهد الكميت الجمعة بمسجد الجامع، فأحاط به علماء الكوفة ورواتهم، فيهم حماد والطرماح»[2].

فحماد هنا أحد من يشار إليه في الكوفة من رواتها وعلمائها، يأتي ليحضر أداء صلاة الجمعة في مسجدها الجامع، وبصحبته الطرماح،

---

(١) العقد، جـ ٦، ص ٢٩٤.

(٢) مجالس العلماء، ص ٢١٦.

وحضور الطرماح الصلاة يعني حضور حماد الصلاة أيضاً. وهو ملتزم، لم يقل عنه الزجاجي إلا خيراً؛ فهو في هذين الخبرين رجل سويٌ في علاقته بالله، بل إنه رجل له اعتباره في مجتمعه، لم تثر حوله مثل تلك الاتهامات.

وهنا نأتي إلى خبر يرويه أبو الفرج، فيما يروي عنه، دون أن تسقط منه إشارة تقوي اتهاماته السابقة له ـ يقول على لسان حماد نفسه:

«خرجت فصليت الجمعة»[1].

وهو خبر يؤكد الخبر السابق في اجتماعه بالكميت، ولكنه خبر يؤكد أيضاً أن حماداً يذهب إلى صلاة الجمعة بمحض إرادته، وبوازع ديني في داخله، وهذا ما أكدته صياغة الخبر عند ابن خلكان (ت ٦٧١ هـ)، الذي قال على لسانه أيضاً:

«أصلي الجمعة، وصليت في جامع الرُّصافة الجمعة»[2].

والفعل المضارع: «**«أصلي»**»، يعني الاعتياد والاستمرار؛ والفعل، «**صليت**»، يعني أنه أدى الصلاة، ولم يتأخر عنها.

هذا من حيث الصلاة، التي هي عمود الدين، والركن الذي يحتكم إليه في رمي مثل حماد بتهم المروق عن الدين والخروج عليه. وهناك ركن آخر من أركان الدين الخمسة التي يجب على المسلم الالتزام بها، وهي أداء فريضة الحج، فحماد يقول عن نفسه في خبر أبي الفرج أيضاً عن اجتماع حماد بعمر بن أبي ربيعة:

---

(١) الأغاني، جـ٦، ص ٧٢.

(٢) وفيات الأعيان، جـ ٢، ص ٢٠٧.

«أتيت مكة»[1].

فحتى لو كان حماد جاء لطلب العلم والأدب في مكة، فإن المفترض، ونحن نراه يؤدي الصلاة الجامعة، أن يقوم بأداء فريضة الحج أو أداء العمرة، وهو أمر نجده صريحاً في قسمه ذات مرة:

«لله علي بكل حصاة من هذا الحصى [أي حصى المسجد] مئة حجة»[2].

وهذا قول لا يصدر عمن لا يعتقد في الحج أو يوثّق القسم.

فإن أدت تلك الشهادات إلى قناعة أو شبه قناعة بصلاح حماد وقبوله ضمن الأطر الدينية والاجتماعية؛ وعد ما أحاط به من مزاعم، مزاعم بولغ فيها، فهناك شهادة أخرى، تعزز من قناعتنا بسلامة سيرته، لا سيما فيما يخص الزندقة، فها هو يقول:

لو مات الأخطل مسلما، لشهدت له بالجنة بقوله:

وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ذخراً يكون كصالح الأعمال[3]

وأخيراً، فلو كان حماد زنديقاً، فكيف التقى المهدي مرتين، كما رأينا، على حد تعبير ابن النديم: **«جالس المهدي»**، والمهدي هو الذي لاحق الزنادقة وأوقع بهم.

وفي ضوء هذه الصورة المشرقة لحماد، ينبغي لنا أن نعيد النظر في تلك الاتهامات له، وأن نقيس حماداً بحياته في العصر الأموي، حيث أمضى الشطر الأكبر منها فيه، لا بما تبقى من حياته في

---

(١) الأغاني، جـ ١١، ص ١٥٧.

(٢) المصدر نفسه، جـ ٦، ص ٩٠.

(٣) المرزباني، نور القبس، ص ٢٠٧.

العصر العباسي، حيث انقلبت صفحته البيضاء لتصبح قاتمة سوداء موحشة، وحيث اختلطت الأسماء، فصار حماد الراوية، هو حماد عجرد، أو هو حماد بن الزبرقان، الذي كان ـ كما نقل عنه الشريف المرتضى ـ «هذه طريقته في التخرم والتهتك». وسوف نتأكد أكثر من صحة ذلك في الحديث التالي عن علاقة حماد بالسلطات السياسية في العصرين كليهما.



الفصل الرابع

علاقاته بالعصرين الأموي والعباسي

١ ــ العصر الأموي:

الحالة السياسية:

قال أبو الفرج:

«كانت ملوك بني أمية تقدمه، وتؤثره، وتستزيره، فيفد عليهم، وينادمهم، ويسألونه عن أيام العرب وعلومها، ويجزلون صلته»[١].

وفي هذا النص الذي استفتح به أبو الفرج حديثه عن حماد، بيان للأجواء السياسية التي كانت تحيط به، فقد بلغ من القدر ورفعة الشأن حداً بعيداً جعل الملوك والأمراء يستحضرونه ليسمعوا إنشاده. وتعبير أبي الفرج، تعبير سياسي في المقام الأول، لأنه بهذا التحديد الدقيق «**ملوك بني أمية**»، يعني أن التوجه السياسي للخلافة الأموية، كان في صالحه، فهو محسوب في عداد الموالين لهم، الراغبين في إيثارهم. وهكذا قال ابن خلكان نقلاً عن أبي الفرج:

«كانت ملوك بني أمية تقدمه وتؤثره، وتستزيره، فيفد عليهم، وينال منهم، ويسألونه عن أيام العرب وعلومها»[٢].

---

(١) الأغاني، جـ ٦، ص ٦٨.

(٢) وفيات الأعيان، جـ ١، ص ٢٠٦.

فابتداء بزياد بن أبيه، أول من اتصل به فأنشده من الأمراء ـ إن كان اتصل به ـ، حتى بلال بن أبي بردة، وخالد القسري، ثم يزيد بن عبد الملك، وهو أول خليفة يتصل به، فأخوه هشام بن عبد الملك، فالوليد بن يزيد، كانت علاقات حماد علاقات تقدير منقطع النظير حتى ليقول جواد علي عن علاقته بالوليد بن يزيد:

«كان الخليفة الوليد بن يزيد، يعطف على حماد كثيراً، ويشمله برعايته، ومجالسه، ويتباحث معه في الشعر»[١].

والواقع أن العطف لم يكن من الوليد بن يزيد فحسب، بل نجده أيضاً من هشام بن عبد الملك الذي أمر له **«بمنزلة وجراية»**[٢]، وهذا يعني عدم انقطاع رزقه واستمرار مورد دخله، وذلك إضافة إلى ما كان يمنحه من هدايا، إذ أمر له بخمسمائة ديناراً وجملاً مهرياً وبجاريتين وبمئة ألف درهم[٣] وبـ **«فصيلة سنية وحملان»**[٤]؛ ويبين مبلغ هذا العطف في عهد هشام أنه كتب إلى الأمير يوسف بن عمر قائلاً:

«ابعث إلى حماد الراوية من يأتيك به، غير مروع ولا متعتع»[٥].

وليس أدل على هذا التقريب والعطف من أنه كان منقطعاً، قبل أن يتصل بهشام، إلى أخيه يزيد بن عبد الملك[٦]. ويبين تبسطه في الحديث مع مروان بن أبي حفصة عندما اتهمه بأنه لحّانة، وحاول التهجم عليه، مدى المكانة التي وصل إليها حماد، حتى إنه يتحدث مع مروان حديث الواثق بنفسه غير العابىء بالاتهام والاستهجان، وهو في حضرة الخليفة الوليد.

---

(١) المفصل، جـ ٩، ص ٣١١.
(٢) الأغاني، جـ ٢٣، ص ٣٦٨.
(٣) المصدر نفسه، جـ ٦، ص ص ٧٣ ـ ٧٤.
(٤) المصدر نفسه، جـ ٢٣، ص ٣٦٨.
(٥) المصدر نفسه، جـ ٦، ص ٧٢.
(٦) المصدر نفسه.

٢ ـ العصر العباسي:

أ ـ الحالة السياسية:

ليس في أخبار حماد، ما يدل على اتصاله بأبي العباس السفاح (١٣٢ هـ/١٣٦ هـ)، أول خليفة عباسي، ولكنه اتصل بأحد أشهر قواد بني العباس، أبي مسلم الخراساني (قتل سنة ١٣٧ هـ)، فأنشده[١]، ولعل هذا اللقاء جرى في عهد السفاح أو قبيل قتله سنة ١٣٧ هـ. وتكاد المدة بين مجيء العباسيين إلى الخلافة سنة ١٣٢ هـ، حتى خلافة أبي جعفر المنصور (١٣٦ هـ) تكون غامضة منسية، ولم يرو فيها خبر يتعلق بأي لقاء أو استدعاء عدا ذاك.

وفي عهد أبي جعفر المنصور (١٣٦ هـ ـ ١٥٨هـ)، عاد حماد إلى الظهور، فكان أن استدعاه المنصور نفسه، كما رأينا، إلى بغداد ذات مرة، وأرسل إليه لمعرفة رأيه مرتين. وقد بلغت الزراية بحماد في هذا العهد، أن وُصِف بما وُصِف به من تحلل أخلاقي، واستهتار وصل حد الإدمان والتعري أمام الملأ. **وواضح أن هذا التعري والاستهتار، إنما هو محاولة من السلطات العباسية ودعاتها لتعرية بني أمية الممثلين في حماد الآن.**

ففي لقاء حماد بجعفر بن أبي جعفر المنصور (ت ١٥٠ هـ)، اعتراه الخوف والرهبة منه، حتى كاد ينسى ما يود روايته، وكانت نهاية ذلك اللقاء أن أُخرج من المجلس مجروراً مسحوباً، فتَخرّق لباسه، وتكسّر سلاحه، ولقي شراً عظيماً[٢].

---

(١) ابن عبد ربه، العقد، جـ ٥، ص ٣٠٨.
(٢) الأغاني، جـ ٦، ص ص ٧٨ ـ ٧٩.

وفي اجتماعه بالمفضل الضبي عند المهدي (١٥٨ هـ/ ١٦٩ هـ)، قَبِل المهدي رأي المفضل في أبيات زهير، وأعلن تشهير أمر حماد[١].

تلك صورة موجزة عن علاقة حماد بالخلفاء في عصر بني العباس. أما عن حالته في هذا العصر، فهي حالة وصلت من التدني درجة تجعل المرء يستغرب من تلك الأقوال التي وصفته في أمن وطمأنينة حتى إنه يرتاد الحانات ويحضر مجالس اللهو والمجون، وكأنه عامل متحرك نشِط في الأجواء الأدبية في هذا العصر.

إن ما تقدمه الروايات عن حياته في هذا العصر، لا يدل على أنه كان يعيش عيشة مستقرة، بل إنها تقدمه خائفاً متوجساً، يخشى العذاب والمباغته في أية لحظة، وتبين الروايات التالية، مدى البون الشاسع بين العصرين؛ فالزجاجي يروي عن مروان بن أبي حفصة، الذي كان حماد يسخر منه، عندما تهجم عليه في حضرة الوليد بن يزيد، فيقول:

«بينا أنا في بعض الطرق، فإذ إنسان من خلفي يغمزني بسوطه فالتفتُّ، فإذ حماد، فقلت: لا إلٰه إلا الله، أَبَعد تلك الحال؟! قال: نعم، ذهب ويحك ما كنت تعهد، ذاك زمان وهذا زمان.

قال: وكانت قد جاءت الدولة العباسية»[٢].

فكل مفردة من مفردات هذه الإفادة الجليلة الثمن، تكشف كشفاً صريحاً عَمّا آل إليه مقارنة بعصر مضى وانقضى: إنه هنا في بعض الطرق، ليس له وجهة محددة يلجأ إليها كعادته، ولا يُعيره المارّةُ اهتماماً يذكر. وهو مجرد إنسان، إنه أحد أولئك المارة العابرين في شأنه، دون أن يحظى من أي منهم بتقدير أو اعتبار. أما قوله: **«خلفي يغمزني بسوطه»**، فهو

---

(١) المصدر نفسه، ص ٨٦.

(٢) مجالس العلماء، ص ٢٨.

إضافة إلى أنه تأكيد على العزلة التي أحاطت به، فإنه يمكن أن يقارن حمله السوط الآن، بما كان يحمله من سلاح في السابق. وفي دهشة مروان عندما رآه: «**أَبَعْدَ تلك الحال؟!**»، مقارنة كاملة بين العصرين، عندما كانت حاله عزيزة محترمة، وعندما أصبحت الآن مهانة محتقرة. وهكذا اختتم حماد نفسه، الروايةَ في تأثر شديد وحزن عميق، عندما قال: «**ذهب ويحك ما كنت تعهد، ذاك زمان وهذا زمان**». وفي الإشارة إلى الزمان السابق، اختصار لتلك الحياة السعيدة الهانئة، وفي الإشارة إلى الزمان الآخر، إيجاز آخر للحياة الجديدة بعد أن جاءت الدولة العباسية.

ويمكن أن نضيف هنا، أن مجيء الدولة العباسية نفسه، شكل له كارثة كبرى، فكان شبح الموت والخوف حاضراً دوماً أمامه، وهذا واضح فيما سيأتي من حديث، وفيما عبر عنه عند لقائه بأبي مسلم الخراساني، فهو يقول:

«**أرسل إلي أبو مسلم ليلاً، فراعني ذلك، فلبست أكفاني**»[1].

ذلك كان في أول الدولة العباسية، أي في عهد السفاح، أما في عهد المنصور، فإن الحالة كانت أسوأ، إذ انكفأ حماد على نفسه في مدينته الكوفة منقطعاً عن الحياة والأحياء، بعد أن تفرق شمله وشمل أمثاله، يقول أبو الفرج:

«**خرج جماعة من الشعراء في أيام المنصور من بغداد في طلب المعاش فخرج يحيىٰ بن زياد... إلى البصرة، وخرج حماد عجرد إليها معه، وعاد حماد الراوية إلى الكوفة...**»[2].

ويدعم هذا الانعزال والانكفاء على الذات، ما لقيه من جعفر بن أبي

(١) ابن عبد ربه، العقد، جـ ٥، ص ٣٠٨.
(٢) الأغاني، جـ ١٣، ص ٣٠٠.

جعفر المنصور، الذي أخرجه من مجلسه مجروراً، فهذا هو نفسه يقول للرسول الذي أراد استصحابه للأمير:

«دعني! فإن دولتي كانت مع بني أمية، وما لي عند هؤلاء خير»[1].

ولعلنا نلاحظ الإشارة إلى جميع خلفاء وأمراء بني العباس ممن عاصرهم، بـ«هؤلاء»، وهي إشارة تنبيء عن الرفض وعدم القبول. ثم إن في قوله: «**دولتي**»، استحضار كامل للماضي، حيث كان حقاً منتمياً إلى ذلك الكيان.

وبالمثل يأتي قوله الآخر لتأكيد هذه المقارنة، فيقول مخاطباً مطيعاً، الذي توسط له عند جعفر هذا:

«ألم أخبرك إني لا أصيب منهم خيراً، وأن حظي قد مضى مع بني أمية!»[2].

وهنا يستخدم الضمير «هم»، بدلاً من التصريح باسمهم، كما فعل عندما استخدم اسم الإشارة، أما بنو أمية، فهو في كلتا الحالتين، يأتي بهم كما هم.

ويلاحظ أن قوله ذاك قد سحب المدة الزمنية منذ ابتداء حكم العباسيين حتى خلافة المنصور، إذ توفي جعفر بن أبي جعفر المنصور، سنة ١٥٠ هـ.

وأخيراً يأتي تعليق أبي الفرج ليبين المكانة الجديدة التي أدركها حماد مع بني العباس، فيقول:

---

(١) الأغاني، جـ ٦، ص ٧٨.
(٢) الأغاني، جـ ٦، ص ٧٩.

«كان مُطَّرَحاً مَجْفُوَّاً في أيامهم (أين بني العباس)»[1].

ولعل مما يكشف لنا عن النفور المتبادل بين الطرفين: بني العباس وحماد، أنه عندما أهدى إليه صديقه دستجة نبيذ، كتب إليه قائلاً:

«لو عرفتَ في العدد أقل من واحد، وفي الألوان شراً من السواد، لأهديته إلي»[2].

فالسواد، شعار بني العباس، أو بني هاشم بصورة عامة، أصبح يعادل عنده الشر كل الشر، ولا شر بعده.

بل إنه حتى لو قبلنا الروايات التي توصله إلى عصر الرشيد، فإنها تظهره بمظهر الخائف المتوجس ذي الحاجة والفاقة، فها هو يقول عن نفسه، حسبما يروي أبو الفرج:

«حماد الراوية... قال: ... أيام هارون الرشيد بالرقة، وقد ظهرت...»[3].

وهذا يعني أنه ظل طول فترته تلك، يتجنب المحافل العامة، والمواطن المكشوفة، حتى لا يتعرض لأذى السلطات ومطاردتها.

وتبدو الفجوة بين مشاعره في العصرين، في رسالة هشام بن عبد الملك إلى واليه التي يقول فيها:

ابعث إلى حماد الراوية من يأتيك به غير مروع ولا متعتع»[4]. أما في الجانب العباسي، فقد رأينا كيف روع وتعتع.

ومن ثم نعود لنسال أنفسنا، ما موقفنا من تلك الروايات

---

(١) المصدر نفسه، ص ٧٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ٨٠.

(٣) الأغاني، جـ ٣، ص ٢٦١.

(٤) المصدر نفسه، جـ ٦، ص ٧٢.

العباسية التي أظهرته الأكثر مجوناً، والأقبح وجهاً، والأحقر شخصاً.

ب ــ الحالة الاقتصادية:

لم تكن حالة حماد الاقتصادية في الخلافة العباسية بأحسن حالاً من حالته السياسية، فعلى الرغم مما وصف به من إقبال على الشراب في هذا العصر، وهو ما يتطلب وفرة مالية، فإن الأخبار الأخرى تناقض ذلك، وما هي إلا انعكاسات للوضع السياسي. فعلى الرغم من أن المنصور استدعاه ثلاث مرات. فإن رسوله لم يحمل له أية هدية أو عطية.

وعلى الرغم من أن المهدي في مقابلة أخرى بحماد منحه عشرة آلاف درهم، وخلعتين من كسوة الشتاء والصيف[1]، فإن هذا العطاء الأخير، لا يعادل ذلك التشهير الذي تعرض له عند لقائه أول مرة مع المفضل الضبي ومنحه عشرين ألف درهم[2]، كما أنه لا يقارن بما كان بنو أمية يمنحونه إياه، أو بما منحه بنو العباس لأمثاله من الرواة والعلماء في كل مرة يلتقون فيها بهم، حتى إن تلك الحادثة التي اختلط فيها الرشيد بالمهدي في رواية السيوطي حول أبيات زهير نفسها[3]، جعلت الرشيد ينصرف عن حماد، وهو المعروف بسخائه وعطائه، فخرج من عنده دون أن يحصل على شيء.

فحماد، عاش في هذا العصر مجفواً من أصحاب المال والثراء، خلفاء كانوا أو أمراء، وإذا كانت تلك الإشارات تكشف عن انقطاع الموارد الاقتصادية لديه، فما تبقى من روايات عن حياته ليكشف حقيقة عن سوء الحال والفاقة، فأبو الفرج يروي قائلاً:

---

(١) المصدر نفسه، ص ص ٨٣ ـ ٨٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ٨٦.

(٣) شرح شواهد المغني، جـ ٢، ص ٧٥٤.

«دخل مطيع بن إياس ويحيىٰ بن زياد على حماد الراوية، فإذا سراجه على ثلاث قَصَبات، قد جُمع أعلاهن وأسفلهن بطين، فقال له يحيىٰ بن زياد: يا حماد، إنك لمسرف مبتذل لحر المتاع، فقال له مطيع: ألا تبيع هذه المنارة وتشتري أقل ثمناً منها وتنفق علينا وعلى نفسك الباقي وتتسع به؟ فقال له يحيىٰ: ما أحسن ظنك به! ومن أين له مثل هذه؟ إنما هي وديعة أو عارية، فقال له مطيع: أما إنه لعظيم الأمانة عند الناس! قال له يحيىٰ: وعلى عظيم أمانته، فما أجهل من يُخرج مثل هذه من داره ويأمن عليها غيره! قال مطيع: ما أظنها عارية ولا وديعة، ولكني أظنها مرهونة عنده على مال، وإلا فمن يُخرج هذه من بيته! فقال لهما حماد: قوما عني. . . واخرجا من منزلي، فشر منكما من يدخلكما بيته»[1].

ولعل هذه الحادثة مما يتخذ دليلاً على بخله، ولكنها في حقيقة الأمر، حادثة تندرج في ظروفه الجديدة سياسياً واقتصادياً. فالسراج على ثلاث قصبات مجموعة بطين، ليست شيئاً ذا قيمة، فما هو إلا سراج عادي، اتخذه مطيع ويحيىٰ سخرية من حماد، الذي وصل به الأمر إلى أن يستخدم هذا النوع من السراج، ويدل رده عليهما، على مبلغ تأثره من هذه السخرية الضاحكة، وهو على ما هو عليه من شظف العيش وقتارته.

وفي رواية ابن خلكان للحادثة نفسها يختتمها حماد بقوله:

«وهل عند أحد من المال ما يرهن؟»[2].

وهو توضيح آخر للفاقة والحاجة اللتين عاشهما حماد في هذا العصر. ويبين انكساره وألمه من أوضاعه المادية، وما لقيه بعد إخراجه من عند

---

(١) الأغاني، جـ ٦، ص ص ٧١ ـ ٧٢.

(٢) وفيات الأعيان، جـ ٢، ص ٣٠٧.

جعفر بن أبي جعفر المنصور، فأبو الفرج يقول تعليقاً على ما تعرض له من أذى:

«وكان أغلظ من ذلك كله، وأشد بلاء، إغرامي ثمن السواد وجفنِ السيف»[1].

ذلك أنه لم يكن لديه لباس مناسب يرتديه للقاء الأمير، ولم يكن لديه سيف يتمنطق به، فاستعارهما[2]. وبعد جره وسحبه، تمزقت الثياب وتهشم جفن السيف، فكان البلاء عليه مضاعفاً، فهو لم ينل من الأمير ما كان يرجوه، وليس لديه ما يؤدي به قيمة السواد وجفن السيف، حتى صار كل ذلك: **«أغلظ... وأشد بلاء»**.

والحقيقة أن هذا التعبير الأخير الذي يعبر عن ضائقة مالية ونفسية تتمثل في العجز عن سداد قيمة السواد، رمز الشر عنده، وقيمة غمد السيف، كناية عن الفاقة والفقر ـ ليختصر كل الأقوال عن حياته آنذاك.

---

(١) الأغاني، جـ٦، ص ٧٩ جفن السيف: غمده.

(٢) المصدر نفسه.



الباب الثاني

توجهاته الثقافية

الفصل الأول
العلم بالشعر

إذا نظرنا في المرحلة المتأخرة من مراحل الأدب العربي القديم، وهي المرحلة التي سبقت الإسلام بمدة وجيزة، ثم تجاوزتها إلى نهاية العصر الأموي، وبقيت بعض ملامحها بعد ذلك، فإن ظاهرة الرواية الشفوية، تأتي في مقدمة تلك الظواهر البارزة، حتى أصبح ملحوظاً أن تجتمع الرواية والشاعرية في شخص واحد، ومن هنا كان بعض رواة الشعر شعراء، في حين احتفظ آخرون بمهنة الرواية دون أن تكون لهم الموهبة الشعرية. ولعل من أبرز أصحاب الفئة الأولى، كعب بن زهير، الذي كان راوية أبيه. وإذا لم يتبق لنا من أسماء رواة الشعر الجاهلي إلا عدد محدود جداً، ومن أبرزهم عبيد راوية الأعشى، الذي لم يكن شاعراً، فإنه عرفت أسماء رواة الشعراء المتأخرين. كما قال القاضي الجرجاني في وساطته:

«كان عبيد راوية الأعشى، ولم تسمع له كلمة تامة، كما لم يسمع لحسين راوية جرير، ومحمد بن سهل، راوية الكميت، والسائب راوية كثير»[1].

وهكذا يمكن أن يخلص المرء إلى نتيجة مؤداها أن الشاعر القديم اختص براوية معين يلازمه، ويحفظ عنه، وينقل شعره إلى الآخرين في

---

(١) ، ص ١٦.

أثناء حياته وبعد وفاته، وهي مهنة احتراف، كان الهدف منها أحياناً الإعداد ليصبح الراوية شاعراً، ولهذا كاد الراوية يكون مقتصراً كلية على شاعره.

حقاً، كان هناك من يروي شعر أكثر من شاعر واحد، من قَبِيل الرواية والإنشاد، وقد يروي الشاعر لشعراء قبيلته، أو يروي لمن يحبهم من الشعراء أو يحب أشعارهم، وقد يشارك أفراد القبيلة في رواية شعر شعرائها.

ونتيجة لاتصال العرب بغيرهم من الأمم، وإقبال أبناء الثقافات الأخرى عليهم، نشأ فن جديد، إنه فن الرواية المتعددة الأطراف، والتي لا يختص فيها الراوية بشاعر معين، بل بالشعر عامة، وكان للعصر الجاهلي ـ من واقع التأثيرات الثقافية واللغوية والتعليمية الجديدة ـ القدح المعلى، والنصيب الأوفر. وعند نقطة الالتقاء هذه، نقطة التقاء الروافد الأصيلة بالروافد الوافدة، برز حماد الراوية، لا على أنه راوية كالرواة المألوفين أو المعروفين وسط قبائلهم، بل على أنه علم لامع على مفترق الطرق، فهو لم يختص بشاعر معين، ولم يحصر نفسه في قبيلة محددة، وإنما شملت جهوده كل هؤلاء، وعم نشاطه من تطاله يداه من هذا أو ذاك من شعراء الجاهلية حتى تجاوزهم إلى شعراء صدر الإسلام فالعصر الأموي حتى أواخره. وبهذا أصبح الأنموذج والمثال، الذي تحررت على يديه الرواية الشفوية من الاحتكار والعصبية القبلية، حتى إنه كان أبعد ما يكون، بعد ما أصبحت الرواية حرفته، عن احتكار العصبية القبلية، فكان لا يعبأ حتى بشعر القبيلة التي احتضنته، لأن هذا ليس من سلوكه أو مجال تفكير، مما جعل الفرزدق يتوجه إليه قائلاً:

«أنت لا تروي أشعار قومك»[1].

يعني بني شيبان.

---

(١) البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٤، ص ٧١.

وإزاء هذا التفرد والتميز، ينتقل حماد من سطح الثقافة العربية ليحتل مكانته المرموقة في مصاف القمم العالية لذوي المكانة في ميدان الرواية الشفوية عند الأمم الأخرى.

يقول حماد:

«لا أنشد شعراً قديماً ولا محدثاً إلا ميزت القديم منه من الحديث»[1].

وهذا يضعنا أمام رجل ليس راوية فحسب، بل رجل يستطيع أن يميز النماذج الشعرية لغة وأسلوباً وتركيباً، فيخرج بهذا من دائرة الرواية إلى دائرة المعرفة. وسواء قبلنا أم رفضنا هذه القدرة على التمييز، أو هذا العلم الخاص، فإن الوقائع تثبت أن هذا النموذج الجديد، ليس نموذجاً مماثلاً للنموذج المعروف في ميدان الرواية الشعبية في العصور المتأخرة، حتى أوائل القرن العشرين، ممن عرفناه في الأدب العربي بقاصّ السير الشعبية أو «الحكواتي»، بل هو نموذج ذو طابع له سماته الواضحة والمتفردة.

صحيح أننا نلاحظ بعض الظواهر التي تتعرض لها الذاكرة البشرية، مما هو مشترك بين المشتغلين بهذا الفن، ولكن الحافظة التسجيلية التي كان يتمتع بها حماد، كانت ذاكرة متخصصة، وذاكرة موجهة، ثم هي لم تنشأ عن طريق التلقي المدروس، أي من جيل يسلمه إلى جيل آخر في نطاق أصحاب الحرفة الواحدة، بل كانت عن طريق التلقي المشترك، بحيث يسعى الراوية إلى تحصيل علومه عمن سبقوه بتوجه شخصي منه، ولهذا لا تكون المادة المحفوظة كلاً مشتركاً، بل مادة يتلقنها الراوية من متخصص سبقه، وهي أيضاً خاصة في طبيعتها، يعرفها أولئك الذين اهتموا بها، فحفظوها أو حافظوا عليها.

---

(١) الأغاني، جـ٦، ص ٦٩.

وفي إطار هذه الصورة للراوية العربي، وحماد بشكل خاص، يصح تعريف الراوية حسبما عرفه الصفدي بقوله:

«تقول: رويت الحديث والشعر، إذ تحملتهما من غيرك إلى آخر لم يسمع بشيء منهما؛ كأن الحديث مستوراً عند صاحبه عمن رويته له حتى تحملته أنت، فكشفته لمن سمعه منك»[1].

لقد كان الوصول إلى مرحلة الرواية التي تعتمد كلية على الذاكرة، جديراً بالنظر والتوقف حقاً، وإذا كان القدماء، قد نظروا إلى الرواية على أساس معيارَي التوثيق وعدم التوثيق، فإن الاتجاهات العلمية المعاصرة تثبت أن حماداً، الذي سبق هذين المعيارين، كان في حقيقة أمره منسجماً مع الملاحظات العلمية المؤكدة.

فالعمل بالرواية لا بد أن يمر بمرحلة طويلة من التدريب والمعايشة، والاستمرارية، التي تجعل صاحبها مؤهلاً لتحمل تلك المسؤولية، فالحافظة لا يمكن أن تستقر ما لم يعتمد المرء على التذكر فيأخذ القصيدة مثلاً، ويتحفظها زمناً، ثم يقوم بإنشادها حتى يستيقن من حفظها، وما لم يعتمد على المعاودة والاستمرار فإنه سيتعرض للنسيان؛ هذا إذا كان المرء يتلقى محفوظه من التدوين، أما إذا كان يتلقى محفوظه من السماع، فإنه لا بد أن يعتمد إلى الاستدعاء *recall* حين يستحضر المفردات كما وعاها سمعه وعقله، وهنا يأتي الذكاء للقيام بدور مساند في تلك العملية، ولو وضعنا في الحسبان تلك الجهود الجبارة التي كان الراوية، ذو التحصيل المتشعب يبذلها، لقَدّرنا مهمته، فحِفظ قصيدة واحدة فقط، يتطلب التكرار ثم التكرار، والاستئناس بالآخرين كي يسمعوها، وهلم جراً. وهنا لا بد أن حماداً كان قد توافر على مهمته منذ مراحل صباه؛ لأن الملاحظ أنه على الرغم من معاصرته للشعراء الأمويين، المتأخرين من أمثال الأخطل

(١) فض الختام، ص ١٥١.

والفرزدق وجرير، فإنه كان منكباً في الأساس على رواية الشعر الجاهلي؛ وذلك لأنه كان في عصر الشعراء الأمويين، قد بلغ من النضج الفكري، ما يجعل عملية الحفظ بالنسبة له عملية أكثر صعوبة، لأن الحفظ في هذه السن يتطلب جهوداً مضاعفة[1]. أما حبه للشعر القديم، فلا بد أيضاً أنه تولد من حب مواليه، الذين عاش في أحضانهم، لهذا الشعر؛ وهذه الألفة هي التي مهدت السبل له مستقبلاً للتخصص فيه. وإضافة إلى انخفاض نسبة محفوظه، المفترضة، من الشعر الأموي، فإن النتيجة الطبيعية، هي أن محفوظه من الشعر المحدث العباسي، قلَّ كثيراً، بحيث إننا لم نعثر على رواية واحدة له لهذا الشعر، حتى لأصحابه من أمثال مطيع، ولم يعن هو شخصياً بأي من هؤلاء الشعراء المحدثين، ما عدا روايته لبعض أبيات لعمار ذي كناز، التي كان حفظه لها تلقائياً لكثرة سماعها من صاحبها[2].

وإن الكلمة الفصل في قضية حماد الراوية، أنه نشأ معتمداً على الذاكرة والإنشاد في أجواء رواية شفوية خالصة؛ أما من جاء بعده، فكانوا بين الرواية والتدوين، فكان حظه أسعد من حظوظهم، لأن المرء الذي تتاح له فرصة الإنشاد في كل محفل، يجد الفرصة لضبط علمه بالمحفوظ، كما تدل الدراسات العلمية على ذلك[3]. وهكذا كان شعراء الجاهلية في عكاظ، وشعراء العصر الأموي في المربد.

ومن ثم يمكن التفريق بين الراوية العالم في التراث العربي القديم، والراوية من أمثال من ذكرناهم سابقاً. كما يصبح التفريق جوهرياً بين الموروث العربي، والتقاليد الشفوية الشعبية عند الأمم الأخرى، أي بين

---

(١) *Hunter, Memory, P39*.

(٢) الأغاني، جـ ٢٣، ص ٣٦٩.

وعبارته هي: «وكنت لكثرة عبثي به (أي بعمار)، قد حفظتها».

(٣) *Hunter, Memory, PP. 5 -55*.

القصيدة العربية، كما تمثلت في رواية حماد، وأنواع الشعر الأخرى مثل:

الملحمة الهومرية، والملاحم اليوغسلافية، ومقولات الدلفيك الغامضة، والمقطوعات البانياسية، والشعر الإنجليزي القديم والوسيط، وملاحم الفرنسيين والألمان في القرون الوسطى، والملاحم البابلية والحيثية، وأغاني التودا الشعائرية، ورقصات الكورغ، والأغاني القصصية الشعبية والأسبانية[١].

وإزاء هذه الصورة عن حماد، فإن المرء لا يجد نظيراً له في التراث العربي قبل هذا العصر؛ وإذا وضعنا الإمكانات العلمية والتراثية التي حظي بها الأصمعي، فإن مكانته تصبح، بعد تجريدها من المسائل الشخصية، حقيقة واقعة عن رجل تلقى الشعر مشافهة، وتنامت لديه بفضل مواهبه الفنية، وجهوده الذاتية، القدرة على تصنيف المادة الشعرية، والحكم على جاهليتها أو إسلاميتها، أو نسبتها إلى أي من الشعراء المعروفين لديه.

وتأتي الثناءات التي أسبغت عليه من الجيل اللاحق له، تأكيداً على هذا المستوى الرفيع من الرواية الشفوية، فهذا علم المدرسة البصرية الأصمعي، يقول:

«كان حماد أعلم الناس، إذا نصح»[٢].

ولنترك الآن جانباً، الجزء الأخير من العبارة: **«إذا نصح»**، لنلتفت إلى صيغة التفضيل: «أعلم»، ولا شك أن الأصمعي يقصد هنا الأعلم بالشعر، وهذه شهادة تقدير وإشادة من رجل تتخذ كلمته مستنداً يرجع إليه عند الحكم والتقويم، فحماد يفوق غيره ممن اختص بهذا الفن علماً ومعرفة، أي إنه مدرك لبواطنه وخوافيه. ولم يقتصر تمجيد الأصمعي له

---

(١) انظر عن هذه: *Zwettler, the Oral Tradition P.5*

(٢) الأغاني، جـ ٦، ص ٦٨.

وإعلائه من ذكره، على جعله **«أعلم الناس»** دون منازع، مهما كانت درجة اتهامه: **«إذا نصح»**، بل فاق ذلك إلى أن جمع بينه وبين رأس المدرسة البصرية وعمادها الذي يرجع إليه، أبي عمرو بن العلاء، فقال رواية عن أبي عمرو نفسه:

«ما سمع حماد الراوية حرفاً قط إلا سمعته، وكان أسن من حماد»(1).

فهذه الموازنة غير المقصودة بين الرجلين، يضيف إلى قيمتها العلمية، تعليق الزبيدي، ناقل الرواية عن الاثنين: **«كان أسن من حماد»**. والمعروف أن أبا عمرو ولد سنة ٧٠ هـ، وقد ناقشنا حقيقة ميلاد حماد، فرأينا أنه كان في تلك الحدود، وهذا يمنح حكم أبي عمرو، مصداقية أقوى، لأنه يوثقه من الناحية العلمية، كما يوثقه من الناحية الزمنية. وتأتي رواية أبي عمرو الشيباني عن أبي عمرو بن العلاء نفسه، توثيقاً آخر لذلك الخبر، يقول:

«ما سألت أبا عمرو بن العلاء قط عن حماد الراوية، إلا قدمه على نفسه»(2).

فهذا التقديم، وإن كان يحمل بعداً زمنياً، فإنه يحمل كذلك أبعاداً توثيقية. ولعلنا نلاحظ هذا الحصر، والقصر على السماع والتقديم في العبارات، خاصة أن هذا التقديم يجيء من رجل يقول عن نفسه:

«ما رأيت أحداً قط أعلم مني»(3).

وتتعاقب الإشادات بعلم حماد، أي بمعرفته بالشعر، ولا بد أن نضع

---

(1) الزبيدي، طبقات النحويين، ص ٣٧.

(2) الأغاني، جـ ٦، ص ٧١.

(3) الزبيدي، طبقات النحويين، ص ٣٧.

قيمة لمعنى العلم، لأن المرجعيات العلمية استخدمتها في حد ذاتها؛ ففضلاً عن قول أبي عمرو والأصمعي، نقل أبو الفرج عنه رأيَ نِدِّه المفضل فيه:

«رجل عالم بلغات العرب وأشعارها، ومذاهب الشعراء ومعانيهم»[1].

وهنا محافظة مستمرة على الناحية العلمية: **«عالم»**، فهي وإن كانت تبدو أقل من **«أعلم»**، فإنها تعني الإحاطة والشمول، فتكشف عما يقصد بالعلم بالشعر، لتوسع دائرته التي يقع فيها: **«مذاهب الشعراء ومعانيهم»**، ثم ينضم إليها، العلم **«بلغات العرب»**، وبالتأكيد، فإن هذا العلم لم يأت من طلب لمفردات اللغة من أفواه الأعراب، كما فعل كثير من العلماء، وإنما من تخصص وتبحر في مذاهب الشعراء ومعانيهم. لقد قال أبو الفرج مرة أخرى، موضحاً تلك الإحاطة وذلك الشمول:

«كان من أعلم الناس بأيام العرب وأشعارها وأنسابها ولغاتها»[2].

وهذا يمد الساحة التي يتحرك فيها حماد، لتصبح غير قاصرة على **«أعلم الناس»** بالشعر وحده ـ مع ملاحظة استعمال الجمع: **«أشعارها»**، بدلاً من المفرد ـ وإنما ليصبح الأعلم بالأيام، والأنساب، واللغات.

أما تقديره من أولئك الذين يكنون له احتراماً وتقديراً شخصياً، فإنه يمكن أن نجده في قول الهيثم بن عدي، صاحبه:

«ما رأيت رجلاً أعلم بكلام العرب من حماد»[3].

---

(١) المصدر نفسه، ص ٨٥.

(٢) الأغاني، جـ ٦، ص ٦٨.

(٣) المصدر نفسه، ص ٧٠.

وهنا تتجاوز الرواية عمن أثنى عليه «**كان**»، إلى الاتصال المباشر والمعاينة الحقيقية. «**رأيت**»، ثم نصادف صيغة التفضيل: «**أعلم**»، متفقة مع ما أجمع عليه الآخرون.

وهكذا كشفت لنا هذه الأقوال عن حقيقة غابت عن أنظار أولئك الذين اتهموه ونسوا مكانته في التراث القديم، فلقد أدرك حماد نفسه هذه المنزلة العالية التي يحتلها، فكان أن أبدى الإعجاب بنفسه، وحدد ملامح شخصيته، كما تتمثل في علميته ومرجعيته الثقافية، فكان يقول:

«**أنا أعلم الناس بالشعر**»(١).

أو.

«**أنا أعلم الناس بكلام العرب**»(٢).

وهذان القولان، ليسا ادعاء أو غروراً، أو دفاعاً عن النفس، وإنما هما ـ كما وجدنا ـ حقيقة واقعة أثبتها آخرون، يعدون من الأضداد له.

ومما لا شك فيه أن بلوغ هذا المستوى من العلم في هذه الميادين المختلفة، لم يكن يسيراً في ذلك الزمان، لولا ما كان يتمتع به الرجل من ذاكرة فاقت حد المعقول، حتى استطاع أن يهضم هذا التراث المتنوع، وأن يتمثل جزئياته الفريدة؛ وإن الحقيقة العلمية هي أنه لا الذاكرة ولا الذكاء بقادرَين على الإلمام بعمق بكل هذه التنوعات الثقافية، والحصول على شهادة تفوق لا حد لها في رواية الشعر، لولا ما بذله الرجل من جهود ذاتية جبارة، جعلت من الصعب سهلاً، ومن المعوق يسيراً، يقول أبو الفرج في وصف بعض سيرته:

---

(١) الزجاجي، مجالس العلماء، ص ٢٧.
(٢) الأغاني، جـ٦، ص ٧٠.

«طلب الأدب، والشعر، وأيام الناس، ولغات العرب... فبلغ من العلم ما بلغ»[1].

فإلى جانب هذه الروافد المتعددة، هناك رافد جديد أضيف إليها، إنه الأدب. فالعلماء الأوائل، لم يكتفوا بتخصيصه في ناحية علمية واحدة، بل حاولوا أن يمنحوه أوسمة في شتى الميادين الثقافية، التي كان الحصول عليها في الزمن الذي عاشه من وظائف العرب الأقحاح رواة وعلماء.

ولعل مما يلفت النظر في مجمل هذه الأقوال، خلوها من مثل تلك الإضافة، التي أضافها الأصمعي: «**إذا نصح**»، وسوف نرى أنه حتى هذا الجزء من العبارة الأولى، هو ذو مضمون غير ما يوحي به هنا، بحيث يظل وصفه بالعالم أو الأعلم، أكبر سند توثيقي له، لأنه أسبغ عليه كل خصائص العلم من استقصاء وإحصاء، ودرس ودقة، وتمييز ومعرفة.

لقد بلغ حماد من الثقة في الذات، والاعتداد بالنفس، إلى أن يواجه الكميت (ت ١٢١ هـ)، فيتعالى عليه حتى يقول له الكميت: «أتظن أنك أعلم مني بأيام العرب وأشعارها؟ فيرد عليه حماد متفاخراً فيقول: «وما هو إلا الظن؟! هذا والله اليقين». ونتيجة لهذا الاعتداد يخرج الكميت عن طوره، فيتحدى حماداً، فيورد عليه أسئلة معجزة، يفحمه بها، ولا يستطيع لها رداً، ولعل هذه الواقعة تبين لنا أن الاتساع في الرواية كان معروفاً في عصر تألق حماد وازدهار روايته، وأنه على الرغم من اتساع روايته كان يجد من يتفوق عليه، ولم يكن هؤلاء إلا الشعراء، في بعض الحالات، من أمثال الكميت والفرزدق، اللذين جمعا بين الرواية والشاعرية، أما الرواية، فكان هو فارس ميدانها، ومالك زمام حلبتها، تقول القصة:

---

(١) المصدر نفسه، ص ٨٣.

«اجتمع الكميت بن زيد وحماد الراوية في مسجد الكوفة، فتذاكرا أشعار العرب وأيامها، فخالفه حماد في شيء ونازعه، فقال له الكميت: أتظن أنك أعلم مني بأيام العرب وأشعارها، قال: وما هو إلا الظن؟! هذا والله هو اليقين، فغضب الكميت، ثم قال له: أَلِكَمْ شاعرٍ بصير، يقال له عمرو بن فلان، تروي؟ ولكم شاعر أعور أو أعمى اسمه فلان بن عمرو تروي؟ فقال حماد قولاً لم يحفظه، فجعل الكميت، يذكر رجلاً رجلاً من صنف صنف، ويسأل حماداً هل يعرفه، فإذا قال لا، أنشده من شعره جزءاً جزءاً حتى ضجرنا، ثم قال له الكميت: فإني سائلك عن شيء من الشعر، فسأله عن قول الشاعر:

طَـرَحُـوا أَصْحَـابَهُـمْ فِـي وَرْطَـةٍ قَـذْفَـكَ المَقْلَـةَ شَطْـرَ المُعْتَـرَكْ

فلم يعلم حماد تفسيره، فسأله عن قول الآخر:

تَـدَرَّيْنَنَـا بِـالقَـوْلِ حَتَّـى كَـأَنَّمَـا تَـدَرَّيْـن وِلْـدَانـاً تَصِيـدُ الـرَّهَـادِنَـا

فأفحم حماد، فقال له: لقد أجلتك إلى الجمعة الأخرى، فجاء حماد، ولم يأت بتفسيرها، وسأل الكميت أن يفسرهما له، فقال: المَقلة: حصاة أو نواة من نوى المُقْل يحملها القوم معهم إذا سافروا، وتوضع في الإناء، ويصب عليها الماء حتى يغمرها، فيكون ذلك علامة يقتسمون بها الماء. والشطر: النصيب. والمعترك: الموضع الذي يختصون فيه في الماء، فيلقونها هناك عند الشر. وقوله: تَدَرَّيْنَنَا: يعني النساء، أي خَتَلْننا فرميننا.

والرهادن: طير بمكة كالعصافير»[1].

إن مجرد تحديه الكميت ومخالفته إياه ونزاعه، لهو مما يُعمِّق صلة

---

(١) الأغاني، جـ١٦، ص ص ٣٢٩ ـ ٣٣٠. وانظر الخبر دون تفصيل كهذا في الزجاجي، مجالس العلماء، ص ص ٢١٦ ـ ٢١٧.

حماد بالموروث الشفوي، فهو باستمرار في غربلة مادته العلمية والشعرية، وهو باستمرار يحاول استثارة ما لديه وما لدى الآخرين، وهو بتصديه لأمثال الكميت، إنما يثبت شخصيته واستقلاله، وبعد نظرته، فالكميت ليس شاعراً عادياً، إنه شاعر راوية، يعتمد على الاتصال المباشر بالموروث الشفوي، حتى إن حماداً نفسه يروي عنه قائلاً:

«كانت للكميت جدتان أدركتا الجاهلية، فكانتا تصفان له البادية وأمورها، وتخبرانه أخبار الناس في الجاهلية، فإذا شك في شعر أو خبر، عرضه عليهما، فتخبرانه عنه، فمن هناك كان علمه»[1].

فحماد يعترف أن الكميت أقرب إلى الوقائع التاريخية والمرويات الشفهية منه، لأنه ينقل من مصدر مباشر، على حين أنه يعتمد على تحصيله الشخصي من هنا وهناك. ومع كل ذلك، فإن حماداً لم يستحق لقب الراوية جزافاً، وهو لقب لم يطلق لا على المفضل، ولا على خلف، ولا على يونس، ولا على الأصمعي، ولا على ابن سلام، بل اشتهر به وحده في القرن الأول الهجري، وهو قرن فيه من أمثاله العديد من الرواة والشعراء، وهو قرن انبثاق الرواية الشفوية على يد متخصص محترف مثله، ومن هذا البعد الثقافي والتاريخي لحماد الراوية، وللرواية الشفوية على حد سواء، جاء قول ابن النحاس:

«أما حماد الراوية، فإنه كان... مشهوراً برواية الأشعار، والأخبار، وهو الذي جمع السبع الطوال»[2].

وقد سبق للوليد بن يزيد أن تحقق من ذلك حين قال له:

«بما استحققت هذا اللقب فقيل لك الراوية؟ فقال: بأني أروي لكل

---

(١) الأغاني، جـ١٦، ص ص ٣٥١ ـ ٣٥٢.

(٢) انظر، ابن الأنباري، نزهة الألباء، ص ٣٥.

شاعر تعرفه يا أمير المؤمنين أو سمعت به، ثم أروي لأكثر منهم ممن أعرف أنك لم تعرفه ولم تسمع به، ثم لا أنشد شعراً قديماً ولا محدثاً إلا ميزت القديم منه من الحديث. فقال: إن هذا لعلم وأبيك كثير فكم مقدار ما تحفظ من الشعر؟ قال: كثيراً، ولكني أنشدك على كل حرف من حروف المعجم مائة قصيدة كبيرة، سوى المقطعات من شعر الجاهلية دون شعر الإسلام، قال، سأمتحنك في هذا، وأمره بالإنشاد، فأنشد حتى ضجر الوليد، ثم وكَل به من استخلفه أن يصدُقه عنه، ويستوفي عليه، فأنشده ألفين وتسعمائة قصيدة للجاهليين»[1].

وقد وقف حماد باعتداد أمام الوليد بن يزيد، ليجيبه مؤكداً سعة محفوظه من الشعر القديم؛ عندما سأله:

«أنت حماد؟».

فيجيبه:

«إن الناس يقولون ذلك!».

فيسأله الوليد مرة آخرى:

«فما مبلغ روايتك؟».

فيجيبه:

«أروي سبعمائة قصيدة أول كل واحدة منها: بانت سعاد».

ويندهش الخليفة من هذا القدر من المحفوظ، فيقول:

«إنها لَرواية!»[2].

---

(١) الأغاني، جـ ٦، ص ص ٦٨ ـ ٦٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ٨٧.

ولعلنا نلاحظ هنا أمرين: الأول، هو اشتهار أمره في المجتمع بحيث يصبح حديث **«الناس»**، وليس من بين هؤلاء إلا معجب به، مستغرب لهذه الملكة الأعجوبة.

والثاني، أن الخليفة نفسه أعطى شهادة تميز وتفوق وخصوصية لرواية حماد.

وإذا كنا في شك من هذا العدد، سبعمائة قصيدة كلها تبدأ ببانت سعاد، فإن الخبر الآخر، عن راوية متأخر، ربما دفعنا جميعاً إلى إعادة النظر في تقويم حماد؛ فابن الأنباري شارح المفضليات، يروي عن بُندار الأصبهاني أنه:

«كان يحفظ سبعمائة قصيدة، أول كل قصيدة: بانت سعاد»[1].

---

(١) القفطي إنباه الرواة، جـ ١، ص ٢٥٦.



الفصل الثاني

تضلعه في اللغة

هناك اتفاق عام بين العلماء على الربط بين علم حماد بالشعر وعلمه باللغة، فهم سبق أن قالوا عنه صراحة:

«عالم بلغات العرب».

أو.

«أعلم الناس بـ ـ لغاتها»[1].

أو هم يضمنون ذلك بعض أقوالهم عندما يثبتون أنه الأعلم بالشعر، فيثبتون معه أيضاً أنه على سعة اطلاع بلغات العرب، بل إنهم حينما ينقلون إشادته بنفسه، ولا يبطلونها، يوافقونه على هذه الإشادة، ويؤكدونها له، سواء أكان ذلك قدرته الفائقة على التمييز بين أشعار العصور المختلفة: جاهلية، وإسلامية، وأموية، أو كونه: **«أعلم الناس بكلام العرب»**. وإنه لمن الثابت أن هذا التحصيل اللغوي، بل الشعري، لم يكن تحصيلاً متأخراً، يتعرض المرء فيه للنسيان أو الاضطراب، أو الجهد المضاعف، بل إنه تحصيل لا بد أنه كان مبكراً رافق صباه ونشأته.

ثم تأتي الشواهد التي لا نعدمها في كل حالة استشهاد على عبقرية هذا الرجل، فها هو يسأل مروان بن أبي حفصة قائلاً:

---

(١) الزجاجي، مجالس العلماء، ص ص ٢٧ ـ ٢٨.

«هل تروي من أشعار العرب شيئاً؟ فيسقط مروان في يده، فينشده حماد:

سَلِ الدَّارَ مِنْ جَنْبَي حِبِرٍّ فَوَاهِبٍ ... إِذَا مَا رَأَى هَضْبَ القَلِيبِ المُضَيَّحُ

فيسأله عن معنى البيت، فيعجز مروان عن الجواب، فيجيبه قائلاً: «يقال: رأى الموضع الموضع، إذا قابله»[1].

وها هو راويته الهيثم بن عدي، يستشعر في نفسه الثقة، فيحاول أن يجرِّب نفسه مع أستاذه، فيقول له:

«ألقِ عليَّ ما شئت من الشعر، أفسره لك». فيضحك حماد، ويسأله عن معنى قول ابن مُزاحم الثُّمالي.

تَخَوَّفَ السَّيْرُ مِنْهَا تَامِكاً قَرِداً ... كَمَا تَخَوَّفَ عُودَ النَّبْعَةِ السَّفَنُ

فيعيا الهيثم عن الجواب، كما تعايا مروان، فيجيبه حماد قائلاً:

«تخوف: تنقص، قال تعالى: ﴿أو يأخذهم على تخوف﴾، أي على تنقص»[2].

وتجدر ملاحظة دلالة السؤالين: سؤاله مروان عن رواية شيء من شعر العرب، وسؤال الهيثم له عما شاء من الشعر. فمروان الشاعر الذي يفترض أنه يروي شعراً كثيراً، هو في نظره لا يروي إلا شيئاً يسيراً، إن كان يرويه؛ أما هو، فلا يَعُد هذا الشيء اليسير مقياساً له، لأنه يروي أشعار

---

(١) الأصفهاني، الأغاني، جـ ٦، ص ٧٠. حبر وواهب: جبلان لبني سليم. هضب القليب: ماء لبني قنفذ من بني سليم. المضيح: ماء لبني البكاء.

(٢) المصدر نفسه. التامك: الناقة ذات السنام الكبير.
النبعة: شجرة من أشجار الجبال، تتخذ منه القسي، جمعها نَبْع.
السفن: الفأس.
القرد: الكثير القردان، المتجمع الشعر.
والبيت منسوب في اللسان «سفن» إلى ذي الرمة، وهو ليس موجوداً في ديوانه.

العرب، والهيثم الذي يعرف أستاذه حق المعرفة، يعترف ضمنياً أنه على علم بذلك الشعر.

وتمضي الشواهد قدماً، لنرى راوية أعرابياً، هو أبو حنش، يسأله عن تفسير: «أرغلته» في بيت أبي ذؤيب:

أَكَـلَ الحَمِيـمَ وَطَـاوَعَتْـهُ سَمْحَـجٌ   مِثْـلُ القَنَـاةِ وَأَرْغَلَتْـهُ الأَمْـرُعُ

فيقول له: «طابت عيشه، وأخصبته، وعيش أرغل: واسع»[1].

وها هو يفسر: «فتر»، في قول ابن مقبل يصف سحاباً:

تَـأَمَّلْ خَلِيلِي هَـلْ تَـرَى ضَـوْءَ بَارِقٍ   يَمَـانٍ مَـرَتْـهُ الـرِّيـحُ نَجْـدٍ فَفَتَّـرَا

فيقول: «فتر، أي أقام وسكن»[2].

وهو تفسير قريب من تفسير الأصمعي الذي قال:

«فتر: مطر، وفرغ ماؤه، وكف وتحير»[3].

ولعل من الملاحظ أن هذه التفسيرات، في كل حالاتها، سواء أكانت مع تلميذ أم عالم، هي تفسيرات محددة المعنى والإصابة للدلالة، لا تتعدى معنى الكلمة الحرفي إلى المجاز، أو ما وراء الخيال، وإنما تهدف إلى التوضيح والإبانة بدقة متناهية؛ وهذه الدقة، وهذا التحديد، يكشفان، من طرف، عن التنظيم العقلي، والوعي الفكري اللذين يسيران روايته، أما من طرف آخر، فإنا نستشعر روح الأستاذ ماثلة في تعامله وإجاباته، وإذا ما قارنا بينه وبين الأصمعي، فإنا نلاحظ أن الأصمعي لم يكتف بالقليل من

---

(١) حمزة الأصفهاني، التنبيه على حدوث التصحيف، ص ٦٩.

(٢) التاج، «فتر». وهو مطلع قصيدة عدد أبياتها خمسون بيتاً، هو في الديوان:

تـأمـل خليلـي هـل تـرى ضـو بـارق   يمـان مـرتـه ريـح نجـد ففتـرا

ديوان ابن مقبل، ص ص ١٢٨ ـ ١٤١.

(٣) التاج، «فتر».

الألفاظ، وإنما ذهب إلى أبعد من ذلك: «**مطر، وفرغ ماؤه، وكف وتحير**»، وهو تفسير أوفى عن معنى «**تخوف**» في بيت ابن مزاحم، وعن معنى «**أرغل**» في بيت أبي ذؤيب.

وإزاء هذه المنزلة التي ذكرها له العلماء في اللغة، فإنه من المفترض أن كماً كبيراً من تفسيراته اللغوية المشابهة فقدت، كما فقد كم كبير من معارفه الشعرية، ولكن ما ينبغي تأكيده هو أن استعمال العلماء للجمع: «لغات» أو **«لغاتها»**، يعني اتساع معارفه في أشعار القبائل بحيث يحرص على إدراك معاني المفردات ودلالاتها عند القبائل العربية التي اهتم برواية أشعارها. وتدل هذه الإحاطة على مقدار ما بذله الرجل في التحصيل، وعلى تأقلمه طويلاً مع المادة الشعرية التي يود توصيلها، ولنا أن نلاحظ أيضاً أنه عندما كان يروي الشعر، كان مقدِّراً لما يحمله من غموض وصعوبة في الفهم، ولذلك كان علمه باللغة مساوياً لعلمه بالشعر؛ فليس هو الذي يحفظ ترديداً دون وعي بما يحمله، بل كان يعايش المحفوظ قلباً وقالباً، وهذا هو بعض سر عبقريته وتقدمه في مجال الرواية والإنشاد، ولهذا حظي بتلك المكانة المرموقة في عصره.

الفصل الثالث
حركة التدوين
وعلاقتها بحماد

هناك جانب إيجابي في الخبر الذي حاول تشويه صورة حماد بربطه باللصوصية في مقتبل حياته، وذلك عندما جعله يعثر على كتاب فيه شعر للأنصار، ثم كانت النتيجة هي «طلب العلم». ويتضمن الخبر معرفته بالقراءة والكتابة، وحيث إن الخبر يجعل امتهانه اللصوصية في مقتبل شبابه، فإنه يعني أن حماداً كان متعلماً في سن صغيرة، وهو زمن قديم لا نملك تحديده في صحبته لليلى بنت عروة بن زيد الخيل.

فإذا عدنا مرة أخرى إلى مراحل حياته الأولى، أي حسبما ذُكر أنه أدرك زياد بن أبيه (ت ٥٣ هـ)، أو حسبما تذكر إحدى مخطوطات وفيات الأعيان أنه أدرك خلافة عبد الملك بن مروان (٦٥ هـ/ ٧٠٥ م)، فإن هذا يقرِّب علاقته بجمع القصائد السبع. يقول أبو الفضل طيفور (ت ١٨٠ هـ)، وهو أقدم من ذكر قصة جمع القصائد السبع:

«عن الحرمازي أنه قال: ذكر لي غير واحد من العلماء، أن السبع القصائد التي سَبَّعَها عبد الملك بن مروان وجمعها، ولم يكن في الجاهلية من جمعها قط. . .»[1].

---

(١) المنثور والمنظوم، ص ٣٩.

ولم يشر طيفور إلى حماد أو إلى علاقته بجمع القصائد السبع، وإنما أشار إليها لاحقاً ابن النحاس (ت ٣٣٨ هـ).

إن ما يهم هنا هو صلة الأخبار ببعضها بعضاً: الخبر الذي يجعل الجمع في خلافة عبد الملك، والخبر الذي جعله على يد حماد، بالخبر عن إدراكه ولاية زياد والخبر عن إدراكه خلافة عبد الملك، لأن هذه الأخبار ترتبط بخبر آخر يجعل جمع المعلقات على يد معاوية بن أبي سفيان، ومن ثم يمكن افتراض جمع المعلقات على يد حماد في زمن مبكر من حياته، لعله بُعَيد وفاة عبد الملك، إذ لو تأخر عن ذلك، لما احتمل كل هذا التفاوت في التحديد الزمني، ولنُسب الجمع إلى غيره أيضاً، وإن كنا نستدل من ذلك على عبقرية الرجل وتقدمه في مضمار الثقافة العربية.

لقد جاء خبر جمع القصائد على يد معاوية على النحو التالي:

«قال الحرمازي: وقد روي أن معاوية أمر الرواة أن ينتخبوا قصائد يرويها ابنه، فاختاروا له اثنتي عشرة قصيدة»[(١)].

ولهذا الخبر قيمة جلى، ليس في تاريخ المعلقات، بل في طبيعة جمعها، إذ هو خبر لا يترك مجالاً للتخمين في أن معنى **«جمع»**، فيما نسب إلى عبد الملك: **«وجمعها»**، هو عين الخبر: **«أمر الرواة أن ينتخبوا قصائد يرويها ابنه»**، وإذا كان عبد الملك هناك قد **«سَبَّعَهَا»**، أي اختار من مجموع الشعر المروي سبع قصائد، ففي الخبر المنسوب إلى معاوية، أن الرواة: **«اختاروا له اثنتي عشرة قصيدة»**، فلا معاوية دَوَّن القصائد، ولا عبد الملك فعل ذلك، وإنما أمر كل واحد منهما، رواة متخصصين بجمع

---

(١) طيفور، المنثور والمنظوم، ص ٤٠.

القصائد المشهورة من أفواه الرواة، وقد استخدم ابن سلام هذه الدلالة نفسها عند حديثه عن حماد، فقال:

«كان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها: حماد الراوية»[1].

فحماد، لم يدوِّن المعلقات، ولا يمكن أن يكون قد فعل ذلك، وإنما كان قد وعاها في صدره، وقد دله نبوغه الفذ على الاستفادة من جهود السابقين عليه، خاصة أنها جهود قريبة العهد به، وهو في حداثة سنه، فأولى اهتمامه الرئيس لهذه القصائد السبع، ثم إنه لِما يتميز به من حدة في الذكاء، وقوة في الذاكرة، ذهب يسعى، وهو يشق طريقاً غير مألوفة من قبل عند غيره، فيخرج عن المعتاد والمتعارف عليه في رواية شعر شاعر معين أو حي معين، إلى انتقاء أشعار متميزة من ذلك النوع، أو من النوع الذي يجد رغبة في حفظه، إما بدافع الذوق، وإما بدافع المصلحة.

أما عن ممارسته هو شخصياً الكتابة، فإن عدم تدوين القصائد السبع، لا يمنع أنه كان يكتب، أو يكتب بعض الشعر، وإن كنا نميل إلى أنه كان يستغني عن عناء الكتابة بسهولة إيداع الشعر في ذاكرته، حتى إن عبارة مثل: «أكتبني» التي نصادفها فيما سيأتي، كان الهدف منها هو الرواية، فمن ذلك أنه سأل الفرزدق قائلاً:

«أكتبني بعض شعرك!»، فقال له الفرزدق: «أتريد أن تكتب...؟»[1]. وفي طلب مماثل يقول للكميت:

«أكتبني شعرك!»[2].

---

(١) طبقات، ص ٤٠.

(٢) البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٤، ص ٧١.

(٣) المرزباني، الموشح، ص ١٧٨.

وفي الخبر الذي أورده أبو الفرج عن إرسال الوليد بن يزيد إلى حماد يستقدمه، ما يثبت معرفته القراءة، يقول حماد:

«أرسل الوليد بن يزيد إليَّ. . .، فقلت: لا يسألني إلا عن طرفيه: قريش وثقيف، فنظرت في كتابَي قريش وثقيف، فلما قدمت عليه، سألني عن أشعار بَلي»[1].

بقي هل ترك حماد كتاباً؟ إذ إن ابن النديم يقول:

«لم نر لحماد كتاباً، وإنما روى عنه الناس، وصنفت الكتب بعده»[2]. بل إنه يؤكد أنه راوية فقط، فيقول:

«كان راوية للأخبار والأشعار والأنساب»[3].

وهكذا كان حماد، معروفاً بـ «**الراوية**»، حتى إنه نفسه كان قد اتخذ له راوية يروي عنه فـ «**الهيثم بن عدي كان صاحبه**، وراويته، وأعلم الناس به»[4]. أما ما يُرَشح لمعنى سؤاله الفرزدق والكميت أن يكتب شعرهما، بمعنى يرويه، فهو أنه يقول في مناسبة أخرى في لقائه بالفرزدق: «فَأَنْشَدَني»[5]. غير أنه في مقابل ذلك، توجد إشارات تغاير هذا الرأي، فثعلب يقول في شرحه لشعر زهير عن قصيدة له:

«لم يروها المفضل من كتاب حماد، وقرئت على أبي عمرو»[6].

---

(١) الأغاني، جـ٦، ص ٨٩.
(٢) الفهرست، ص ١٠٤. وفي مخطوطة أخرى: «ولم ير لحماد كتاباً»، وهذا أعمق تأكيداً على عدم تركه كتاباً.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) الأغاني، جـ٦، ص ٦٨.
(٥) المصدر نفسه، جـ٨، ص ٣٥.
(٦) ص ٢٢٩.

ويقول هشام بن محمد الكلبي عن أبيات لعامر بن الطفيل:

«أصبتها في كتاب حماد الراوية»[1].

وينبني على هذا اتجاهان: الاتجاه الأول، أن العلماء الأوائل: هشام ابن محمد الكلبي (ت ٢٠٦ هـ)، وأبا عمرو الشيباني (ت ٢١٣ هـ)، كانا قد رأيا كتاباً لحماد. أما الاتجاه الثاني، فهو أن ابن النديم، لم تصل إليه نسخة من ذلك الكتاب، الذي فُقِد قبل هذا، لأن أبا العباس ثعلب (ت ٢٩١ هـ)، لم يشر إلى أنه اطلع عليه، مع أنه اعتمد في روايته شعر زهير على مروياته إلى جانب مرويات غيره.

وتشير كل الدلائل إلى أنه حقاً ترك كتاباً، إلا أن ذلك الكتاب لم يكن من تدوينه شخصياً، وإنما كان إملاءات أملاها على تلاميذه وطالبي العلم على يديه، فكان يقعد للطلاب، ويملي من محفوظه وذاكرته، وتبين الروايات التالية هذه الحقيقة، فيونس بن حبيب (ت ١٨٢ هـ)، يقول:

«يا عجباً للناس، كيف يكتبون عن حماد»[2].

وهذا القول يثبت أن جمعاً غفيراً من الناس كانوا يرتادون حلقته، فيستمعون إليه، ويدونون مسموعاتهم منه في شوق وتلهف، مما أثار عجب يونس لهذا الإقبال عليه، وقد كان حماد نفسه يحرص في هذه المرحلة من حياته على التدوين، حتى إنه يأمر الحضور لديه أن يكتبوا قصيدة مختلفاً عليها، لطرفة، فيقول:

«اكتبوها»[3].

---

(١) ابن الأنباري، شرح المفضليات، ص ٣٣.

(٢) الجاحظ، رسائل الجاحظ، «كتاب البغال»، ص ٢٢٦.

(٣) أبو الطيب اللغوي، مراتب النحويين، ص ٧٢.

وفي مناسبة أخرى أمر أحد تلامذته أن يكتب نادرة استلطفها، فيقول:
«اكتب هذا الخبر عن الشيخ»[1].

وعلى هذا، فإن الأدلة تشير إلى أنه ترك كتاباً من إملاءاته بين يدي تلاميذه، وقد كان هذا الكتاب موجوداً حتى منتصف القرن الثالث الهجري؛ لأن أبا حاتم السجستاني (ت ٢٥٥ هـ)، نص على بعض زياداته، ثم إن هذا الكتاب فُقِد فيما فُقِد من كتب التراث، فلما جاء ابن النديم، لم يجد نسخة من هذا الكتاب، ولعل قوله: **«ثم صنفت الكتب بعده»**، ما يشير إلى هذه الناحية في حماد، أي إنه لم يكتب كتاباً بيده، وإنما كتبه غيره، خاصة أن له تلميذاً راوية مشهوراً، هو الهيثم بن عدي (١٣٠ هـ/ ٧٤٧ م ـ ٢٠٧ هـ/ ٨٢٢ م) كما مر. ولقد كان هذا دأب كثير من العلماء، فالمفضليات على شهرتها، لم تجمع في عهد صاحبها، وإنما جمعها ابن الأنباري بعد زمن من وفاة المفضل[2]. ولعل ابن النديم عندما قال: **«لم نر لحماد كتاباً...»** ثم عقب على هذا بقوله: **«وإنما صنفت الكتب بعده»**، كان دقيقاً في استعماله للعبارات، فالعبارة الأولى تعني أنه لم يجد كتاباً كتبه حماد بنفسه، والعبارة الثانية تعني أن ما نسب إليه، فحمل اسمه، لم يكن من صنعه، وإنما من صنيع من جاء بعده. ولو كان الكتاب موجوداً في القرن الرابع الهجري، لَنَقل منه ابن الأنباري (ت ٣٢٨ هـ)، قبل ابن النديم (ت ٣٨٥ هـ)، بدلاً من أن يعتمد مرويات هشام ابن الكلبي، الذي كان قد نقل من ذلك الكتاب رواية مخالفة لروايته في أبيات عامر بن الطفيل.

وسواء أكانت الأبيات التي تنسب تارة إلى ابن كناسة، أبي يحيىٰ

---

(١) الأغاني، جـ ٦، ص ٧٩.

(٢) انظر، الأسد، مصادر، ص ص ٥٧٣ ـ ٥٧٤.

محمد، عبد الأعلى بن عبد الله بن خليفة بن نَضلة بن أُنَيف، أو إلى رجل من بني أسد، في رثاء حماد أم في رثاء غيره، فإنها تكشف عن هذا الجانب من شخصيته، آلا وهو التوجه نحو العلم، خاصة في تعبيره: «**يفنى العلم فيه ويدرس الأثر**»، يقول:

لَوْ كَانَ يُنْجِي مِنَ الرَّدَى حَذَرٌ ... نَجَّاكَ مِمَّا أَصَابَكَ الحَذَرُ

يَرْحَمُكَ ٱللَّهُ مِنْ أَخِي ثِقَةٍ ... لَمْ يَكُ فِي صَفْوِ وُدِّهِ كَدَرُ

فَهٰكَذَا يَفْسُدُ الزَّمَانُ وَيَفْـ ... ـنَى العِلْمُ فِيهِ وَيَدْرُسُ الأَثَرُ(1)

---

(1) ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ٢، ص ٢١٠.
وقال الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ٢٥٧.
«وقال بعض الشعراء في بعض العلماء». وربما ترجحت رواية الأبيات في حماد حسب معنى الجاحظ «في بعض العلماء»، إذا أخذنا برواية ابن النديم: الذي أورد الأبيات وقال: «رثاه محمد بن كنارسة»، ص ١٠٤، وفي المرزوقي، الحماسة، جـ ٣، ص ص ١٠٥٧ ـ ١٠٥٨، قبل البيت الأول:
أَبْعَدْتَ مِنْ يَوْمِكَ الفِرَارَ فَمَا ... جَاوَزْتَ حَيْثُ انْتَهَى بِكَ القَدَرُ
ونسب الأبيات إلى «رجل من بني أسد» يرثي أخاه.

الباب الثالث:



الشعر الجاهلي:

قال حماد إنه يستطيع تمييز أشعار العصور الأدبية المختلفة، واستخدم مصطلحين في غاية الأهمية والدلالة، وهما: قديم ومحدث. ويعني المصطلح قديم، الشعر الجاهلي وشعر صدر الإسلام بصفة عامة، أما المحدث، فيعني شعر الأخطل والفرزدق وجرير. وهذه ليست وجهة نظر حماد وحده، بل وجهة نظر علماء آخرين، حتى إن الأصمعي يقول:

«جرير والفرزدق والأخطل... هؤلاء لو كانوا في الجاهلية، كان لهم شأن، ولا أقول فيهم شيئاً، لأنهم إسلاميون»[1].

بل إن أبا عمرو بن العلاء يقول:

«لو أدرك الأخطل من الجاهلية يوماً واحداً، ما قدمت عليه جاهلياً ولا إسلامياً»[2].

وهو قول يكشف عن إعجابه بشعر الأخطل.

بل تبلغ العصبية بأبي عمرو، معاصر حماد، إلى أنه لا يحتج ببيت إسلامي، قط، يقول الأصمعي عنه:

---

(١) فحولة الشعراء، ص ١٢.
(٢) المصدر نفسه، ص ١٣.

«جلست إلى أبي عمرو عشر حجج، ما سمعته يحتج ببيت إسلامي»[1].

وسوف نرى أن حماداً كان يروي شعر عدي بن زيد، مع أن الأصمعي يقول:

«عدي بن زيد وأبو دؤاد الإيادي، لا تروي العرب أشعارهما، لأن ألفاظهما ليست بنجدية»[2].

فقد وسع حماد دائرة روايته لتشمل كل هؤلاء وكان يتعاطف معهم، بل كان يلح على شعراء العصر الأموي لروايته أشعارهم، كما هي الحال مع الفرزدق[3] والكميت[4].

ولا شك أن رحابة الصدر هذه، كانت إحدى توجهاته، بدلاً من الانغلاق على الماضي والتقوقع فيه، ولا شك أيضاً أن هذا الاتساع في الرواية، أمده بقدرة نقدية، تشحذ لديه حاسة التذوق بحيث أصبح متمكناً من تحسس اللمسات الفنية عند عدد كبير من فحول شعراء هذه العصور. ولعله بهذا، لم يكن ليقع في مزالق مثل تلك المزالق التي وقع فيها غيره جراء الانغلاق والتقوقع، أو التنافر الشخصي، فهذا أبو رياش القيسي، كان معروفاً بالتحامل على شعراء عصره، خاصة أبا تمام والبحتري، حتى إن نسخ ديوانيهما قلت بالبصرة في وقته لقلة الرغبة فيهما[5].

وهذا الأصمعي يبدي إعجابه ببيتين ينشدهما إسحاق الموصلي بقوله:

---

(١) الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ٣٢١.

(٢) المرزباني، الموشح، ص ٦٦.

(٣) البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٤، ص ٧١.

(٤) المرزباني، الموشح، ص ١٧٨.

(٥) القاضي الجرجاني، الوساطة، ص ٥١.

«والله هذا الديباج الخسرواني»، فلما تبين أنهما لإسحاق قال: «لا جرم والله، إن أثر التكلف فيهما ظاهر»[1].

أما أحكامه النقدية على الشعر، فهي أحكام لا بد أنها كانت متأثرة بالوسط الثقافي الذي نشأ فيه، وسبق إليه غيره. فإذا كنا ما زلنا متفقين على أنه ممن تقدمت سنين ميلاده، فسنتفق أيضاً على أن اقترابه من مجالات النقد السابق عليه، كانت جد قوية، أي إنه من المفترض ألا يطرح حماد طروحات نقدية ذات عمق وتفصيل، أو أن يلزم نفسه بمتابعة العناصر الفنية عند الشعراء، فمهمته الرئيسة كانت الرواية، وإحساسه كان هو الذي يقوده إلى إبداء ملاحظاته الفنية عن الشعراء، وهذا واضح من بعض ما تبقى لدينا من أحكامه، ومنها قوله:

«أشعر الناس عمرو بن قميئة لقوله:

رَمَتْنِي صُرُوفُ الدَّهْرِ مِنْ حَيْثُ لَا أَدْرِي ... فَمَا بَالُ مَنْ يُرْمَى وَلَيْسَ بِرَامِ

فَلَوْ أَنَّهَا نَبْلٌ إِذاً لَا تَّقَيْتُهَا ... وَلٰكِنَّنِي أُرْمَى بِغَيْرِ سِهَامِ[2]

وعبارة «أشعر الناس»، عبارة نقدية قديمة يتداولها أصحاب الذوق. ولو تأملنا في هذا الحكم، لنلتمس دافعه إلى هذا، لأمكن تصور انطلاقه في حكمه من موقف تصويري يبعثه هذان البيتان، فصروف الدهر ترمي كما يرمي الإنسان، وهو ما يعرف بالاستعارة المكنية، غير أن مادة الرمي مجهولة، غير معروفة من ضمن الآلات، ولكنه أضاف إلى أن المرمي عاجز عن الدفاع عن نفسه كل العجز، مع قدرته على صد النبال أو السهام الحقيقية، وهذا ما يعطي التشخيص بعداً نفسياً تأثيرياً قوياً. لقد أدرك حماد

(١) المصدر نفسه، ص ٥٠.

(٢) ابن سعيد، نشوة العرب، جـ ٢، ص ٦٢٦. وانظر الأغاني، جـ١٨، ص ٧٩.

قيمة الصورة، وعبر عن جمالها هذا التعبير المتداول، ولكنه في الحقيقة كان يستبطنها.

ومن هذه الأحكام، قوله عن امرىء القيس:

«امرؤ القيس، أحسن الجاهلية تشبيهاً»[1].

ونلاحظ فكرة التعميم، كما هي الحال عند غيره من العلماء، **«أشعر»**، **«أحسن»**، وهنا نجد أنه متفق مع أراء غيره ممن يقول مثل مقولته، وممن لاحظ بروز عنصر التشبيه عند امرىء القيس[2]. ونجد الرأي نفسه، وهو يقول مجيباً على سؤال عنه:

«ما أقول؟ مبتدىء بإحسان، والناس بعده له تَبَع لا يَلحقونه»[3].

وهو رأي شاركه فيه آخرون كذلك[4].

وهو يجيب عن سؤال وجه إليه حول سبب تفضيل النابغة، فيقول:

«إن النابغة إن تمثلت ببيت من شعره، اكتفيت به، مثل قوله:

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيبَةً ... وَلَيْسَ وَرَاءَ ٱللَّهِ لِلْمَرْءِ مَذْهَبُ

بل لو تمثلت بنصف بيت من شعره، اكتفيت به، وهو قوله:

وليس وراء الله للمرء مذهب.

بل لو تمثلت بربع بيت من شعره اكتفيت به، وهو قوله:

أيُّ الرِّجَالِ المُهَذَّبُ»[5].

---

(١) البغدادي، الخزانة، جـ ١، ص ١٩٦.
(٢) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، جـ ١، ص ١١٠.
(٣) المرزباني نور القبس، ص ٢٦٩.
(٤) الأغاني، جـ ١٧، ص ٣١٥.
(٥) ابن رشيق، العمدة، جـ ١، ص ٢٨٢. وانظر الخبر في الأغاني، جـ ١١، =

فهذا الحكم لا يتوجه إلى العناصر الفنية من استعارة وتشبيه، وإنما يتوجه إلى العناصر الصياغية، فأي بيت من شعر النابغة، لا يختلف في تركيبه عن أي جزء فيه إحكاماً وتماسكاً، بحيث تؤدي العبارات معناها مجتزأة أو متتابعة. وهو يقدّم على ذلك شاهداً من شعره. وهذه الملاحظة الصياغية، ملاحظة ذات قيمة كبيرة، لأنها ترشّح لما درج عليه النقاد بعد ذلك من إدخال النابغة ضمن عبيد الشعر[1]، حتى إنه ليقول عنه، وقد سئل عنه أيضاً:

«ذاك كاتب الشعراء، أحسنهم نمطاً، وأحضرهم احتجاجاً»[2].

وهذا المعيار النقدي، الذي شاع عما يسمى بمدرسة الصنعة، أو على حد تعبير الجاحظ: **«عبيد الشعر»**[3] ظاهر في حكمه على شعر زهير:

«ذاك حكيم العرب، أشدهم أسر كلام ومبالغة في مَدْح»[4].

ومن الملاحظ أن حماداً سبق غيره إلى هذه الالتفاته، وإن لم يذهب مذهبهم في القول بفكرة **«عبيد الشعر»**[5].

ومع ذلك، فإن هذا إنما يكشف عن أن حماداً كان ذا ذائقة خاصة، ورؤية متميزة، وهو أمر يؤكد عمق صلته بالتراث، إلا أن هذه الأحكام - كما هو ملحوظ - أحكام عابرة، وإن كانت دقيقة صائبة، نابعة من الشعر نفسه. أما الأحكام التي كانت صدى لنفسه، وترجيعاً لتجاربه في الحياة،

= ص ص ٧ - ٨. وانظر لقائه مع الجني، وأحكاماً أخرى لهما، المرزباني، نور القبس، ص ص ٢٧٠ - ٢٧١.

(١) ابن رشيق، العمدة، جـ ١، ص ١٣٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٨١، وانظر: المرزباني، نور القبس، ٢٧٠.

(٣) البيان والتبيين، جـ ١، ص ٢٠٦.

(٤) المرزباني، نور القبس، ص ٢٧٠.

(٥) الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ص ٢٠٤ - ٢٠٦.

فهي صلته بشعر الأعشى، الذي ارتبط به ارتباط تواشج ومحبة، فقال، وقد سئل عنه:

«ذاك أجمعهم للمعاني، وأكثرهم شعراً وفنوناً»[1].

وإذا كان هذا الحكم، في الواقع، حكماً مشابهاً لتلك الأحكام التي عرضت لنا سابقاً، فهو يبدي ملاحظات قيمة تختص بالنوع والكم معاً: التقاط المعاني، وكثرة الشعر، والتنوع، في الأغراض الشعرية. ولهذه الخصائص الفنية والموضوعية، كان يقول عن الأعشى:

«ما أقيس به أحداً»[2].

وهو يتفق في رؤيته لشعر الأعشى مع ما أشيع عنه من أنه **«صناجة العرب»**، فها هو يعيد علينا ذلك الحكم العام عن **«أشعر الناس»**، فيجيب من يسأله عن ذلك قائلاً:

«صناجة العرب... سمي به لقوله:

وَمُسْتَجِيبٍ تَخَالُ الصَّنْجَ تَسْمَعُهُ إِذَا تَرَجَّعَ فِيهِ القَيْنَةُ الفُضُلُ[3]

بل يكرر الموقف النقدي من شعر الأعشى، فيجيب سائلاً آخر عن **«أشعر العرب»**، فيقول: الذي يقول:

نَازَعْتُهُمْ قُضُبَ الرَّيْحَانِ مُتَّكِئاً وَقَهْوَةً مُزَّةً رَاوُوقُهَا خَضِلُ[4]

ويظل حماد متمسكاً بهذا الرأي عن الأعشى، ومصراً على الموقف

---

(١) المرزباني، نور القبس، ص ٢٧٠.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٦٩. والبيت في ديوان الأعشى، ص ٥٩. من قصيدته المعلقة:

وَدِّعْ هُرَيْرَةَ إِنَّ الرَّكْبَ مُرْتَحِلُ وَهَلْ تُطِيقُ وَدَاعاً أَيُّهَا الرَّجُلُ

(٤) الأغاني، جـ ٩، ص ١٠٩، والبيت للأعشى في ديوانه، ص ٥٩ من قصيدته المعلقة.

منه، حتى حينما يبعث إليه المنصور يسأله عن «**أشعر الناس**»، فيقول في صراحة ووضوح:

«**نعم ذلك الأعشى، صناجتها**»[1].

لقد تمسك حماد بموقفه من الأعشى، وكرره في أكثر من مناسبة، مما يعني وجود علاقة نفسية وفكرية حميمة به. فالأعشى يتميز عن غيره من الشعراء بهذا التنوع، وهذه الموسيقى التي تشيع في شعره، ثم إنه كان ممن يحرص على المعنى، مثلما يحرص الشعراء والفحول الآخرون، ولكنه كان يعمد إلى تراكم المعاني حسبما يقول: «**أجمعهم للمعاني**». ومن ناحية أخرى، فالأعشى كان رائد الخمرة في عصره[2]، وحماد كان مولعاً بالنبيذ مغرماً به. ويمكن أن نضيف إلى ذلك، أن الأعشى كان يصور الحياة الحضرية التي عاشتها الحيرة في كشف ووضوح، وهي الحياة التي كانت تنعكس بعض مظاهرها على الكوفة مدينته، والتي تعد امتداداً حضارياً للحيرة القريبة منها.

ويضاف إلى هذا الإعجاب باتجاه الأعشى إلى الحديث عن الخمرة، ذلك الإعجاب به في حديثه عن المرأة، فالأعشى يقول:

كَفَى بِالَّذِي تُولِينَهُ لَوْ تَجَنَّبَا ... شِفَاءً لِسُقْمٍ بَعْدَمَا كَانَ أَشْيَبَا

وَلٰكِنَّمَا كَانَتْ تَوَابِعُ حُبِّهَا ... تَوَالِيَ رِبْعِيِّ السِّقَابِ فَأَصْحَبَا

فَتَمَّ عَلَى مَعْشُوقَةٍ لاَ يَزِيدُهَا ... إِلَيْهِ بَلاَءُ السَّوْءِ إِلاَّ تَحَبُّبَا

«**وكان حماد الراوية يتعجب من قوله: «فتم على معشوقة»، ويقول: هذا ـ والله ـ غاية العشق ونهاية الإحسان في النسيب**»[3].

---

(١) العباسي، معاهد التنصيص، جـ ١، ص ١٩٧.

(٢) انظر عن الأعشى: الجوزو، صناجة العرب.

(٣) الآمدي الموازنة، جـ ٢، ص ١٢٥. وروايته الديوان، ص ١١٣:

كفي بالذي تولينه لو تجنبا ... شفاء لسقم بعدما عاد أشيبا =

إن تعليقه المقسم عليه: «**هذا والله غاية العشق ونهاية الإحسان في النسيب**»، تعليق، يعود بنا إلى تلك الأراء التي كانت تصدر منه عند التأثر المباشر بالجمال، دون الدخول في التفصيل، أو بيان الأوجه الجمالية في الشيء. ولعله نظر إلى مجمل الأبيات وما تنقله من معان، حتى انتهت إلى هذه النتيجة، فالأبيات تقول:

إن ما تولينه إياه من الهجر والصدود والإيذاء، لحقيق بأن يُزَهِّدَه فيك ويبرئه من حبك ـ لو أنه يستطيع تجنبا ـ وقد علاه الشيب. ويشبِّه حبها وقد وُلد في قلبه صغيراً بولد الناقة، لم يزل يشب وينمو حتى أصبح فحلاً صاحب أبناء كبار. كذلك ملكت عليه أمره، وثبت هو على حبها، لا يزيده ما يكابده فيها من الشوق إلا إمعاناً في الود والتقرب.

وتؤكد جميع آرائه السابقة اعتماده على الذوق دون إبداء التفاصيل وتحديد وجهات النظر، مما يعبر عن مرحلة نقدية أولية لها الطوابع نفسها، ويتضح هذا فيما رواه الراغب عنه:

«قال حماد الراوية: أفضل بيت من الشعر قيل في الأمثال:

يَقُولُونَ يَسْتَغْنِي وَوَاللَّهِ مَا الغِنَى   مِنَ المَالِ إلاَّ مَا يُعِفُّ وَمَا يَكْفِي»[1]

= علـى أنهـا كـانـت تـأول حبهـا   تـأول ربعـي السقـاب فـأصحبـا

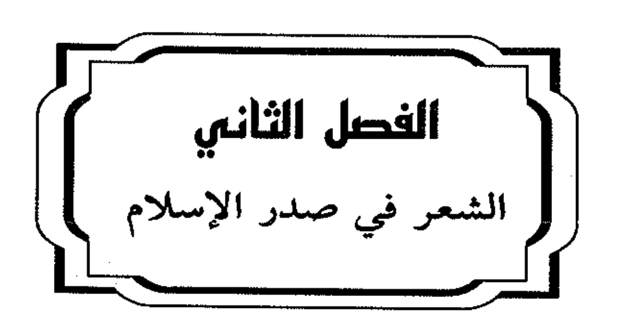
فتـم علـى معشـوقـة لا يـزيـدهـا   إليـه بـلاء الشـوق إلا تحببـا

أولاه المعروف: صنعه، له، ويقصد ما توليني من الهجر والجفاء. تأول الكلام: دبره وقدره وفسره. الربعي: ولد الناقة في الربيع، أول الإنتاج. السقاب: جمع سقب، وهو ولد الناقة ساعة يولد. أصحبا: أصحب الرجل، إذا بلغ ابنه فصار مثله، وصار له كالصاحب، أي إن حبها كان صغيراً ثم كبر ونما.

تم: تمَّ على أمره، مضى عليه.

(١) بهجة المجالس، جـ١، ص ٢٠٧.

وهكذا نجد أن هذه الأحكام اليسيرة، تعبر عن تعلق شديد بالشعر الجاهلي، وعن فهم عميق لأفكاره ومعانيه واتجاهاته، بحيث نجد أن حماداً كان يتصل بالتراث اتصال محبة وقربى ومعرفة، ولم يكن مجرد راوية، اتخذ الرواية حرفة، بل راوية جمع بين المنفعة المادية والمتعة النفسية.



الفصل الثاني
الشعر في صدر الإسلام

يُعَد شاعر الرسول ﷺ، حسان بن ثابت أشهر شاعر في صدر الإسلام. وليس لدينا عن حماد رأي واضح فيه، أو في غيره من شعراء هذا العصر: وفي العقد الفريد، أن الأصمعي قال:

«سمعت حماداً الراوية، وأنشده رجل بيت حسان:

يُغْشَّوْنَ حَتَّى مَا تَهِرُّ كِلَابُهُمْ   لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ المُقْبِلِ

فقال: «ما يُعرف هذا إلا في كلاب الحانات»[1].

فهل غابت عن حماد هذه الصورة الشعرية التي يتعاورها الشعراء عن إقبال الضيف ليلاً، ونباح الكلاب، تهيئة بمقدمه؟ أم أنه هو نفسه كان غير معجب بشعر حسان، أم أن طريقة إنشاد الرجل هي التي أثارته؟ إن الجواب على هذا غير واضح، ولعل جوابه الآخر على مثل هذا الإنشاد، يلغي الاحتمالين الأولين، ويرجح الاحتمال الأخير، فقد قال لمن أنشده بعض شعر لشاعر آخر، وفي رواية الأصمعي نفسها:

لِمَنْ مَنْزِلٌ بَيْنَ المَذَانِبِ وَالجَسْرِ.

«ما يَعرف هذا إلا دار الماسيديين»[2].

(١) جـ ٥، ص ٣٣٠.

(٢) المصدر نفسه.

وهناك دعم آخر لهذا الترجيح، فقد علق عندما سمع مغنية تغني:

عاد قلبي من الطويلة عاد.

قائلاً:

«وثمود، فإن الله عز وجل لم يفرق بينهما. وذلك لأن أصل الشعر، هو:

عاد قلبي من الطويلة عيد»[1].

ومهما تكن الاحتمالات، فليس لتعليقه على بيت حسان علاقة بالنقد الفني، وإنما له علاقة بالانطباع الشخصي والعلاقة الشرطية بين الصورتين.

أما عدم روايته لشعر كعب بن مالك، أو لشعر عبد الله بن رواحة، أو حتى لشعر حسان، أو أي شعر إسلامي، فإنه يقع في نطاق التربية الفكرية والثقافية التي تأسس في نطاقها حماد؛ ذلك أن مقياسه دوماً هو الشعر الجاهلي، فإذا ما خرج أيُّ شعر عن هذا المقياس، انصرف عن روايته، وهذا ليس جديداً في النقد القديم، فقد لاحظ الأصمعي ذلك عندما قال مقولته الشهيرة:

«الشعر نكد بابه الشر، فإذا دخل في الخير ضعف، هذا حسان بن ثابت فحل من فحول الجاهلية، فلما جاء الإسلام سقط شعره»[2].

---

(١) الأصفهاني، الأغاني، جـ٦، ، ص ص ٨٠ ـ ٨١. العيد: ما يعتاد من نوب وشوق وهم.
وتمام البيت:

واعتراني من حبها تسهيد

انظر: ابن الأنباري، شرح القصائد السبع، ص ٢١١.

(٢) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، جـ١، ص ٣٠٥.

وتؤكد هذه النتيجة أنه كان يروي شعر الحطيئة، فقد روى قصيدة الحطيئة في أبي موسى الأشعري، في خلافة عمر رضي الله عنه ـ كما سنناقش هذا بعد حين ـ ولعل روايته لشعر الحطيئة تدخل في ضمن الإطار الجاهلي الذي التزم به الحطيئة.



الفصل الثالث

الشعر الأموي

عمر بن أبي ربيعة والأحوص:

توثقت علاقة حماد بالشعر الجاهلي توثيقاً شديداً، ولم نجد له آراء بينة عن شعر حسان ولا عن شعر سواه من المخضرمين الذين لم يدركوا العصر الأموي، بل لم نجد له رأياً حتى عن الشعراء المخضرمين الذين أدركوا العصر الأموي، وفيهم تميم بن مقبل، الذي كان حماد يروي شعره، كما ذكرنا من قبل في استنشاده مروان بن أبي حفصة. أما في العصر الأموي، فإنه كان أكثر وضوحاً، وأبرز ظهوراً، فقد سئل عن شعر عمر بن أبي ربيعة، فقال:

«ذلك الفستق المقشر الذي لا يشبع منه»[1].

وهذا الحكم، لا يخرج في طبيعته عن الأحكام القديمة، والجديد فيه هذا التشبيه بالفستق المقشر الذي لا يشبع منه، فلم يتناول حماد في عباراتٍ بيِّنةِ الصياغةَ، أو الخيال، أو التركيب، وإنما لجأ إلى التشبيه، ويدل هذا التشبيه على أنه لذيذ ممتع سار للنفوس، محبب إلى القلوب،

---

(١) ابن عبد ربه، العقد جـ ٥، ص ٢٧١.

وبه معان تشتمل على الصياغة، وعلى الخيال، وعلى التركيب، وهي ملاحظات أكدتها وجهات النظر القديمة[1].

ومن آرائه المقتطفة السريعة في شعر الغزل، أنه كان يقدم الأحوص في النسيب[2]، أما كيف كان يقدمه، وعلى أية أسس كان هذا التقديم، فإن الجواب عن ذلك غير جلي أيضاً، ولعله كان يقدمه لما يتميز به نسيب الأحوص من رقة في العبارة، وصراحة في التعبير، وإضافة إلى ذلك فإن عمر بن أبي ربيعة والأحوص، كانا امتداداً للتعبير في الجاهلية، ميدانه المتخصص فيه، ومن هنا رأيناه يروي بعض شعر ابن أبي ربيعة[3] وسنراه يتعصب له.

(١) انظر الأغاني، جـ ١، ص ١٢٤.
(٢) ابن سلام، طبقات...، ص ٥٤٣.
(٣) الأغاني، جـ ١، ص ١٣٨.

الفصل الرابع
الأخطل والفرزدق وجرير

أ ـ الأخطل:

تبينا مقدار تعلق حماد بالشعر الجاهلي وشعر الأعشى خاصة، ثم تكشف لنا أنه يميل إلى شعر الغزل، كما يمثله عمر بن أبي ربيعة والأحوص، في العصر الأموي، ولا بد لكل مهتم بالأدب في هذا العصر، أن يقف موقفاً صريحاً من شعرائه المشاهير الثلاثة: الأخطل والفرزدق وجرير. وموقف حماد من الأخطل واضح صريح، فهو يجيب من سأله عن الأخطل قائلاً:

«ذاك شاعر قد حبب شعره إليّ النصرانية»[6].

وبالتأكيد، فإن حماداً لم يعن نصرانية الأخطل، لأن شعر الأخطل ليس في النصرانية، فهو شعر خالٍ منها[1]، وإنما كان الأخطل متأثراً في منهجه الخمري بشعر الأعشى[3]، شاعر حماد الأول، أي شاعر الخمرة والحانة، من الناحية الموضوعية، إلى جانب تنوع الأغراض عند الأخطل أيضاً، وجمال العبارة وإشراقها وتماسكها: «**جمع المعاني**»، من الناحية

(١) المرزباني، نور القبس، ص ٢٧٠.
(٢) انظر، حاوي، الأخطل، ص ٢٩.
(٣) حسين، أساليب الصناعة، ص ص ١٦، ١٨ ـ ٣٠.

الفنية، أو على أقل تقدير، كان الأخطل أقرب شعراء عصره إلى المنهج الجاهلي. ولقد أدرك الصولي الناحية الأولى في حكمه، فقال تعليقاً عليه، مستبعداً أية صلة له بالتقرب إلى النصرانية:

«هذا... مزح من حماد، وفرط شغف بشعر الأخطل، ولو تأول الناس عليه... لكان ما قال قبيحاً»[1].

ثم لو أخذنا تلك المقولة على أنها حقيقة، لخرج حماد من ملة الإسلام، وهذا غير صحيح، لأنه عبر عن نقيض ذلك في موضع آخر فقال:

لو مات الأخطل مسلماً، لشهدت له بالجنة بقوله:

وَإِذَا افْتَقَرْتَ إِلَى الذَّخَائِرِ لَمْ تَجِدْ ... ذُخْراً يَكُونُ كَصَالِحِ الأَعْمَالِ[2]

وهذا المبدأ الذي عرضه عن الأخطل، مبدأ إسلامي صريح، ومن المبادىء التي دعا إليها الإسلام، وحماد يربط ذلك بالإسلام والجنة، مما يعكس رأيه هو في شخصية الأخطل من الناحية الدينية، وليس من الناحية الفنية. فالأخطل من الناحية الموضوعية (الخمرة)، أشعر الثلاثة، وهذا ما صرح به علنا للفرزدق، حين اعترض عليه في تقديمه الأخطل عليه، فقال له:

«لو فضلته بالفسق، لفضلتك»[3].

والواقع أن الخمرة، وإن كانت قاسماً مشتركاً بين الأعشى والأخطل، فليست هي وحدها التي حببت إليه شعره، ففي شعر معاصريه إشادة بالخمرة، من أمثال الأقيشر[4]، وقد روى شعراً لمعاصريه من أمثال عمار

---

(١) أخبار أبي تمام، ص ٤٧١.
(٢) المرزباني، نور القبس، ص ٢٧٠.
(٣) الأغاني، جـ ٨، ص ٢٨٦.
(٤) المصدر نفسه، جـ ١١، ص ٢٣٧.

ذي كناز، ولكنه كان يرويه لأنه كان كثير العبث به[1]. أما شغفه بشعر الأخطل ذلك الشغف، فيعود إلى أن الأخطل هو الشاعر الذي يعد امتداداً مباشراً للشعر الجاهلي، فهو صدى للنابغة، وهو صدى لزهير، وهو صدى آخر للأعشى، وهو متمسك بالأعراف الجاهلية حتى غلب التقليد على شعره، فكانت صوره وأخيلته، ولغته، ذاتَ الصور والأخيلة واللغة الجاهلية، لولا أنها تكشف عن روح الشاعر وشخصيته.

ب ــ الفرزدق وجرير:

يبدو أن موقفه من الفرزدق وجرير، كان موقفاً وسطاً، فها هو يقول للفرزدق، وقد سأله الحكم بينه وبين جرير، أيهما أشعر:

«هو أشعر إذا أرخى من خناقه»[2].

وهذه الأحكام، هي تلك التي عرفها النقاد عنهما[3]، بحيث يمكن أن تعد هذه اللفتات منه لفتات نقدية أصيلة، تدل على إدراك وحس ومعرفة. وعلينا أن نتنبه إلى صلابة الرأي الذي يبديه حماد في مواجهة رجل عرف بترفعه على الموالي، وإعتداده بنفسه، حتى إن الناقد لا يأمن شر هجائه، فحماد لا يتردد في إصدار الحكم، مهما تكن عواقبه؛ أيقول له الفرزدق له عندما يفضل الأخطل عليه:

«إنما تفضْله لأنه فاسق مثلك»[4]، فيجيبه حماد دون خشية: **«لو فضلته بالفسق لفضلتك»**، أم يرضى الفرزدق عن حكمه: فيقبل تعليل حماد لتفوقه في بعض الحالات، فيقول:

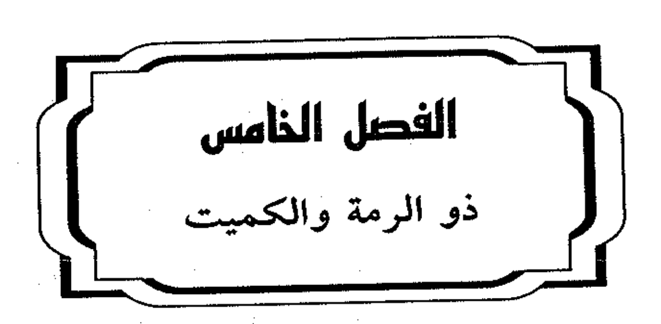
---

(١) المصدر نفسه، جـ ١١، ص ص ٢٣٦ ـ ٢٥٧.
(٢) الأغاني، جـ ٨، ص ٣٥.
(٣) انظر، الفمّام، الفرزدق، ص ص ٣١٥ ـ ٣٢٨.
(٤) الأغاني، جـ ٨، ص ٢٨٦.

«وهل الشعر إلا في الخوف والرجاء وعند الخير والشر»[1]

ومن العجب بعد ذلك أن يزعم عثمان موافي: «أن حماداً كان يستقبح شعر بعض الفحول الإسلاميين كجرير[2]؛ فليس في آثار حماد مثل هذا الزعم، وإنما كان موقفه موقف تقدير واحترام كما رأينا. وكيف يستقبح شعره، وهو يحفظه كله[3]، ولعل فيما قدمنا من موقف حماد من الشعر الإسلامي، وما سنجده بعد حين ما يدحض مقولة موافي الأخرى من أن حماداً كان ينفر من الشعر المحدث ويهجنه[4].

(١) المصدر نفسه، جـ٨، ص ٣٥.
(٢) الخصومة بين القدماء والمحدثين، ص ١٢.
(٣) الأغاني، جـ٦، ص ٧٨.
(٤) الخصومة بين القدماء والمحدثين، ص ١٢.



الفصل الخامس

ذو الرمة والكميت

١ ــ ذو الرمة:

ولئن كانت أحكامه في الأخطل والفرزدق وجرير ـ ذلك الثلاثي الذي شغل الأدب ردحاً من الزمن ـ أحكاماً عامة قد تصدر عنه أو عن غيره، فإن موقفه من ذي الرمة ـ ذلك الشاب الذي غَض منه، كما يقول الفرزدق، وصفه لأبعار الإبل[1]، مع أنه كان منصرفاً إلى فنه ومنكباً عليه، يعطيه من حواسه وقريحته كل جهد وإخلاص[2] ـ موقف يكشف عن بصيرة عالم منصف، يعرف للأدب حقه، وللأديب منزلته. يقول:

«قدم علينا ذو الرمة الكوفة، فلم أَرَ أفصح، ولا أعلم بغريب منه»[3].

فليس تأخير ذي الرمة عن الفحول، لأنه اهتم بمَيّ، أو بالغ في

---

(١) الأغاني، جـ ١٧، ص ٣١٨. وهو رأي شاركه فيه جرير الذي قال عنه: «بعر ظباء ونقط عروس تضمحل عما قليل». المصدر نفسه، جـ ١٧، ص ٣١٨. ويقول أبو عمرو بن العلاء عنه أيضاً: «إنما شعره نقط عروس تضمحل عما قليل، وأبعار ظباء، لها شم في أول شمها، ثم تعود إلى أرواح الأبعار». المصدر نفسه، ص ٣١٨.

(٢) المطلبي، دراسات في الأدب. . .، ص ٢١٥.

(٣) الأصفهاني، الأغاني، جـ ١٧، ص ٣١٣.

وصف الصحراء، وإنما جاء في عصر لم يترك فيه أولئك الشعراء فراغاً لأحد، ثم إنهم سَدُّوا جميع المنافذ على غيرهم باشتقاقهم طريقاً لاءمت أهواءهم، وملأت الأجواء السياسية في عصرهم. ويُبَيِّن في موضع آخر مكانة ذي الرمة، فيقول عاقداً مقارنة بينه وبين امرىء القيس:

«أحسن الجاهلية تشبيهاً امرؤ القيس، وذو الرمة أحسن أهل الإسلام تشبيهاً»[1]. «ما أخر القوم ذكره إلا لحداثة سنه، وأنهم حسدوه»[2].

وها هو يقول عنه أيضاً:

«قدم علينا ذو الرمة الكوفة، فلم نر أحسن، ولا أفصح، ولا أعلم بغريب منه، فغم ذلك كثيراً من أهل المدينة. . .»[3].

وهو يروي عنه ما يدل عن معرفة وثيقة به، فيقول:

«ما تمم ذو الرمة قصيدته، التي يقول فيها: «ما بال عينك منها الماء ينسكب»، حتى مات، كان يزيد فيها منذ قالها حتى توفي»[4].

ومما يسترعي النظر في هذا الحكم الإيجابي في ذي الرمة، مقارنة بموقف الرواة والعلماء من الشعراء، وما تبعثه دخائل النفس البشرية في مجال الشك والريبة، أن حماداً كان عادلاً في حكمه على ذي الرمة، ولم يُنقل عنه أنه تعرض له بسوء، حتى وهو يتصل به شخصياً عندما نقل خبر كتابته، وذلك على الرغم من أن ذا الرمة كان صريحاً في رأيه من الأبيات التي رواها حماد لبلال بن أبي بردة في أبي موسى الأشعري كما سيمر بنا في حينه.

---

(١) الأغاني، جـ ١٧، ص ٣١٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣١٢.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٣٤.

(٤) المصدر نفسه، ص ٣٢٥.

٢ ـ الكميت بن زيد الأسدي:

ومن الشعراء الأمويين الذين احتك بهم حماد، فلم يروقوا له، الكميت بن زيد، الذي يستنكر عليه الشاعرية، بعد أن اشتد الأخذ والرد بينهما، فيقول له:

«أنت شاعر؟ إنما شعرك خطب»(١).

والواقع أن هذا القول متداول عن شعر الكميت، حتى ليقول له الفرزدق:

«أنت خطيب»(٢).

وهكذا تجلت لنا أصالة حماد النقدية، وتحققت مقولته التي أثبت فيها قدرته على التمييز بين الأشعار، سواء أكانت هذه الأشعار تخص عصوراً، أم كانت تخص أشخاصاً، فلقد كان راوية، كما كان ناقداً فناناً، محباً للشعر ومتابعاً الشعراء. ومع ما لحقه من ضيم وإجحاف، وما تعرض له من إسقاط، فإن الحقيقة الماثلة، هي أنه كان سباقاً في نقداته ونظراته من جاء بعده، وتتضح هذه الحقيقة في أنه يمثل ذلك المنعرج الحاد في مسار الرواية الشفوية، إلا أنه ظل مستمراً في التيار النقدي القديم الذي يستشعر الجمال، ويتنبه للكلمات دون أن يخوض في التفاصيل. وخير شاهد على مكانته النقدية هذا الخبر الذي يحكي توقف من له كلمة فصل في الحكم على الشعراء، ليستشير حماداً، وهي شهادة رائعة، تبرز جانبه النقدي، وتوثق روايته، يقول الخبر:

«كان بالكوفة رجل من الفقهاء، تجتمع إليه الناس فيتذاكرون العلم، فذُكر يوماً شعر عمر بن أبي ربيعة فهَجَّنَه، فقالوا له: بمن ترضى، ومر بهم

---

(١) المرزباني، الموشح، ص ١٧٨.

(٢) المرتضى، الأمالي، جـ ١، ص ٥٩.

حماد الراوية، فقال: قد رضيت بهذا، فقالوا له: ما تقول: فيمن يزعم أن عمر بن أبي ربيعة لم يحسن شيئاً؟ فقال: أين هذا؟ اذهبوا بنا إليه»[1].

وإنه لمن قبيل الملاحظة والاستنتاج أن نجد حماداً يتبوأ مكانته اللائقة به، فيشهد له رجال زمانه، وشعراء عصره بالقدرة على تمييز الأشعار والنظر في جيدها من غثها، ولقد وجدناه محط أنظار هؤلاء وأولئك، فكانوا يتوجهون إليه بالسؤال عن الشعر خاصة، حتى إنه في العصر الذي يفترض أنه غير عصره، يحمِّل الخليفةُ المنصُور بريدَه، ليرحل إليه من بغداد، فيسأله رسولُه عن الشعر خاصة، ولولا ثقة المنصور بكفاءة حماد، ولو وجد من يحل محله، لما فعل ذلك. وهكذا رأينا الفرزدق يسأله عن الشعر أيضاً، والفرزدق شاعر، وأحد رواة الشعر المعدودين. أما في عهد بني أمية، فعلاقته بخلفائها وأمرائها، شاهدة على علو شأنه ومقداره عندهم، فكانوا يستقدمونه ويسألونه.

وسواء أفضل جريراً أم الفرزدق، أم الأخطل أم الأحوص، أم ذا الرمة، فإن ما يمكن الإشارة إليه، هو أن حماداً ـ الذي يأتي في مصاف الجيل الأول من الرواة الإسلاميين، أبي عمرو بن العلاء مثلاً ـ يختلف كلية عن أولئك العلماء الذين عاصروه أو جاءوا من بعده، وهو أنه لا يتعصب للقديم، أو يستهجن سماع المحدث، أو روايته، بل يبلغ به الإعجاب إلى حد روايته، والإشادة به والدفاع عنه، كما في موقفه من عمر بن أبي ربيعة وذي الرمة. ولعلنا نتنبه أيضاً إلى مقدار هذا المحفوظ الذي يتمتع به الرجل، وإلى سعة اطلاعه على الموروث الثقافي. والأهم من كل ذلك أن هذه النقدات التي يطرحها حماد، لا تختلف عما ألفناه من نقدات عابرة من أمثاله وسابقيه، مما يؤكد تقارب المستوى الثقافي بينهم، وهو مستوى

---

(١) الأغاني، جـ ١، ص ٨٤.

يعكس الثقافة العربية القديمة قبل أن تتفرع وتتسع مدلولاتها[1].

وإلى جانب هذه المدارك، فإنه لمن الواضح أن حماداً يتميز في حالة عدم الرضى بلذعات نقدية، مثل:

«**ما يعرف هذا إلا في كلاب الحانات**».

«**ما يعرف هذا إلا دار الماسيديين**».

«**وثمود، فإن الله لم يفرق بينهما**».

ومما لا شك فيه أيضاً أنه مدرك كل الإدراك لمعاني الشعر وألفاظه، ولكنه يتمتع بروح هازئة. ضاحكة، كما قال الصولي عن تعليقه على «**حبب إلى النصرانية**»، إن ذلك «**مزح**».

(١) انظر طه إبراهيم، تاريخ النقد الأدبي، ص ص ٨ ـ ٧٣.



الباب الرابع
المآخذ عليه



الفصل الأول
ضعف الحاسة اللغوية (اللحن)

قدمت الشهادات السابقة وثائق قاطعة عن مكانة حماد وعلمه، كما رفعت من قدره، ليس في مجال الرواية والنقد، بل في مجال اللغة أيضاً، حتى اقترن وصفه بالأعلم بأشعار العرب، بكونه الأعلم بلغاتها أيضاً. وكان العالم الجليل، رأس علماء البصرة، أبو عمرو بن العلاء (ت ١٥٠ هـ)، يقدمه على نفسه، كما كانت ملوك بني أمية تستزيره لتستمع إلى إنشاده[١].

ثم جاء أبو عبد الرحمٰن يونس بن حبيب الضبي (ت ١٨٢ هـ)، وخلف الأحمر (ت ١٨٥ هـ)، والأصمعي (ت ٢١٦ هـ)، فأدلوا بأقوال ليست في صالح حماد.

وقبل الدخول في استعراض هذه الأقوال، علينا أن نضع في الاعتبار المرحلة الثانية من مرحلة الرواية الشفوية، فهؤلاء هم من جيل آخر غير جيل حماد، أما جيله، فهو أبو عمرو بن العلاء، الذي عرف لحماد حقه، وأما الجيل الجديد، فهو جيل بطبيعته، أدرك ما لم يدركه حماد سياسياً وثقافياً واجتماعياً، فإذا أضيف إلى هذا كون هؤلاء من مدرسة مغايرة في شؤونها العامة والخاصة لمدرسة حماد،

---

(١) الأصفهاني، الأغاني، جـ ٨، ص ٣٨.

ووجود عوامل محرضة لكل جانب على الآخر، أصبح من الواجب علينا إخضاع هذه الأقوال إلى محك نقدي صارم.

هذه هي وجهة نظر عامة، أما وجهة النظر الخاصة، فهي أن هذه المنطلقات السلبية ومثيلاتها، مما سنتعرض له، أو تعرضنا له فيما مضى، كانت نتيجة تقدم سن حماد، فلقد أدركه هؤلاء وهو شيخ مسن (أي اقترب من التسعين، كما رأينا إذا أخذنا بلقائه زياداً (ت ٥٣ هـ)، وبداية الدولة العباسية (١٣٢ هـ)، **أو بالأحرى كان قد تجاوز الستين بعد قيامها، حسب تحديد ابن النديم، وهو هنا يخضع إلى أزمة نفسية نتيجة للظروف السياسية الجديدة الطارئة؛ ثم إن هذه المنطلقات لم تأخذ بعين الاعتبار الفوارق بين المستويات، فهؤلاء ممن أخذ اللغة تعلماً وتخصصاً، فكانوا يتمسكون بالحديث باللغة العربية الفصحى** *Standard Arabic*، لا لأنهم اكتسبوها من محيطهم، كما يتحدث بها الأعراب في البادية في زمانهم، أو تحدثت بها القبائل العربية المنصوص على فصاحتها في صدر الإسلام، وإنما اكتسبوها عن طريق التعلم والممارسة والاستماع. ويتضح ذلك من قول يونس، الذي انفعل عندما تعمد أحد جلسائه استفزازه، بأن ادعى أن حماداً وجناداً كانا لا يُفضِّلان الأخطل، فرد يونس غاضباً:

«وما حماد وجناد! لا نحويان، ولا بدويان، ولا يبصران الكسور، ولا يفصحان»[1].

أما حماد، فأخذ اللغة مشافهة في بدء شبابه، إلى جانب أنه تعلمها أيضاً، وكان يخالط الموالي وعامة الناس، ممن أخذ اللحن يتفشى فيهم، فكانت له شخصيتان: شخصية أدبية، وشخصية عادية؛ أما الشخصية الأدبية، فهي التي يُنشد بواسطتها الشعر، ويُحَدِّث فيها بالأخبار في مجالس

(١) الأغاني، جـ٨، ص ٢٨٢.

الحكام والصفوة وحلقات العلم؛ وأما الشخصية العادية، فهي الشخصية التي يتحلل فيها من التفكير في اللغة إعراباً وصرفاً وتركيباً، ليلجأ إلى اللغة غير المعربة *Analytic Language*.

إن هذا، لهو تفسير الذي قدمه حماد نفسه حين ثار عليه مروان بن أبي حفصة، على مرأى ومسمع من الوليد بن يزيد، فقال موجهاً الكلام إلى الخليفة، مستثيراً غضبه وسخطه:

«يا أمير المؤمنين! ما لهذا والكلام، وهو لحانة؟».

وهنا يرد عليه حماد في فتور وعدم مبالاة، مع ثقة بالنفس:

«إني أجالس السوق، فلساني على لسانهم»(١).

وفي رواية الأغاني:

«إني رجل أكلم العامة، فأتكلم بكلامها»(٢).

فحماد في الأدب، غير حماد في الحديث، لا يلتزم الإعراب، ولا يعبأ بمستوى اللغة الفصحى، وإنما يتحدث كما يتحدث عامة الناس، أما مروان، ومن هو على شاكلة مروان، فيريد ما يريد غيره ممن أخذ اللغة تعلماً، وسلك طريق الأدب تخصصاً، فارتفع عن العامة لينفرد بالخاصة ، ومن هنا كان سؤاله يعني أن مكانته، هي هذه المكانة، أي مجالسة الخليفة، ومن هم في منزلة الخليفة.

ولكن هذا التسليم باللحن من حماد في لغة الحديث *Spoken Language* ينبغي ألا يؤخذ على علاتة، لأن رجلاً حظي بكل هذه المكانة في الأدب، يستلزم أن تتهيأ له صورة كلية عن التراكيب، ثم إن رجلاً يقف ليعتد بنفسه أمام الخليفة، فيقول:

---

(١) الزجاجي، مجالس العلماء، ص ٢٧.

(٢) جـ٦، ص ٦٩.

«أروي لكل شاعر تعرفه يا أمير المؤمنين، أو سمعتَ به. ثم أروي لأكثر منهم ممن تعرف أنك لم تعرفه ولم تسمع به»[1].

لا بد أنه كان مدركاً للمسائل الإعرابية حتى يستطيع أن يعتد هذا الاعتداد. ومن هنا، فإن مسألة قبول اللحن في لغة الحديث مطلقاً، مسألة تحول دونها محاذير جمة.

إذن، لا بد أن حماداً كان كسائر العلماء، يستعمل اللغة المعربة في أحاديثه مع الخاصة، إلا أنه حينما يخاطب العامة، فلسانه على لسانهم. ومع ذلك، فإن هذا النزول إلى مستوى العامة، لا بد أنه أثر على حديثه مع الخاصة، فكان أن بدرت منه هفوات لسانية، يعدها أمثال يونس، والأصمعي، ومن شابههما، جرائر يستحق عليها حماد الإدانة والتهجين.

وهذا، فيما يبدو، كان هو الوضع، ولذلك قال ابن النديم:

«كان حماد ربما لحن في الشيء بعد الشيء»[2].

فهو ليس لحناً تاماً، كما يتبادر إلى الذهن أول وهلة، وإنما هو لحن أحياناً، أي هفوات أو سقطات، نتيجة لعدم التمكن من المحافظة محافظة مستمرة على هذا الوسيط اللغوي المكتسب، والذي يتعرض بين الفينة والفينة إلى التذبذب عُلُوّاً وهبوطاً، خضوعاً لمتطلبات الحديث ودواعيه. ثم يأتي الأصمعي، فيقول:

«جالست حماداً الراوية، فلم أجد عنده ثلاثمائة حرف»[3].

وليس واضحاً ما يعنيه، فإن كان يعني اللغة، فإن تفسيره يندرج

---

(١) الأغاني، جـ٦، ص ص ٦٨ ـ ٦٩.

(٢) الفهرست، ص ١٠٤.

(٣) ابن قتيبة، المعارف، ص ٢٣٥. وفي تحقيق عكاشة، ص ٥٤١. «فلم آخذ عنه».

ضمن ما مر من حديث، ويظل السؤال قائماً، أصحيح هذا وقد أخذ عنه علماء المِصرين (الكوفة والبصرة)؟ وصحيح هذا، وكل ما بأيدينا لامرىء القيس عن حماد الراوية، كما نص الأصمعي نفسه على ذلك؟[1] وصحيح هذا وابن سلام، تلميذ الأصمعي، يقول: «**أول من جمع أشعار العرب وساق أخبارها حماد الراوية**»؟ ثم هل تقاس اللغة بهذا الكم المحدود (ثلاثمائة)، إن كان الأصمعي يقصد اللحن؟ ألا يكفي أن يقول مثلما قال أستاذه يونس: «**يلحن**»؟ وهل ـ على هذا ـ يتحول هذا العدد المحدد إلى التصحيف أو إلى العروض بدلاً من اللحن؟ أسئلة تتعاقب، ولا جواب شافٍ عليها، إلا الأخذ بالتفسير الأول وما يصاحبه من توجيهات، مثل المنافسة، أو المعاصرة، أو الانتقال إلى مرحلة زمنية مغايرة. أو التأثير السياسي للحكام الجدد، أو النزعات العرقية في هذا العصر... إلخ. وبعد فمتى جالس الأصمعي حماداً، وقد توفي الأصمعي في حدود سنة ٢١٦ هـ وحماد توفي كما يقال في حدود سنة ١٥٦ هـ، أي إن بينهما قرابة ستين سنة. فهل جالسه وهو شاب يافع، وذلك شيخ مكتهل وهنا نُدخل العامل الزمني في الحكم بين الاثنين.

ولا جدال، بعد هذا، في أن حماداً كان يقع في اللحن، وكان متأثراً بالانتقال إلى المجتمعات الجديدة، مما لاحظه علماء فقه اللغة العربية، الذين ربطوا تفشي اللحن بدخول الأعاجم في الإسلام واختلاطهم بالعرب واختلاط العرب بهم، حتى وصل هذا الاختلاط درجة التمازج والتداخل، مع ملاحظة أن حماداً سبق رواج هذه الظاهرة في العصر العباسي. لقد كان حماد راوية ذا ذاكرة تسجيلية يحفظ كَمّاً هائلاً من الأشعار، ولم يكن

---

(١) أبو الطيب اللغوي، مراتب النحويين، ص ٧٢ وانظر، الأسد، مصادر، ص ص ٤٤٦ ـ ٤٤٧.

نحوياً متخصصاً في النحو، كما قال يونس، وهو مستشيط غيظاً، ضاماً إليه جناداً: «ولا نحويان...». يقول أبو سعيد السيرافي، (ت ٣٦٨ هـ) عنه:

«إنا لا نعرف لحماد الراوية شيئاً في النحو»(١).

لقد أُخذت قضية اللحن عنده، سلاحاً حاداً ضده، حتى استخدمت صيغة المبالغة في نسبته إلى اللحن، فوصفه مروان بن أبي حفصة بأنه **«لحانة»**، واستخدم الكميت بن زيد، الصيغة نفسها أيضاً، فقال له، وقد أراد أن يكتب عنه بعض شعره:

«أنت لحان»(٢).

وهذا لا يعني أن الكميت كان يخشى على شعره من الخطأ الإعرابي، لأن مثل هذا الأمر غير معروف عن حماد، وإنما كان الكميت يريد الامتياز والكمال حتى في لغة الحديث، وهذا مكان الغمز في حماد.

فحماد في الإنشاد، هو غير حماد في لغة الحديث أحياناً، ومما يبرهن على حضوره الذهني في الإنشاد، بحيث إننا لم نعد مستعدين لقبول خلط اللحن في أي من المسألتين، أن كل أخباره تجعله متمكناً من اللغة الأدبية، وهو ينشد؛ واختصاراً لكل الشواهد التي سنمر عليها، أو ذكرنا بعضها نستشهد هنا بوقوفه أما الوليد بن يزيد، الشاعر، المحب للغناء والإيقاع، وافتخاره بأن قال له:

«أُنشِدك على كل حرف من حروف المعجم مائة قصيدة كبيرة، سوى المقطعات من شعر الجاهلية دون شعر الإسلام»، فيقول له الخليفة: **«سأمتحنك في هذا، وأمره بالإنشاد»**. وهنا يقوم حماد فينشد الخليفة:

---

(١) أخبار النحويين البصريين، ص ٣٤.

(٢) المرزباني، الموشح، ص ١٧٧.

«حتى ضَجِر»، ثم لم يكتف بهذا، بل «وكَّل به من استحلفه أن يصدقه عنه، ويستوفي عليه؛ فأنشده ألفين وتسعمائة قصيدة للجاهليين»[1].

فالخليفة وجلساؤه، والمختصون بالشعر عنده، يستمعون إلى حماد وهو ينشد الشعر بعد الشعر، وينتقل من الروي إلى الروي، ومن البحر إلى البحر، ومن الشاعر إلى الشاعر، في شعر جاهلي ابتعدت لغته وصياغته عن لغتهم وصياغاتهم، فلا يشير أحدهم إلى خلل في النحو أو فساد في اللغة؛ على الرغم من أن طول المدة كانت مجلبة للزلل، ومجالاً لأن يتراخى الإحكام والضبط في يده، لولا أنه كان مهيئاً ذهنياً للإعراب.

فتهمة اللحن التي راجت عنه، تهمة مؤكدة من جانب، ومرفوضة من جانب آخر، فهي مؤكدة في الحديث العادي، عندما يختلط حماد بالعامة والشعب في الأسواق والحانات، فيتحدث مثلما يتحدثون، ويتداول ما يتداولون؛ أما عندما يحادث الخاصة، فهو يتحدث لغة عربية وسطى، لا هي باللغة المقعرة المتكلفة، ولا هي باللغة المتحللة من الإعراب كلية؛ ولأنه يتحدث هذه اللغة، فربما وقع في خطأ نحوي أو بعض أخطاء نحوية، مما يعد جرائر كبيرة عند أولئك الذين يحاولون الاحتذاء حذو أسلافهم في التعبير والكلام. ويبقى إنشاده خالصاً من مثل تلك التهمة، لم يشر إليه أحد، ولم يلاحظ عليه ذات مرة.

والجدير بالذكر أن تلك التهم جاءته من رجال لهم مقامهم الرفيع في الأوساط الأدبية مثل يونس والكميت، وهذا يدل من جانب آخر على منزلة حماد ونظرة ذلك الوسط إلى مكانته، بحيث كان دائماً محل أنظارهم، ومن يضعون له حساباً عند المحاورة والمراجعة. ومن ناحية ثانية، ألا يمكن أن نسأل أنفسنا وقد تحفظنا في قبول مقولة الأصمعي عن مدى

---

(١) الأغاني، جـ ٦، ص ٦٩.

مصداقية حكم مروان بن أبي حفصة، ذلك الشاب الذي ربما كان في سن الأصمعي عندما أصدر حكمه ذاك على حماد، لأن الأصمعي نفسه يقول عن مروان هذا «**كان مولداً ولم يكن له علم باللغة**»[1].

وبعد، فماذا نقول في قول المفضل الضبي، الذي يبرِّىء حماداً تبرئة تامة من اللحن أو الخطأ اللغوي، فيقول لمن سأله عنه:

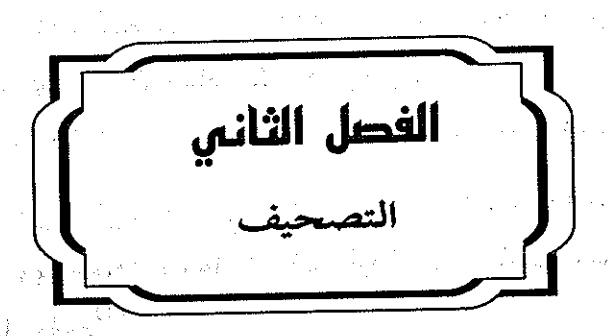
«**أيخطىء أم يلحن؟**».

فيجيبه:

«**ليته كان كذلك، فإن أهل العلم يردون من أخطأ إلى الصواب**»[2] ثم أليس هذا مناقضاً لما سيأتي من اتهام له بصناعة الشعر وانتحاله؟

---

(١) المرزباني، الموشح، ص ٢٢٧.
(٢) الأصفهاني، الأغاني، جـ٦، ص ٨٥.



الفصل الثاني

التصحيف

أ ـ في الشعر:

تبدو مسألة رفض كسر حماد الشعر مسألة مقبولة إلى حد كبير كما سوف نرى، لأن أي أحد تفرغ لحفظ ذلك القدر الضخم من الشعر العربي بأوزانه المشهورة المتفاوتة، والتي يأتي أغلبها في الأبحر ذات التفعيلات المتعددة: كالطويل والبسيط والكامل والرمل... إلخ، ستحصل له ملكة تسعفه على إداك الخروج على الوزن، أو الاضطراب فيه، وهذا أمر أكدته العلماء، وأثبتته الدراسات العلمية الحديثة. أما اللحن، فإنه أمر ربما عرض له بعض الشيء، كما حقق ذلك ابن النديم، وهو في لغة الخطاب كما نرى. وتأتي تهمة التصحيف، لتسير المسار نفسه، الذي صاحب اللحن، وإن كان يكفي للتخفيف من غلوائها، تلك الكتب التي ألفت في التصحيف، والتي نُسب الوقوع فيه إلى علماء يُستبعد أن يقع هذا التصحيف منهم، ولعل التصحيف قضية لغوية نشأت متأخراً بفعل التطور في العلم والدراسة، فأصبح كل مخالفة لرواية ما يُعَدُّ تصحيفاً، وإن كان المسؤول عنه، فيما يتعلق بحماد، ليس سوء اطلاع أو معرفة، وإنما هو الرواية الشفوية نفسها.

وإذا عدنا إلى رأي يونس، الذي جعل التصحيف من نقائص حماد أيضاً، فقال:

«حماد... يصحف»[1].

فإن الشاهد الشعري الوحيد الذي بقي على تصحيفه، هو ما رواه أبو أحمد العسكري من أن حماداً أنشد لأبي ذؤيب:

أكــل الحميــم فطــاوعتــه سمحــج مثــل القنــاة وأرغلتــه الأمــرع

فقال أبو حنش: الجميم، وهو ماجم من البنت. وأزعلته: نشَّطته. على حين روى حماد: وأرغلته؛ وفسر أرغلته بـ: طابت عيشه وأخصبته، وعيش أرغل واسع[2].

ومع ذلك، فإن رواية البيت لم تقتصر على هذه التصحيفات ـ إن عددناها تصحيفات ـ ففي شرح السكري لأشعار الهذليين، نجد:

العميم
بدلاً من:
الحميم أو الجميم.
وصاحبته سمحج
بدلاً من.
وطاوعته.

كما نجد رواية ثالثة لـ «أزعلته»، رواية أبي حنش، و «أرغلته» رواية حماد، فهناك: «أسعلته»[3].

وربما تبينا هذا من موقف حماد نفسه، فهو قد قبل رواية أبي حنش

(١) الجاحظ، رسائل الجاحظ، كتاب البغال، ص ٢٤٦.
(٢) شرح ما يقع فيه التصحيف، جـ١، ص ص ١٤١ ـ ١٤٣، وانظر: الصفدي تصحيح التصحيف، ص ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤.
الجميم: النبت الذي صار كأنه جمة. سمحج: الأتان الطويلة الظهر.
الأمرع: الخصب.
(٣) جـ١، ص ١٣.

على أنها رواية[1]، أو على أنها رواية صحيحة[2]. ولا شك على هذا، أن رواية حماد هي إحدى روايات القصيدة، التي تلقاها من أفواه الرواة، وهو غير مسؤول عن اختلافها عن رواية أبي حنش، وهي رواية مقبولة، فقد أنشد قصيدة أبي ذؤيب كاملة حتى أتى على آخرها، ومن ضمنها هذا البيت، وقد كان الوليد يعرفها[3]، فلم يقم اعتراض على أنه صحَّف في شيء منها، مع أن القصيدة تحتفظ، حسبما رواها السكري، بروايات مختلفة كثيرة يكاد بعضها يضارب بعضاً، وقد اشترك في رواية القصيدة، رواة مشاهير كالأصمعي والأخفش، وأبي عمرو الشيباني، وابن حبيب، وعيسىٰ بن عمر وأبي عبيدة، وغيرهم[4]؛ مما يجعل من كل اختلاف في مفرداتها تصحيفاً أو غلطاً في الرواية[5]، وَفق مقياس أبي حنش. وهذا هو واقع أغلب القصائد الجاهلية والقديمة، بحيث يعد اختلاف الروايات *Variants*، مظهراً من مظاهر القصيدة العربية في مراحل شفويتها. وهذه الظاهرة الملحوظة في القصيدة الشفوية يمكن أن نجدها في جميع الأشعار التي رواها، سواء أكانت جاهلية، كالمعلقات، أو شعر الأعشى، أو بعض شعر زهير، أم الشعر المخضرم، كشعر ابن مقبل، أم الشعر الأموي، كشعر الأخطل.

ب ــ في القرآن الكريم:

ونحن هنا أمام تهمة كبرى، جعلته نموذجاً سيئاً لقراءة القرآن الكريم؛ فحماد ليس مقرئاً، وحماد ليس حجة في القراءات، وهو رجل أجمع العلماء على اشتهاره برواية الشعر، فما الذي أقحمه في قراءة

---

(١) أبو أحمد العسكري، شرح ما يقع فيه التصحيف، ص ١٤٢. وفيه قال أبو حنش عن حماد: «فسكت».

(٢) المصدر نفسه، ص ١٤٣. وفيه قال أبو حنش، في رواية أخرى: «ثم رجع».

(٣) النويري، نهاية الأرب، جـ ٤، ص ص ٢٨٢ ـ ٢٨٣.

(٤) شرح أشعار الهذليين، جـ ١، ص ص ٤ ـ ٤١.

القرآن؟ ولماذا اختص بالتصحيف بالقرآن، حتى كانت أمثلته تعد، ولا يعد تصحيفه في الشعر؟ بل إننا، ولأول مرة، نجد عبارة: «**كان حماد.. قليل البضاعة من العربية**». فكيف تجتمع قلة البضاعة من العربية بتلك الشهادة التي تمنحه العلمية؟ وإذا كان حماد ممن يقبل على النبيذ حتى الإدمان فيه، فهل من حجة لمن يحتج عليه بالتصحيف في القرآن؟ ثم مَن هذا الأمير الذي امتحنه؟ أهو يوسف بن عمر في زمن الوليد، وحماد كان مبجلاً في عهده، أم في عهد زياد، وقد بَعُد الزمن؟ أم في العصر العباسي، وقد كان مغموراً شبه متوار؟ وإذا كان هذا قد حدث في أيام العباسيين، فإن الدافع وراء ترويج مثل هذه الإشاعات دافع سياسي واضح؟ ولننظر في هذه التصحيفات، لندرك الهدف من ورائها، والذي لا يخفى على التأمل، وهو هدف يرمي إلى تسليط الأضواء على حماد لتجريده من مكانته العلمية، وإقحام الدين لتأجيج الغضب عليه، وإخماد ذكره: يروي أبو أحمد العسكري (٣٨٢ هـ) قوله:

«**نظر حماد في المصحف، فقرأ: (حتى يعطوا الخربة عن يد)**، فقيل: «الجزية، فقال: إنما عنى السرقة، فكان احتجاجه للخطأ، أعجب من خطئه»[١].

ويروي حمزة الأصفهاني (ت ٣٦٠ هـ) عن حماد، فيما يخص التصحيف في القرآن الكريم أنه:

«**صحف فيه عدة آيات لم يبق على الحفظ منها إلا عدة وعشرون حرفاً وهي:**

(أوحى ربك إلى النخل أن اتخذي من الجبال بيوتا)[٢] و (من

---

(١) شرح ما يقع في التصحيف، ص ١٤٢. الخربة: جمع خارب وهم السراق واللصوص.

(٢) حمزة الأصفهاني، التنبيه على حدوث التصحيف، ص ص ٥ ـ ٦.

(٣) صوابها(النحل) سورة ١٦ آية ٦٨.

الشجر ومما يفرشون)[1] (**وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها** أباه)[2] و (**ليكون لهم عدواً** وحرباً)[3] و (**ما يجحد بآياتنا إلا كل** جبار **كفور**)[4] و (**بل الذين كفروا في** غرّة **وشقاق**)[5] و (فعززوه **ونصروه**)[6] و (تعزّزوه **وتوقروه**)[7] و (**لكل امرىء منهم يومئذ** شانٍ **يغنيه**)[8] و (**هم أحسن أثاثاً** وزيّاً)[9] و (**قال عذابي أصيب به من** أساء)[10] و (**يوم يحمى** غَلَيْهُا **في نار جهنم**)[11] و (فبادوا **ولات حين مناص**)[12] و (تبلوا **أخبارهم**)[13] و (صيغة **الله ومن أحسن من الله** صيغة)[14] و (فاستعانه **الذي من شيعته على الذي من عدوه**)[15] و (**وسلام عليكم** لا نتبع **الجاهلين**)[16] و (**لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى** تستأذنوا **وتسلموا على أهلها**)[17] و (**أهليكم أو** كأُسوتهم)[18] و (**يا**

---

(١) صوابها (يعرشون) سورة ١٦ آية ٦٨.
(٢) صوابها (وعدها إياه) سورة ٩ آية ١١٥.
(٣) صوابها (وحزنا) سورة ٢٨ آية ٨.
(٤) صوابها (كل ختار) سورة ٣١ آية ٣١.
(٥) صوابها (في عزة) سورة ٣٨ آية ٢.
(٦) صوابها (وتعزروه) سورة ٧ آية ١٥٦.
(٧) صوابها (وتعزروه) سورة ٤٨ آية ٩.
(٨) صوابها (شأن) سورة ٨٠ آية ٣٧.
(٩) صوابها (ورئياً) سورة ١٩ آية ٧٤.
(١٠) صوابها (أشاء) سورة ٧ آية ١٥٥.
(١١) صوابها (عليها) سورة ٩ آية ٣٦.
(١٢) صوابها (فنادوا) سورة ٣٨ آية ٣.
(١٣) صوابها (ونبلو) سورة ٣٧ آية ٣٣.
(١٤) صوابها (صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة) سورة ٢ آية ١٣٨.
(١٥) صوابها (فاستغاثه) سورة ٢٨ آية ١٥.
(١٦) صوابها (لا نبتغي) سورة ٢٨ آية ٥٥.
(١٧) صوابها (حتى تستأنسوا) سورة ٢٤ آية ٢٧.
(١٨) صوابها (كسوتهم) سورة ٥ آية ٩٢.

ويلنا من بغتنا من مرقدنا هذا...)[1] و **(قل إن كان للرحمن ولد فانا أول** العائذين) ويروى (العائدين)[2].

وعندما جاء ابن خلكان (ت ٦٨١ هـ)، قال:

«كان حماد... قليل البضاعة من العربية. قيل إنه حفظ القرآن الكريم من المصحف، فصحف في نيّف وثلاثين حرفاً»[3].

ولم يحدد ابن خلكان هذه القراءات، ثم جاء الصفدي (ت ٧٦٤ هـ)، فقال:

«الأماكن التي صحّفها حماد الراوية في القرآن العظيم، لما قرأ المصحف، وهي ما نِيفَ على الثلاثين موضعاً»[4].

ولم يذكر الصفدي هذه التصحيفات، واكتفى بالإحالة إلى كتابه «فض الختام»، وفي هذا الكتاب ردد ما قاله حمزة الأصفهاني، فقال:

«روي أن حماداً الراوية سعى به بشار بن برد إلى عقبة بن سليم أمير البصرة، أنه يروي جل أشعار العرب، ولا يحسن من القرآن غير أم الكتاب»[5].

ثم عدد بعض تصحيفاته، فقال:

«حماد... صحف...».

(ومن الشجر وما يغرسون).

---

(١) صوابها (بعثنا) سورة ٣٦ آية ٥٢.
(٢) صوابها (العابدين) سورة ٤٣ آية ٨١.
(٣) وفيات الأعيان، جـ ٢، ص ٢١٠.
(٤) تصحيح التصحيف، ص ١٤.
(٥) ص ١٥٤.

(وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها أباه).

(ليكون لهم عدواً وحرباً).

(هم أحسن اثاثا وزيا).

(إن كان للرحمن ولد فانا أول العائذين)[1].

وجميع هذه التصحيفات ذكرها حمزة الأصفهاني، ولم يذكر الصفدي في كتابه سوى هذه الآيات الخمس، مع أنه أحال في كتابه، تصحيح التصحيف، على ما نيف على الثلاثين موضعاً.

والآن، هل يعقل أن رجلاً بلغ من العربية ذلك المبلغ، وكان محافظاً على صلاة الجمعة، أن ينحدر إلى هذا المستوى، فيتجاسر ويبتدع قراءات ما أنزل الله بها من سلطان؟ أيعقل أن يستهين رجل بالقرآن هذه الاستهانة، وأن يقع في هذه المزالق الخطيرة، وهو الذي اعتمد على رواية الشعر، فحافظ على رواية استوعبها ولم يتعد ما حفظه منها؟ ثم أيصمت حماد عن اعتراض أبي حنش على التصحيف المزعوم في بيت أبي ذؤيب، ثم يأتي ليحتج بتفسير من عنده في «الخربة» بدلاً من «الجزية»؟ وإلى جانب ذلك فهذه التصحيفات، قراءات منكرة مردودة، وليست قراءات بأي حال من الأحوال. وتؤدي بنا هذه الأسئلة إلى إعادة النظر في الخبر والتدقيق فيه. فالخبر يقول:

«حماد الراوية، سعى بشار الشاعر به، إلى عقبة بن أسلم أمير البصرة، أن يروي جل أشعار العرب. . . . امتحنه الأمير»[1].

فهذه التهمة جاءت أصلاً من بشار بن برد، ولم نعرف أن خصومة ما جرت بين حماد الراوية وبشار. ولكننا نعلم أن هناك خصومة حقيقية بين

---

(١) فض الختام، ص ١٥٤.

(٢) حمزة الأصفهاني، التنبيه على حدوث التصحيف، ص ٥.

بشار وحماد عجرد، فقد هجا حماد بشاراً هجاء مراً، وحماد عجرد راوية للشعر أيضاً، وكثيراً ما اختلط اسم حماد عجرد باسم حماد الراوية، كما رأينا في أغلب الحالات. ألا يمكن أن يكون حماد عجرد (أو حتى حماد بن الزبرقان)، هو الذي وقع في هذا اللحن والتصحيف، فنُسب كل ذلك إلى حماد الراوية، بفعل الأهواء والنزعات؟ أما عبارة: «**يروي جل أشعار العرب**»، التي قد تنصرف إلى حماد الراوية، فربما جاءت لتوافق اسمه بعد أن تنوسي حماد الآخر، ولا يمنع ذلك من أن تنصرف إلى حماد عجرد نفسه.

وبهذا ينفتح المجال لاحتمالات تتقدم فيها صورته نحو البؤرة، بدلاً من التراجع وراءً بحيث تَسقط عليها ظلال قاتمة من الألوان والخطوط.

وننتقل بعد ذلك إلى ناحية أخرى في الخبر تضعف من نسبته إلى حماد الراوية، وتوثق نسبته إلى حماد عجرد، فالخبر يقول:

«**سعى بشار الشاعر به إلى عقبة بن أسلم أمير البصرة**»[1].

فالحادثة وقعت أولاً في البصرة، وحماد ليس من أبناء البصرة، وإنما هو من أبناء الكوفة، أما ابن البصرة، فهو حماد عجرد، الذي كان يتأذى منه بشار، وثانياً أنها كانت أمام عقبة بن أسلم، وعقبة بن أسلم الأزدي هو أمير من أمراء الدولة العباسية، تولى في عهد أبي جعفر المنصور، فيما بين السنتين ١٥٠ هـ ـ ١٥١ هـ.

وحماد كان ـ كما رأينا ـ أضعف من أية مواجهة شخصية في هذه الفترة. ولذلك، فإن الاختراع والإضافة وتَعَمُّد تشويه الصورة، أمور ليست غريبة عن الأجواء السياسية تجاهه وتجاه أمثاله من بقايا الخلافة الأموية،

---

(١) حمزة الأصفهاني، التنبيه على حدوث التصحيف، ص ٥. وانظر، الصفدي، فض الختام، ص ١٥٤.

بحيث يوضع حماد الراوية، تبعاً للأهواء والأغراض الشخصية، محل حماد عجرد، الذي كان مستهتراً بالشراب، مقبلاً على ارتكاب المحرمات، عنيداً في موقعه من بشار. فإذا لم يكن حماد عجرد، فهو حماد بن الزبرقان الذي قرأ: «في غرة وشقاق»[1].

واللافت للنظر أن تلك التصحيفات جميعاً، ليست من باب اللحن، أي الإعراب (الشكل)؛ وإنما هي من باب الإعجام (النقط)، ونقط المصاحف لم يتم إلا في فترة متأخرة على يد نصر بن عاصم الليثي (ت ٩٠ هـ)، وهو من أهل البصرة، فلعل المصحف الذي زُعم أن حماداً قرأ فيه كان خالياً من الإعجام، وهذا واضح من هذه الكثرة من الأمثلة. ومعلوم أن ظواهر رسم القرآن الكريم ليست قاصرة على النقط فحسب، فَلِمَ اختير الإعجام من بينها؟ بل لِمَ لم يقع خطأ الإعجام هذا إلا في هذه الأمثلة فقط، إن كان المصحف الذي كان يقرأه حماد غير معجم أصلاً؟!

وربما أوقفتنا هذه التهمة القاسية على تهمة سابقة تناقض هذه كل التناقض، فلقد عرفنا حماداً لحانة في الخطاب العادي *Parole*، وإلى حد ما في اللغة *Langue*، فلماذا لم ينص أحد من العلماء على قراءة منكرة من القراءات التي تنسب إليه اللحن في القرآن، إذا كانت شهرته باللحن هذه الشهرة التي عرفنا وجهها؟ ألا يدفعنا هذا إلى اعتبار هذه التصحيفات تصحيفات مقصودة تهدف إلى الحط من قدره وتشويه سمعته، بحيث أوقعت نفسها في تناقضات غفلت عن بعض جوانبها، وهي بهذا يلغي بعضها بعضاً؟؟.

ولا بد أن نشير هنا إلى أن حماداً استشهد بآية من القرآن الكريم في تفسيره قول الثمالي:

تخوف السير منها تامكا.

---

(١) ابن علي، مختصر في شواذ القرآن، ص ١٢٩.

فجاء بقوله تعالى: «أو يأخذهم على تخوف»[1].

كما ذكر قوله تعالى: «وثمود فما أبقى»[2].

ولم يصحف حماد فيهما، ثم إنها تبين أنه يحفظ من القرآن الكريم غير الفاتحة.

وتبدو القصة كلها مفتعلة، وذلك بين من سردها، فهي تارة تذكر أنه: «حفظ القرآن من المصحف»، وتارة تقول إنه: «قرأ المصحف»؛ وقد التقطت هذه الشواهد من سور مختلفة أغلبها طويلة، فركزت عليها.

---

(١) النحل، آية ٤٧.

(٢) النجم، آية ٥١.



الفصل الثالث
ضعف الحاسة الموسيقية

كسر الشعر:

يتقاصر هنا عدد أولئك العلماء الذين اتهموا حماداً فيما مضى باللحن، حتى لا نجد أحداً يتهمه بالخلل الموسيقي في إنشاد الشعر إلا يونس، الذي قال عنه ذات مرة:

«**حماد... كان... يكسر**»[1].

وقال عنه مرة أخرى، بعد ما قرنه بجناد، في ردته المنفعلة تلك:

«**لا يبصران الكسور**»[2].

ولن نخوض طويلاً في الجدل حول هذا الموضوع، لأنه جاء آحادي الخبر، ولأنه كذلك جاء من رجل كثر تعرضه لحماد، حتى تجاوز اللحن وكسر الشعر إلى الفصاحة، فقال عن حماد وجناد، بعدما استُفز ضدهما أيضاً:

«**ولا يفصحان**»[3].

وهذه التهم من يونس تغرق حماداً، في عجمة تامة، وتجرده من

---

(١) الأغاني، جـ٦، ص ص ٦٨ ـ ٧٩.
(٢) المصدر نفسه، جـ٨، ص ٢٨٢.
(٣) المصدر نفسه.

أدنى معرفة بالشعر أو اللغة، فيتناقض هذا تناقضاً صارخاً، أولاً: مع ما عُرِف عنه من عدم اتهامه بالكسر في الشعر أو العجمة، وثانياً مع الإجماع على أنه «حماد الراوية»، الذي كان عالماً بأشعار العرب ولغاتها، أو الأعلم بهما، وأنه كان ينشد في مجالس الخاصة، فيحصل على الرفد والتبجيل.

ولعلنا نستنتج من أقوال يونس هذه، أن هناك حساسية شخصية خاصة من يونس تجاه حماد، فإذا اتفقنا على اللحن في بعض الحديث غير الرسمي، فإنه من العسير قبول التهمتين الأخريين، وإلا لَمَا حظي حماد بتلك المنزلة، ولرُفض إنشاده. ولو كان شيء من هذا صحيحاً، لما امتلك زمام الإنشاد مدة طويلة من الزمن أمام الوليد، وهو يختبره في الإنشاد ـ حرفته ـ وسنرى هشاماً يستدعيه ويستمع إليه وسنرى غير هشام يفعل ذلك، فلا يخدش أسماعهم نشاز في الوزن أو خروج على الإيقاع. وإنما نجد عبارة ألصق بالالتذاذ والنشوة، لجمال الإنشاد وحلاوة العبارة، فهشام: «**طرب**»، واستعاده النشيد، إلى أن «**استخفه الطرب حتى نزل عن عرشه**»[1]. والوليد يستعيده الشعر العذب، كبائية عمر بن أبي ربيعة[2]. ثم إن خصومه في العصر العباسي، لم ينبهوا على شيء من ذلك، وهو ينشد المنصور أو المهدي.

ولهذا، فإن هذه التهمة تحامل شخصي من يونس، وعلى هذا الأساس، فإن الوقائع تدفعها، ولا تقيم لها وزناً، بل تُحمِّلها التأثير على من جاء بعد يونس في الترويج للطعن في حماد، لا سيما أن يونس من أعمدة مدرسة البصرة، والرجل الذي خلف أبا عمرو بن العلاء، الذي كان يضع حماداً، دون منازع، في كفة ميزان تعادل كفته.

---

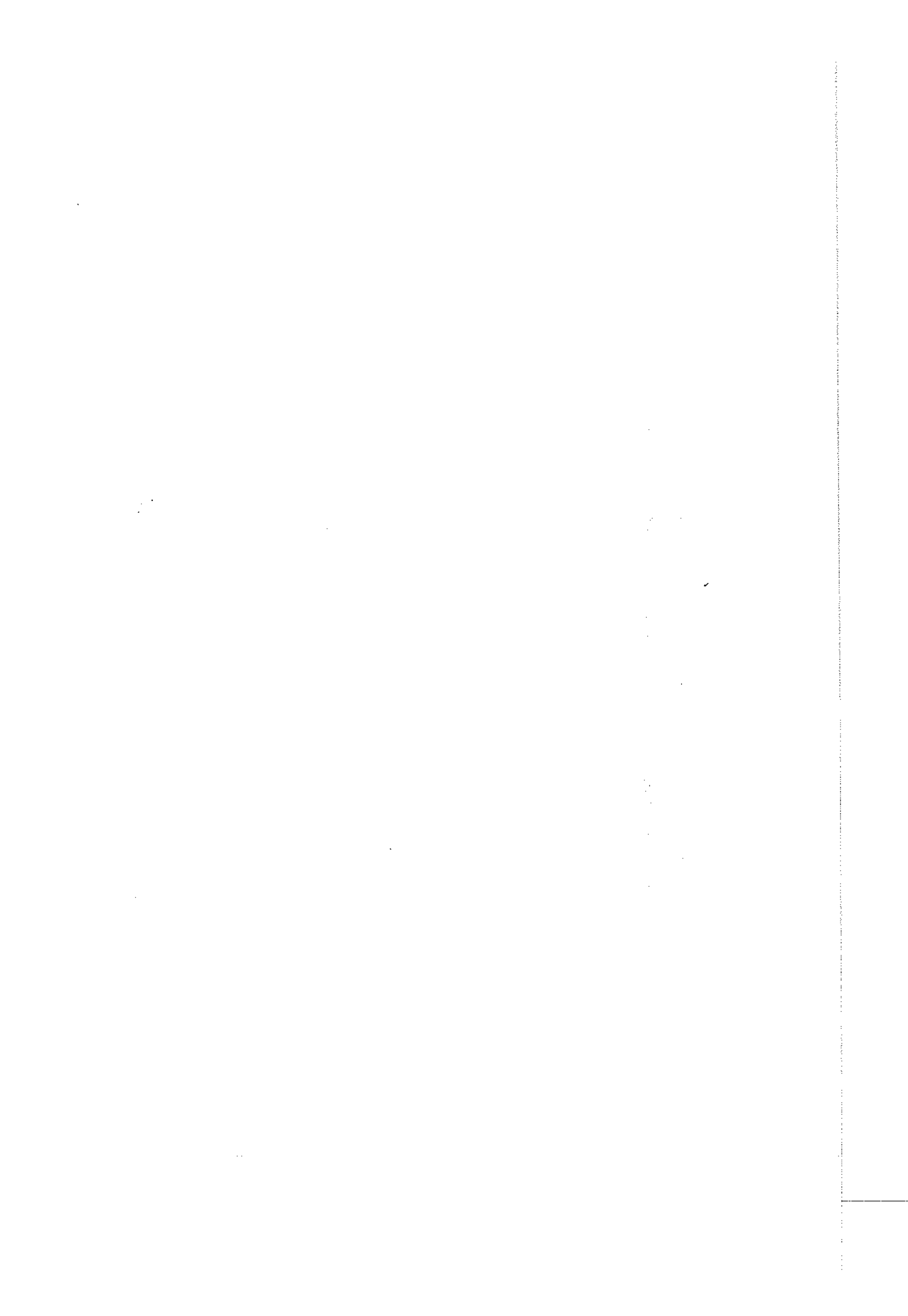
(١) الأغاني، جـ٦، ص ٧٤.

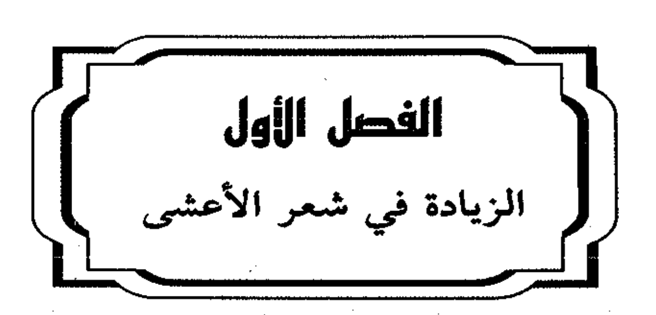
(٢) المصدر نفسه، جـ١، ص ١٣٨.



الباب الخامس

الزيادة في الأشعار





الفصل الأول
الزيادة في شعر الأعشى

على الرغم من تلك المبالغات التي شوهت صورة حماد، وعلى الرغم من أنها جميعاً لا تخرج عما هو ملحوظ في مجال الرواية الشفوية من الزيادة أو الإضافة أو إدخال قافية على قافية تشترك معها في الإيقاع والتركيب، وقد ثبت لنا حتى الآن أن هذه الزيادة قد تصبح نقصاً، فنجد روايته أقل بكثير أو قليل من رواية غيره ممن يتحري الدقة والضبط. فإن حماداً نفسه كان يحس بأن بعض الشعر الذي يرويه يدخل في ذلك النهج وعلى ذلك المنوال، فكان يتهم نفسه قبل أن يتهمه غيره، يقول:

«ما من شاعر إلا زدت في شعره أبياتاً، فجازت عليه إلا الأعشى، أعشى بكر، فإني لم أزد في شعره قط غير بيت، فأفسدت عليه الشعر.

قيل له: وما البيت الذي أدخلته في شعر الأعشى، فقال:

وَأَنْكَـرَتْنِـي وَمَـا كَـانَ الَّـذِي نَكَـرَتْ   مِنَ الحَوَادِثِ إِلَّا الشَّيْبَ وَالصَّلَعَا»[1]

وإن أهم ما ينبغي علينا ملاحظته هو: «زدت» و «أدخلته»، فهو لم يقل: **«عملت أو صنعت»**، فنسبته له، وإنما حصر اتهامه لنفسه بالزيادة وإدخال شعر في شعر. وهذه ملاحظة كان ينبغي لنا أن نأخذها بعين الجد،

(١) ابن عبد ربه، العقد، جـ ٥، ص ٣٠٧.

فلا نخرجها عن مضمونها الذي جاءت فيه، وهذه هي عين التهمة التي أطلقها ابن سلام، فدَوَّت بين النقاد مما سنراه بعد قليل.

ومن ثم، فإنه اعترف بأن هذا لم يجر إلا في حدود أبيات. وإذا كنا نعلم أن دواوين الشعراء، وقصائدهم ومقطعاتهم اشترك فيها رواة «**مصححون منقحون**»، كما يعتد بذلك الأصمعي، أفليس من حق البحث العلمي أن يتخذ من تلك الروايات نماذج أصلية يقيس عليها؟ ولو فعلنا هذا، فإننا بالتأكيد سنخرج بقناعة تامة بأن هذا الاتهام كان نتيجة قصور يعتري الذاكرة فيؤثِّر على التلقين الأول الذي وَصَله من مصدره الرئيس، وهذا مما يُبْرِز إحساساً بالذنب لدى صاحبه الذي شعر أنه إنما يقوم بذلك متعمداً لأنه لم يتوثق كل التوثيق من روايته، مما يدل على رهافة حس وشعور عميقين بالمسؤولية، بل على مراجعة مستمرة للمرويات الشفوية.

وإزاء هذا الكم الكبير من الأشعار المختزنة في ذاكرته على تعددها وتنوعها، فإن قبول الإضافة والزيادة على أصل ما، أمر لا يمكن أن تتخلص منه أية قصيدة جاءت من الموروث الشفوي، ولدينا شاهد على ذلك في همزية الحطيئة؛ ودواوين الشعراء مليئة بهذه النماذج التي لا تحصى في كل رواية *recension* من رواياتها. وإذن، فليس مطعناً في حماد أو غير حماد، أن تختلف روايته عن رواية غيره، فتطول أو تقصر، ما دامت هناك رواية ما *Version*، وتأسيساً على هذا، فهل يعقل أن لا يزيد حماد في شعر الأعشى إلا بيتاً واحداً هو ذاك؟ إن شعر الأعشى أقرب إلى السهولة في الزيادة من شعر زهير، أو لبيد، أو شعر المعلقات الأخريات باستثناء معلقته، فإذا لم يزد حقاً إلا بيتاً واحداً، فهذا أدعى إلى الركون إليه وإلى توثيقه، وهو دليل قاطع على الوعي والحضور في ممارسته لمهمته، مما جعله يحس بهذه الزيادة فيثبتها على نفسه، ولو زاد في شعره أبياتاً أخرى، أو حتى نسب إليه قصائد كاملة، فإن هذا لن يصبح مطعناً فيه،

وإنما هو أمر طبيعي يعرض للذاكرة البشرية، التي لم تقيد العلم، ولم تعتمد الكتابة. وعلى كل، فهي شهادة توثيق، وليست شهادة طعن، فها هو أبو عمرو بن العلاء الراوية الثقة، يعرض له ما عرض لحماد، فتتوارد روايتهما، لتأتي دليل إنصاف وتقدير، بل باعث رأفة أيضاً بالرواة الذين يكابدون في سبيل المحافظة على الرواية زمناً طويلاً، وإلى جانبها تزدحم الأشعار والأقوال، حتى يحس الراوية من نفسه ما أحسه حماد وأبو عمرو، فالزجاجي يروي قائلاً:

«حدثني المغيرة بن محمد، والقاسم بن إسماعيل، قالا: حدثنا التوجي عن أبي عبيدة قال: سمعت أبا عمرو يقول في علته التي مات فيها: والله ما كذبت فيما رويته حرفاً قط، ولا زدت فيه شيئاً إلا بيتاً في شعر الأعشى، فإني زدته فقلت:

وأنكرتني وما كان الذي نكرت   من الحوادث إلا الشيب والصلعا

فحدثني القاسم بن إسماعيل بن محمد، عن التوجي، عن أبي عبيدة قال: فاعتقدت أن بشاراً أعلم الناس بالشعر وألفاظ العرب، قال لي وقد أنشدت أول هذه القصيدة للأعشى فمر هذا البيت: «وأنكرتني»، فقال لي كأن هذا ليس من لفظ الأعشى.

وكان قوله هذا قبل أن أسمع هذا من قول أبي عمرو بعشرين سنة»[1].

فموقف أبي عمرو بن العلاء هو موقف حماد، وموقف حماد هو موقف أبي عمرو، وكلاهما يعتمد على الذاكرة، ولكن الذاكرة وحدها، مهما كانت قوتها لا بد لها من عوامل ضعف ونسيان.

هذا على افتراض صحة الزيادة أكانت من حماد أم من أبي عمرو،

---

(١) مجالس العلماء، ص ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦.

والحقيقة التي غابت في ثنايا هذا النص، الذي أتخذ لمزاً في أبي عمرو أيضاً، هي أن أبا عمرو لم يزد البيت. فهذا يونس، وهو من هو في موقفه من حماد، يروي عنه ابن سلام:

«لقيت يونس، فسألته: من الذي يقول هذا البيت؟ فقال: الأعشى.

ثم يمضي ابن سلام يتحرى الصحة منه، فيسأله مرة أخرى:

ما قول أبي عمرو؟

فيجيبه يونس:

قال أبو عمرو: وما بقي بعد الشيب والصلعا؟! كان ينبغي أن يتأتى لأن يقول: الذي نكرت الشيب والصلع»[1].

فيونس يثبت البيت للأعشى، ويفسر قول أبي عمرو هذا التفسير، وهو تفسير يتدخل في معنى الشعر وتركيبه، فأبو عمرو يوافق الفتاة على موقفها من الشيب والصلع في الأعشى، وهو يريد أن ينفيه عنه. أما الاستناد إلى قول بشار والإشارة إلى أن أبا عبيدة سمعه قبل رأي بشار بعشرين سنة، فإنه ذو أوجه متعددة منها: أن رواية يونس سابقة على رواية أبي عبيدة، وهو الذي ذكر هذه الزيادة من أبي عمرو، وهو الذي وجهها هذا التوجيه.

ومنها أن رواية أبي عبيدة كانت عن يونس. ففي الخبر الذي ذكره ابن الأنباري عن ابن سلام:

«قال أبو عبيدة قال يونس: قال أبو عمرو بن العلاء: أنا الذي زدت

---

(١) ابن الأنباري، شرح المفضليات، ص ٥٦٥، والخبر غير موجود عند ابن سلام في طبقاته. وقد اتخذ طه حسين من هذا الخبر سنداً ضد أبي عمرو أيضاً. في الأدب الجاهلي، ص ١٧١.

بيت الأعشى في شعره، يعني: وأنكرتني، فسار في الناس وذهب، فأتوب إلى الله منه. وقال: لم أزد في أشعار العرب غيره»[1].

وقد رأينا أن رواية الزجاجي تجعل أبا عبيدة ينقل الخبر عن أبي عمرو مباشرة عند موته، وواضح أن الخبرين كليهما واحد، واحتمال نقل يونس الخبر راجح جداً لتعاصرهما، فأبو عمرو (ت ١٥١ هـ)، ويونس (ت ١٨٥ هـ)، وأبو عبيدة (ت ٢٠٦ هـ)، فأبو عبيدة في حقيقة الأمر سمع الخبر من يونس أو من جوان في رواية ابن الأنباري، اللذين سقط منهما من رواية الزجاجي، وإن كان سمع رأي بشار فيه قبل ذلك.

ومنها أن بشاراً الذي اعتُقِد فيه أنه «**أعلم الناس بالشعر وألفاظ العرب**»، قال: «**كأن هذا ليس من لفظ الأعشى**»، **ولم يقل إنه ليس من لفظ الأعشى. وبهذا يترك بشار مجالاً للاحتمالات، ثم ما الذي يمنع أن يكون بشار قد تأثر بما سمع عن زيادة أبي عمرو بن العلاء هذا البيت، حسب الفهم الذي فهمه أبو عبيدة، فقال ما قال، خاصة أن يونس سبق أن سمعه قبلهما؟**

ومنها أن رواية القصيدة بكاملها رواية بصرية كما قال أبو عبيدة: «**أنشدت أول هذه القصيدة للأعشى، فمر هذا البيت**»، وهي حسب المقاييس البصرية، قصيدة صحيحة موثقة أجيزت للرواية، وهي على هذا غير قاصرة على أبي عمرو، وإنما يشاركه فيها أبناء مدرسته، ولهذا علل يونس قول أبي عمرو ذلك التعليل، مثبتاً نسبة البيت للأعشى.

ومن هذه الأوجه أن هذه النتائج تؤدي إلى نفي تهمة زيادة البيت عن حماد وتوثق روايته، فهو ليس الوحيد الذي يروي البيت، وإنما هناك أبو

---

(١) المصدر نفسه.

عمرو العالم الثقة، وهناك المدرسة البصرية بخصميها اللدودين له: يونس وابن سلام، إضافة إلى أبي عبيدة.

ومنها أيضاً أنه إذا أردنا قبول احتمال آخر من ضمن الاحتمالات المتاحة لتفسير معنى «زدت»، في قول أبي عمرو أو حماد، فهو أن هذا البيت من الأبيات الكثيرة التي كثيراً ما تداخلت في رواية قصيدة ما، وذلك نتيجة للاتفاق في الوزن والقافية وتلاؤم النسيج، وهي علة العلل في الرواية الشفوية، بحيث قد تؤدي إلى توهم القول وزيادة الشعر كأن الراوية هو صانعه، وهذا ما نرى حماداً يقع فيه عند سماعه قصيدة الطرماح، وهو توهم خامر تفكير كل راوية من الرواة الأوائل، وهو كذلك ما حدث لأبي عمرو بن العلاء، إن لم نقبل تفسير يونس، الذي كان يمر بهذه الحالات.

وبعد كل ذلك، فليس من شأننا الدخول في اتهام بشار أو يونس أو غيرهما، وقد رأينا كيف تساق القصيدة ذلك المساق، وذلك أن هناك رواية أخرى للقصة تثبت كل ما استنتجنا؛ فالحاتمي (ت ٣٨٨ هـ) يوردها كما شاءت الروايات أن تكون ثم يختتمها بقوله: «قال المفضل ـ وكان حاضراً مجلسه ـ (أي مجلس أبي عمرو ابن العلاء الذي أدلى فيه باعترافه ذاك) ـ «قد كنت اسمع بهذا البيت في القصيدة، ولكنك الصادق البر، كثر الله في أهل العلم مثلك»[١].

فالمفضل الضبي (ت ١٦٨ هـ)، والمعاصر للرجلين وبشار، يحاول في أدب جم، ومراعاة عالية لأستاذ له منزلته، أن يذكره بواقع البيت، ولكن الأمر ما زال ملتبساً على ذلك العالم الجليل، في حين أن المفضل يعلم علم اليقين، أنه بيت في قصيدة الأعشى.

وهكذا خرج حماد من تلك التهمة بعد أن أقرّ نده بحقيقة الرواية.

---

(١) حلية المحاضرة، جـ ٢، ص ٣٩.

الفصل الثاني

الزيادة في شعر الحطيئة

أ ـ الهمزية:

من الغريب جداً، بل من المثير للدهشة إلى حد كبير، ألا نجد مرويات لحماد ذات أشعار يَسِمها القدماء بأنها من الشعر المصنوع، حسب المفهوم الدقيق لهذه الكلمة، أي ذلك الشعر الذي قلد فيه حماد الشعر الجاهلي، وصاغ على غراره أشعاراً نسبها إلى شاعر قديم ثم زعم أنها له. وعلى الرغم من كل ما قيل عن صناعة حماد وبراعته في الغش والتزييف والانتحال، فإننا لم نعثر حتى الآن إلا على واقعتين صريحتين في ذلك استخدمت فيهما مثل تلك المصطلحات، الأولى شأنها يسير جداً، ومن المغالاة إدراجها ضمن هذا التصريح لولا أن الألفاظ نفسها تشير إليها، وتحتم النظر إليها على أنها وحدة واحدة *entity*، حتى نصل في مناقشتها إلى التعرف على حقيقتها. فلقد جاء في ديوان الحطيئة قول لأبي حاتم السجستاني، العالم البصري، وتلميذ الأصمعي، بعد البيت السابع والعشرين، الذي يقول فيه الحطيئة:

وَثَغْـرٍ لاَ يُقَـامُ بِـهِ كَفَـوْكُـمْ ... وَلَـمْ يَـكُ دُونَهُـمْ لَكُـمُ كِفَـاءُ

من قصيدته التي مطلعها:

أَلاَ أَبْلِـغْ بَنِـي عَـوْفِ بْـنِ كَعْـبٍ ... فَهَـلْ قَـوْمٌ عَلَـى خُلُـقٍ سَـوَاءُ[1]

---

(١) ديوان الحطيئة، ص ص ٩٨ ـ ١١٥.

«قال أبو حاتم هذا آخرها. وفي كتاب حماد الراوية زيادة من هذا الموضع بيتان، قال أبو حاتم: هما مصنوعان مردودان».

بــزاخــر نــائــل سبــط ومجــد مخــالطــه العفــافــة والحيــاء
وأمضـــى مـــن سنـــان أزأنـــي طعنـــتُ بـــه إذا كـــره المضـــاء[1]

فأبو حاتم لم يكتف بمعاملة البيتين على أنهما «زيادة»، بل تجاوز ذلك إلى الحكم عليهما بأنهما: «مصنوعان مردودان». والحقيقة أن النقاش حولهما ينقلنا إلى الملاحظات التالية:

١ ـ أن رواية أبي حاتم توقفت عند سبعة وعشرين بيتاً فقط، على حين أن رواية القصيدة تبلغ اثنين وأربعين بيتاً، وهذه كلها زيادة قصّر فيها حماد، فلم تتهم، وأصبحت مقبولة عند غير أبي حاتم.

٢ ـ أن حماداً اشترك في النص الأصلي للقصيدة مع أبي حاتم وغيره، فالزيادة من الأمور الطارئة على جوهر القصيدة.

٣ ـ أن مخطوطات الديوان اشتملت على زيادات تتجاوز الكم المحصور في اثنين وأربعين بيتاً، فهناك قوله:

أَجِيـــلُ عَلَـــى الخِبَـــاءِ بِبَطْـــنِ قَـــوٍّ بَنَـــاتِ اللَّيْـــلِ فَـــاحْتُمِـــلَ الخِبَـــاءُ[2]

وقوله:

تَـــرَقَّـــى فِـــي أَعِنَّتِهَـــا قُـــرَيْـــعٌ فَسَعْـــدٌ كُلُّهَـــا لَهُـــمُ الفِـــدَاءُ
فَـــإِنَّكُـــمُ وَفَقْـــدَكُـــمُ قُـــرَيْعـــاً لَكَـــالمَـــاشِـــي وَلَيْـــسَ لَـــهُ حِـــذَاءُ
وَمُعْضِلَـــةٍ تَضِيـــقُ بِهَـــا ذِرَاعِـــي وَيُعْـــوِزُهَـــا التَّخَفُّـــرُ وَالبَـــلاَءُ
فَلَمَّـــا أَنْ دَعَـــوْتُ لَهَـــا بَغِيضـــاً أَتَـــانِـــي حِيـــنَ أَسْمَعَـــهُ النِّـــدَاءُ[3]

---

(١) المصدر نفسه، ص ٩٩.
(٢) المصدر نفسه، ص ٩٩.
(٣) المصدر نفسه، ص ١٠٨.

وقوله:

فَضَلْتَ بِخَصْلَتَيْنِ عَلَى رِجَالٍ ... وَرِثْتَهُمَا كَمَا وُرِثَ الوَلَاءُ[1]

وقوله:

إِذَا بَهَشَتْ يَدَاهُ إِلَى كَمِيٍّ ... فَلَيْسَ لَهُ وَإِنْ زُجِرَ انْتِهَاءُ[2]

وقوله:

إِذَا مَا المَرْءُ بَاتَ عَلَيْهِ وَكْفٌ ... مِنَ الحَدَثَانِ لَيْسَ لَهُ كِفَاءُ[3]

وقوله:

إِذَا كَانَ الشِّتَاءُ فَأَدْفِئُونِي ... فَإِنَّ الشَّيْخَ يَهْدِمُهُ الشِّتَاءُ

وَأَمَّا حِينَ يَذْهَبُ كُلُّ قُرٍّ ... فَسِرْبَالٌ خَفِيفٌ أَوْ رِدَاءُ[4]

فهذه كلها زيادات من هنا وهناك، فهل هي كلها مصنوعة مردودة أيضاً؟!

٤ ـ وكما تساءلنا فيما مضى عن كتاب حماد، نتساءل هنا عن نسخه أيضاً، فالبيت الأول مروي رواية مختلفة عن الرواية المستشهد بها، فهو:

بِزَاخِرِ نَائِلٍ سَبْطٍ وَمَجْدٍ ... تُخَالِطُهُ العَفَافَةُ وَالحَيَاءُ

والرواية الأخرى:

فَجُدْتَ بِنَائِلٍ سبط جزيل ... تخالطه الحفيظة والحياء[5]

وهكذا روى «أزأني» في البيت الثاني «أثربي»، نسبة إلى «يثرب» بدلاً من «يزن»[6].

---

(١) المصدر نفسه، الحاشية.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٠٩، بهش بيده: مدها.

(٣) المصدر نفسه، ص ١١٠.

(٤) المصدر نفسه، ص ١١٤.

(٥) المصدر نفسه، حاشية ص ١٠٨.

(٦) المصدر نفسه.

أي إن هذه الروايات المختلفة، لم تكن معتمدة على نسخة واحدة من نسخ كتاب حماد.

وإذا نظرنا إلى تعدد الروايات الداخلية لأبيات القصيدة، فإننا نجد أنه ما من بيت فيها يخلو من ذلك.

وهكذا يقودنا هذا إلى استنتاج أن هذين البيتين اللذين، على الرغم من الاتهام بأنهما مصنوعان، ما هما إلا بيتان زائدان «**زيادة**»، كما اقترح أبو حاتم بادىء الأمر، ولأنهما زائدان عن روايته، فهما إذن: «**مصنوعان مردودان**»، وهنا تتكشف لنا دلالة أخرى من دلالات مفهوم الصنعة، وهي الزيادة أو التزيد، أو مخالفة الرواية التي يتبناها عالم من العلماء.

ب ـــ اللامية:

تمسك رجال المدرسة البصرية المتأخرون من أمثال الأصمعي وابن سلام وخلف الأحمر وأبي حاتم السجستاني برواية حققوها، وقبلوها، فلم يسمحوا للتفاوت في الروايات المغايرة لرواياتهم، ولم يشرحوا صدروهم لروايات منافسيهم خاصة، فأقبلوا على اتهام أدنى زيادة، بل شنوا على رواتها حملة تشويه وهدم.

وهذا أبو حاتم السجستاني الرجل العالم الثقة، وتلميذ الأصمعي، ومن أبناء المدرسة البصرية يعود مرة أخرى ليتصيد مثالب على حماد، فلا يورد إلا إشارة تطعن فيه طعناً هيناً. فهو يقول في روايته لديوان الحطيئة، بعد إيراده البيت الرابع والعشرين:

لَعَمْـــرِي لَنِعْـــمَ المَـــرْءُ لاَ مُتَهَـــاوِنٌ ... عَـنِ السُّـورَةِ العُلْيَـا وَلاَ مُتَخَـاذِلُ[1]

من قصيدته التي مطلعها:

---

(١) ديوان الحطيئة، ص ٢٦.

أَرَى العِيرَ تُحْدَى بيْنَ قِنٍّ وَضَارِجٍ كَمَا زَالَ فِي الصُّبْحِ الأُشَاءُ الحَوَامِلُ[1]

«هذا آخرها، وفي كتاب حماد الراوية بيت زائد هو: (لعمري لنعم...)، وليس هذا البيت بشيء».

والواقع أن هذا الحكم ينقض القضية برمتها، ويوشك أن يقنعنا بأن الخلاف بين العلماء يكاد ينحصر في التزيد والخلط، وهما من السمات المميزة لكل شعر شفوي، حسبما ما مر بنا ذكره. وهنا نص صريح على ذلك: «بيت زائد»، وهذا يدخل في باب الزيادة، أو إن شئنا التزيد، وليس من باب الصناعة والنظم. وما توقُّف أبي حاتم، إلا اكتفاء بما لديه من رواية، ثم توجيه التهمة لمن زاد على ذلك، خاصة إذا كان من مدرسة غير مدرسته. وهذا ما يدل عليه كم القصيدة نفسها، فعددها في الديوان (٢٣) بيتاً، وأبو حاتم اكتفى بتسعة عشر بيتاً فقط، أي إن هناك أربعة أبيات زائدة، ثم إن هناك أيضاً بيت زائد في غير هذه الرواية، روته أربع مخطوطات للديوان هو:

نَظَرْتُ عَلَى فَوْتٍ ضُحيًّا وَعَبْرَتي لَهَا مِنْ وَكِيفِ الرَّأْسِ شَنٌّ وَوَاشِلُ[2]

والملحوظ أن رواة الديوان الرئيسين أغلبهم بصريون متشددون من أمثال يعقوب ابن السكيت (١٨٦ ـ ٢٤٤ هـ)، والسكري (٢١٢ هـ ـ ٢٧٥ هـ)، إلى جانب أبي حاتم السجستاني (ت ٢٥٥ هـ)، وإلى جانبهم يأتي خلف الأحمر[3]، تلميذ حماد، (ت ١٨٥ هـ)، وأبي عمرو الشيباني[4]، العالم الكوفي (١٩٦ هـ ـ ٢١٣ هـ).

---

(١) المصدر نفسه، ص ص ١٨ ـ ٢٤.

(٢) ديوان الحطيئة، ص ١٩.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٢.

(٤) المصدر نفسه، ص ص ٢٥ ـ ٢٧.

وإذا ألقينا نظرة فاحصة على رواية القصيدة ذاتها، نجد أنها متعددة الروايات، فليس فيها بيت واحد إلا وفيه لفظة محرفة أو مصحفة، أو ذات رواية مختلفة، وهذا أقوى دليل على تعدد مصادر روايتها، وأنها لم تأت من رواية واحدة، مما يدخلها، دونما جدل، في مسيرة الرواية الشفوية.

وعلى هذا، فليست رواية حماد شاذة، أو منكرة، بل هي في السياق التاريخي والأدبي للقضية الكبرى، قضية الرواية الشفوية، ويبرهن على ذلك رواية ذلك البيت الزائد نفسه عن حماد، ففي شرح الديوان نفسه جاء البيت متعدد الروايات.

لعمري لنعم المرء لا متهاون/ لا متقاصر

عن السورة العليا ولا متخاذل/ ولا متفاضل[1]

بل إنه جاء في مختارات ابن الشجري (ت ٥٤٢ هـ)، نقلاً عن أبي حاتم نفسه، وبرواية مختلفة، على الرغم من أنه طعن فيه في روايته الديوان:

عن السورة العليا ولا متضائل[2].

أي إن لدينا الآن ثلاث روايات هي: **«متخاذل»** و**«متفاضل»** و**«متضائل»**.

فماذا يعني ذلك، إذن، ونحن نرى هنا روايات متعددة؟ إنه يعني أن الروايات جميعاً روايات واردة، وأنه إلى جانب رواية حماد، هناك روايات أخرى تروي البيت نفسه، لأن رواية أبي حاتم للبيت، هي تلك، وأن الأخريات تقف إزائها. وإذا افترضنا أنها كلها منقولة عن كتاب حماد، فهذا يعني أيضاً أن هناك نسخاً متعددة لرواية حماد، وهنا يخرج حماد عن أن

---

(١) المصدر نفسه، ص ٢٦.

(٢) ابن الشجري، مختارات ابن الشجري، ص ٤٩٤.

يكون مسؤولاً عن كل التحريفات والزيادات، مع جوازها في كل حالة.

ويحق للمرء أن يسأل عن المعايير النقدية التي أوصلت أبا حاتم لأن يقول في استهانة وعدم اكتراث:

«وليس هذا البيت بشيء».

فالبيت من الناحية الفنية متطابق صياغة وأسلوباً وتركيباً مع بناء القصيدة، وهو من الناحية الموضوعية غير خارج عن جوها، ولا نجد فيه لفظة قلقة أو ركيكة أو توحي بالضعف واللين، بحيث نطلق عليه بيتاً «مولداً». فلماذا أصبح ليس بشيء؟ إن الجواب الظاهر للعيان، والماثل للقلوب، هو أنه أصبح ليس بشيء لأنه من رواية حماد، ولو رواه يونس أو خلف، أو الأصمعي، لصمت أبو حاتم، ولقبله على أنه جزء من هذه الرواية، فبيت واحد فقط يُبعِد حماداً من حلبة الرواية الشفوية التي هو فارسها، وهو تماماً ما فعله أبو حاتم عندما اتهم بيتين رواهما حماد في قصيدة الحطيئة الهمزية، بأنهما مصنوعان وضعهما حماد. ولعل القارىء والدارس والمنصف، يعاودون النظر في حكم هؤلاء الشيوخ الأفاضل، الذين حرصوا كل الحرص على ما في أيديهم، وربما وجدت تعليلات تفسر هذا السلوك، وهي **تعليلات تحققها هذه الروايات، فإما أن يكون دافعها هو الغيرة والحسد من رجل كان له السبق والشهرة، وإما أن دافعها هو المنافسة ومحاولة كسر هيبة علماء الكوفة بعد حماد، وذلك بتسديد الطعنات المستمرة إليه، وإما أن ضيق الأفق وحشرجة الصدر، والتقوقع على الذات، حالت دون فتح باب الرأفة والعطف أمام حماد وتلاميذه.**

الفصل الثالث
الزيادة في شعر زهير ابن أبي سلمى

أ ـ الرائية :

عرضنا توّاً نماذج للشعر «المصنوع» تمثلت في بيت للأعشى، وتبينا وجهة النظر حوله، ثم جئنا ببيتين في همزية الحطيئة، فبيت له أيضاً، وقد عاملنا هذا العدد المحدود على أنه زيادة لا ضرر منها، وهي في صلب قضية الرواية الشفوية.

ويبدو أن المعيار الذي، لم يسلم أحد منه ـ كان هو المحك الرئيس الذي جلب على حماد كل تلك التهم والأقوال فيه، ثم تضخم شيئاً فشيئاً ليصبح اتهاماً في الشعر ـ مادة روايته الرئيسة نفسها. وكلما تطاول الزمن، راح الناس يركزون على حماد ونظيره خلف، حتى غدا الأول نموذجاً للهدم في الكوفة، وغدا الآخر نموذجاً آخر على ذلك في البصرة. وجاء المحدثون فأغرقوهما بالإدانات والافتراضات، فأصبحا شبحين مخيفين، خاصة بعد أن قُرنا قسراً بالتيارات السياسية؛ فإذا بالأول في نظرهم يمسي زنديقاً، وإذ بهما معاً شعوبيين مفرطين في الشعوبية.

وهكذا اختلطت المفاهيم، التي كان ينبغي أن تقوم على أسس علمية، كما هو حال اختلاط الروايات الشفوية في كل ميدان شفوي. ومسألة الاختلاط والتداخل، بل حتى النسيان والتزيد، وأبعد من ذلك حتى التشويش في الرواية، هي من الأمور المعترف بها في قضية الرواية الشفوية

والاعتماد على الذاكرة. وربما كان من حسن حظ الأدب العربي في نهاية القرن الأول الهجري، وفي أثناء القرن الثاني، أن نجد مثل هذه الاختلافات، لأننا نصبح واثقين جيداً من أن أصولاً معينة تجمع بين هذه الروايات، وبالتالي يصبح من الممكن استخلاص نماذج رئيسة للقياس والمتابعة.

وكما تبين لنا منذ قليل، فإن هذه الظاهرة، ظاهرة التداخل والاختلاط، التي تقابلها ظاهرة محاولة التحري والتثبت أو إدعائها، هما اللتان كانتا تعرضان لحماد في بعض روايته، أو في بعض أوقاته، مثلما تعرضان لغيره من الرواة الشفويين. وكما بينا فهذا أمر مسلم به عند الجميع، حتى إنه كان يصيب من تراءى له أنه صحيح الرواية، سليمها من الطعن والتجريح.

وتثبت الأمثلة التي أوردناها أن خصومه، كانوا جميعهم يدورون حول هذه المسألة، ويستغلونها أبشع استغلال. ولدينا الآن نموذج آخر على هذه الزيادة أو ذلك التزيد، الذي ذهب فيه مذهب الصناعة والوضع والانتحال: «شعراً جيداً محدثاً»، «مصنوعة»، فلقد أورد أبو الفرج القصة التالية التي يتبين منها مختلف الجوانب السابقة، يقول أبو الفرج:

«في دار أمير المؤمنين المهدي بعيساباذ، وقد اجتمع فيها عدة من الرواة والعلماء بأيام العرب وآدابها وأشعارها ولغاتها، إذ خرج بعض أصحاب الحاجب، فدعا الحاجب بالمفضل الضبي الراوية فدخل، فمكث ملياً ثم خرج إلينا ومعه حماد والمفضل جميعاً، وقد بان في وجه حماد الانكسار والغم، وفي وجه المفضل السرور والنشاط، ثم خرج حسين الخادم معهما، فقال: يا معشر من حضر من أهل العلم! إن أمير المؤمنين يعلمكم أنه قد وصل حماداً الشاعر بعشرين ألف درهم لجودة شعره، وأبطل روايته لزيادته في أشعار الناس ما ليس منها، ووصل المفضل

بخمسين ألفاً لصدقه وصحة روايته، فمن أراد أن يسمع شعراً جيداً محدثاً، فليسمع من حماد، ومن أراد رواية صحيحة فليأخذها عن المفضل، فسألنا عن السبب، فأخبرنا أن المهدي، قال للمفضل لما دعا به وحده: إني رأيت زهير بن أبي سلمى افتتح قصيدته بأن قال:

دَعْ ذَا وَعَدِّ القَوْلَ فِي هَرَمِ

ولم يتقدم له قبل ذلك قول، فما الذي أمر نفسه بتركه؟ فقال له المفضل: ما سمعت، يا أمير المؤمنين في هذا شيئاً، إلا أني توهمته كان يفكر في قول يقوله، أو يروي في أن يقول شعراً فعدل عنه إلى مدح هرم وقال: دع ذا، أو كان مفكراً في شيء من شأنه فتركه، وقال: دع ذا، أي دع ما أنت فيه من الفكر وعد القول في هرم، فأمسك عنه. ثم دعا بحماد، فسأله عن مثل ما سأل عنه المفضل، فقال: ليس هكذا قال زهير، يا أمير المؤمنين، قال فكيف قال؟ فأنشده:

لِمَنِ الدِّيَارُ بِقُنَّةِ الحِجْرِ ... أَقْوَيْنَ مُذْ حِجَجٍ وَمُذْ دَهْرِ
قَفْرٌ بِمُنْدَفِعِ النَّحَائِتِ مِنْ ... ضَفْوَى أُولَاتِ الضَّالِ وَالسِّدْرِ
دَعْ ذَا وَعَدِّ القَوْلَ فِي هَرِمٍ ... خَيْرِ الكُهُولِ وَسَيِّدِ الحَضْرِ

... فأطرق المهدي ساعة، ثم أقبل على حماد فقال له: قد بلغ أمير المؤمنين عنك خبر لا بد من استحلافك عليه، ثم استحلفه بأيمان البيعة، وكل يمين محرجة ليصدقنه عن كل ما يسأله عنه، فحلف له بما توثق منه، قال: أصدقني عن حال هذه الأبيات، ومن أضافها إلى زهير، فأقر له حينئذ أنه قائلها، فأمر فيه وفي المفضل بما أمر به من شهرة أمرهما وكشفه»(1).

(1) الأغاني، جـ٦، ص ص ٨٥ ـ ٨٧.
القنة: أعلى الجبل. الحجر: حجر اليمامة، النحائت: آبار في موضع معروف.
ضفوي: موضع دون المدينة.

وأضاف السيوطي على أن القصة حدثت في خلافة الرشيد لا المهدي، فقال:

«روي أن هارون الرشيد قال للمفضل بن محمد: كيف بدأ زهير بقوله:

دع ذا وعد القول في هرم

ولم يتقدم قبل ذلك شيء ينصرف عنه، فقال المفضل: قد جرت عادة الشعراء بأن يقدموا قبل المديح نسيباً، ووصف إبل وركوب فلوات، ونحو ذلك، فكأن زهيراً همَّ بذلك، ثم قال لنفسه: دع هذا الذي هممت به مما جرت به العادة، واصرف قولك إلى مدح هرم، فهو أول من صرف إليه القول ونظم، وأحق من بدىء بذكره الكلام وختم، فاستحسن الرشيد قوله. وكان حماد الراوية حاضراً، فقال: يا أمير المؤمنين! ليس هذا أول الشعر، ولكن قبله:

لمن الديار بقنة الحجر

وذكر الأبيات الثلاثة، فالتفت الرشيد إلى المفضل، وقال: ألم تقل إن (دع ذا...)، أول الشعر؟ فقال: ما سمعت بهذه الزيادة إلا يومي، ويوشك أن تكون مصنوعة. فقال الرشيد لحماد: أصدقني، فقال: يا أمير المؤمنين، أنا زدت فيه هذا الأبيات، فقال الرشيد: من أراد الثقة والرواية الصحيحة فعليه بالمفضل، ومن أراد الاستكثار والتوسع فعليه بحماد»[1].

وروى السيوطي أيضاً:

«عن بعض النقلة أن هذا البيت ليس لزهير، لأنه لم يعرف في بلاد العرب، موضع يقال له: الحجر، بالألف واللام، وإنما هو حجر، وهي

(١) شرح شواهد المغني، جـ ٢، ص ٧٥٤.

قصبة اليمامة، اسم علم لا تدخله الألف واللام، إلا أن يقول قائل: إن زهيراً، إنما أراد بقنة حجر، ثم زاد الألف واللام، وهو يريد سقوطها، على حد قوله:

«يا ليت أم العمرو كانت صاحبي»[1].

وعلى الرغم من المسار الذي سيقت فيه هذه القصة، فإن هذا المسار يحدد ما ذكرناه، وذلك على النحو التالي:

١ ــ أن البيتين المذكورين هما من قبيل تَسرُّب الذاكرة في المقام الأول، أي من باب التداخل والاختلاط.

٢ ــ أن هناك نصاً مجمعاً عليه يتمثل في هذه القصيدة، كمثال، في عشرين بيتاً. وهذه إيجابية من الإيجابيات التي ينبغي أن توضع في الحسبان.

٣ ــ أنه يفترض أن تتخذ هذه، هي القاعدة التي تقاس عليها على رواية حماد، لا على جزء يسير يُعَمِّي الصورة ويُخفي الحقيقة. فإذا أدركنا بعد ذلك هذه الجوانب، فإن هناك مسائل تأتي في بؤرة النقاش، وهي:

١ ــ أن رواية أبي الفرج نفسها مختلفة عن رواية الديوان مثلاً، فرواية الديوان بها ثلاثة أبيات وذلك بزيادة البيت:

لَعِـــبَ الـــرِّيَـــاحُ بِهَـــا وَغَيَّـــرَهَـــا ... بَعْـدِي سَـوَافِـي المُـورِ وَالقَطْـرِ[2]

وذلك بين البيت المطلع والبيت الثاني.

٢ ــ أن الأبيات مختلفة الرواية، وذلك على النحو التالي:

---

(١) شرح شواهد المغني، جـ ٢، ص ص ٧٥٣ ـ ٧٥٤.

(٢) شرح شعر زهير، ص ص ٧٦ ـ ٧٧، وانظر بقية القصيدة، ص ص ٧٧ ـ ٨٢.

البيت الأول:

رواية أبي الفرج:

الحَجْرِ ـ مذ حجج ومن دهر.

الديوان:

أبو عمرو الشيباني:

الحِجْر/ الحَجْر ـ مذ حجج ومن دهر.

أبو عبيدة:

مذ حجج ومذ شهر.

البيت الثاني:

أبو الفرج:

حِجْر، قَفْر، ضَفْوَى.

الديوان:

الأصمعي:

ضفوَي.

غيره:

صَفْوَى.

٣ ـ أن عالماً بصرياً «ثقة»، هو الأصمعي، روى هذه الأبيات بزيادة البيت الذي ذكرنا زيادته، واشترك معه أبو عبيدة، إلى جانب أبي عمرو الشيباني في رواية البيتين الزائدين؛ فهل نقبل هذه الروايات على أنها من حماد، مع أن ظاهرة اختلاف الروايات دليل قاطع على أنها جاءت من مصادر مختلفة.

٤ ـ وبغض النظر عن كون المفضل الضبي، عالماً كوفياً يهاجم عالماً كوفياً مثله بتأثيرات المنافسة والعصر، فإنه لا الأصمعي، الذي لم

يرض رواية حماد، ولا أبو عبيدة، الذي نقل اتهاماً عن حماد، اعترضا على هذه الرواية أو شكّا فيها، أو أشارا إلى رواية حماد بالنقص أو التقليل، بل حتى أبو عمرو الشيباني، لم يشر إلى أن هذه الأبيات مصنوعة.

٥ ــ أن هذه القصة تعني أن حماداً كان مقرباً من قبل العباسيين، وحماد كما رأينا كان بعيداً عنهم، مبعداً منهم.

٦ ــ لعل مما يبطل هذا الخبر، ويبعد اتصال المفضل بحماد، وإن كان متحفظاً من روايته، أنه كان يروي عنه من كتابه وليس مشافهة، فهو يقول:

«لم يروها المفضل من كتاب حماد»[١].

٧ ــ أن هذه القصة أكبر شاهد على الزيادة والتداخل كما هو واضح من قوله: **«أنا زدت هذه الأبيات»**، حسبما جاء في رواية السيوطي.

٨ ــ أن استسلام حماد بهذه السهولة يُرَجِّح ما نذهب إليه من بلوغه سن الشيخوخة حيث الضعف وتسرب الذاكرة، فقد وقعت الحادثة كما يفترض سنة ١٦٦ هـ، أي (١٦٦ ـ ٧٥ = ٩١).

٩ ــ يمكن أن يضاف إلى كل هذه الشكوك حول القصة، اتفاق خبر الأغاني وخبر السيوطي على أن هناك زيادة ما قبل هذه، لم يتبينها المهدي أو الرشيد، وإلا لما سألا عما سبق: «دع ذا. . .».

١٠ ــ واضح أن القصة موجهة بقصد، إذ كيف يسأل المهدي أو الرشيد الرواة عن شيء يعلم كل واحد منهما أنه غير موجود، فما دام زهير افتتح قصيدته بـ «دع ذا»، أو بدأ به، كما نص على ذلك المهدي ثم الرشيد،

---

(١) شرح شعر زهير، ص ٢٢٩.

فما سبق في علم الشاعر، ولا يعلمه أحد غيره، إلا أن يكون الهدف من السؤال الامتحان، أو بعبارة أخرى خلق قصة يظهر فيها حماد صانعاً للشعر، كما هو واضح من قول المهدي: «**قد بلغ أمير المؤمنين عنك خبر**».

١١ ــ في القصة وصفان للبيتين الزائدين: الأول: «**محدث**»، والثاني: «**مصنوعة**»، فمحدث: أي أحدثها حماد، فهما جديدان، ولكن صياغتهما قديمة. ومصنوعة: تعني ما يعنيه الأول، ولكن خبر السيوطي يضع احتمالاً وليس ترجيحاً، فهو يقول: «**يوشك أن تكون**»، وهذا التردد في الحكم يضعف الحكم نفسه، ويفتح مجالاً لاحتمال صحته.

١٢ ــ هناك أيضاً وصفان لحماد، الأول: «**حماد الشاعر**»، والثاني: «**حماد الراوية**»، وقد جاء الوصف الأول نتيجة لما سببه البيتان الزائدان. فهو إذن، راوية للشعر، يضيف ـ حسبما تذهب إليه القصة ـ أبياتاً من عنده.

١٣ ــ واضح من عبارتي القصتين:

«**زيادته في أشعار الناس ما ليس منها**»،

و

«**الاستكثار والتوسع**»؛

أن حماداً راوية فقط، وليس شاعراً، فهناك زيادة واستكثار ـ حسبما تزعم القصتان ـ ولكنها زيادة على أصل متفق عليه، وهي زيادة محدودة، لا تسمح بأن يوصف حماد فيها بأنه شاعر.

١٤ ــ أن التدقيق في القصتين يكشف عن منحاهما السياسي، فالمهدي الذي قرب المفضل، يَستحلِف حماداً بأيمان البيعة ـ وهو يعلم أن حماداً ليس من شيعته، مهما خضع له، وهو لا يَستحلِف المفضل، فالشك والريبة من حماد موقف متخذ مسبقاً. وسواء أصرح المهدي بتكذيبه أم لم يصرح، فهو موقف كائن، ولذلك خَلقت القصة هذا الجو المكفهر ضد

حماد من بدايتها حتى نهايتها، واستَخدمت عبارات تبعث نفسياً على النفور منه:

«بان في وجه حماد الانكسار والغم».

إلى غير ذلك من عبارات مشحونة بالحقد والكراهية لحماد، ممثل الدولة الأموية، وبقية من بقايا تاريخها المجيد ـ حماد الراوية.

١٥ ـ لقد ناقشنا أمر سن حماد واحتمال لقائه المهدي وهو شيخ متهدم، وناقش لايل بناء عيساباذ، مكان القصة وأثار شكاً قوياً حولها[١]، ووافقه على ذلك الأسد[٢] وجواد علي[٣]، ونحن نضيف هنا أن حماداً كان يزور بغداد في عهد المنصور، مثلما تقول رواية استدعائه من قِبَل ابنه جعفر بن أبي جعفر المنصور[٤]، ولكنه انقطع بعد أن شاخ عنها فأقام في بلدته الكوفة، وكان في خوف على نفسه حتى كاد يكون مختفياً عن الأنظار خشية من العقاب السياسي[٥]، وبما أنه روي أنه أنشد المهدي أبياتاً في السكر[٦]، فإنه ربما استدعي إلى بغداد في أوائل حكم المهدي. وكما رأينا سابقاً، **فإننا نذهب أبعد من ذلك، فنوافق القصة ـ حقيقة ـ على أن حماداً اجتمع بالمفضل في عيساباذ، ذلك لأن سنة وفاته مشكوك فيها، ومن المرجح أنه عاش حتى سنة ١٦٤ هـ أو ١٦٦ هـ[٧]. بيد أنه ينبغي الالتفات إلى وضع الشعر نفسه، فالمفضل روى الأبيات من غير مقدمة،**

---

(١) *The Mufaddaliyat. V.II, P. XVI - XVII*.

(٢) مصادر، ص ٤٤٣.

(٣) المفصل، جـ ٩، ص ٣١٧.

(٤) الأغاني، جـ ٦، ص ص٧٨ ـ ٧٩.

(٥) المصدر نفسه، جـ ٣، ص ٢٦١.

(٦) المصدر نفسه، جـ ٦، ص ص ٨٣ ـ ٨٤.

(٧) انظر نقاشنا فيما سبق حول سنة وفاته.

وحماد رواها بمقدمة، فكيف صُدِّق المفضل وكذب حماد، بحيث تنتهي تلك النهاية المسرحية في خروج حماد ودخول المفضل؟ وذلك، لأن المفترض أن يَقبل المهدي رأي الطرفين ما دام يجهل حقيقة الأمر.

١٦ ــ أن ما يمكن أن يضاف هنا، كنتيجة لهذا الخبر، الذي بعث الزوابع ضد حماد أن هناك احتمالاً، وهو إن لم يكن مصنوعاً بدوافع سياسية، فلعله كان نتيجة منافسة شخصية بين الاثنين، وهذا ينطبق على ما سيأتي من اتهام وجهه له أبو عمرو الشيباني أيضاً، ويبدو أن حماداً كان منتصراً في هذه المرة. يقول المرزباني (ت ٣٨٤ هـ):

«رواة الكوفة أربعة: حماد، ولقبه الخرجوني، وجناد، وابن الجصاص، والمفضل. ورواة بغداد أربعة: أبو عمرو الراوية (الشيباني)، والأثرم، وابن الأعرابي، والطوسي، تلاحوا في مجلس المنصور من أشعر الناس»[1].

فالقصة الأولى، على فرض صحتها، كانت انتقاماً شخصياً من حماد، نتيجة الملاحاة التي يبدو أن حماداً أَوجع فيها المفضل، كما أوجع فيها أبا عمرو أيضاً، وربما وَلَّد هذا الخبر استفسارات عن حقيقة أولئك الرواة والعلماء الذين اجتمعوا في عيساباذ: مَن هم ومن أين جاءوا؟ ولماذا عرفنا بعضهم هنا ولم نعرفهم هناك؟ ولماذا صمتوا عن التدخل بين الرجلين في مجلس المهدي، ولم يصمتوا في مجلس المنصور؟ أكلهم يوافقون هذه الرواية ثم ينقلونها ويثبتونها؟.

ونأتي هنا إلى ناحية قد تشكل قناعة لدى الكثيرين ممن سايروا ردحاً من الزمن تأثيرات القصة وسلبياتها، فإذا كنا نحن قراء الشعر الجاهلي

---

(١) نور القبس، ص ٢٦٩.

وهواته «نجيز» هذه التهمة على حماد دون محاجة أو مساءلة، فإننا بذلك نسقط الخبرة الشخصية والدراسة الأدبية لنخضع لأقوال بَعُدنا عن حقيقتها كل البعد. ولكي نصل إلى اتخاذ موقف مستقل ومحايد، علينا أن نتناسى أولاً الحادثة برمتها، وثانياً أن نكون نحن الحكام فيها، دون أن نوافق تلك الإصدارات، أو المصادرات الفكرية التي رأينا بعض جوانب مغالطاتها.

إن قراءة القصيدة مبتدئة أو مفتتحة بـ :

دع ذا وعد القول في هرم

ليس من أسلوب الشعر الجاهلي ولا طريقته، ولا بد للشاعر أن يسبق بشيء، غالباً ما يكون حديثاً في الغزل والناقة. وشواهد الشعر الجاهلي على ذلك كثيرة، فمنها قول النابغة:

يَـا دارَ مَيَّـةَ بِـالْعَلْيَـاءِ فَـالسَّنَـدِ ... أَقْـوَتْ وَطَـالَ عَلَيْهَـا سَـالِـفُ الأَبَـدِ

وَقَفْـتُ فِيهَـا أُصَيْـلَانـاً أُسَـائِلُهَـا ... عَيَّتْ جَـوَاباً وَمَـا بِـالـرَّبْـعِ مِـنْ أَحَـدِ

إِلَّا الأَوَارِيُّ لأْيـاً مَـا أُبَيِّنُهَـا ... وَالنُّؤْيُ كَالحَوْضِ بِالمَظْلُومَةِ الجَلَدِ

خَلَّـتْ سَبِيـلَ أَتِـيٍّ كَـانَ يَحْبِسُـهُ ... وَرَفَّعَتْـهُ إِلَـى السِّجْفَيْـنِ فَـالنَّضَـدِ

أَمْسَتْ خَلَاءً وَأَمْسَى أَهْلُهَا ارْتَحَلوا ... أَخْنَى عَلَيْهَا الَّذِي أَخْنَى عَلَى لُبَدِ

فَعَـدِّ عَمَّـا تَـرَى إِذْ لَا ارْتِجَـاعَ لَـهُ ... وَانْـمِ القُتُـودَ عَلَـى عَيْـرَانَـةٍ أُجُـدِ[1]

---

(١) ديوانه، ص ص ١٤ ـ ١٦.
أصيلاناً: تصغير أصيل، وهو العشي. عيت جواباً: لم تجبني.
الربع: منزل القوم. الأواري: جمع آري، وهو محبس الخيل ومربطها.
اللأي: البطء. النؤي: حاجز من تراب حول الخباء، لئلا يدخله السيل.
المظلومة: الأرض التي لم تمطر، فجاءها السيل فملأها. الجلد: الأرض الصلبة.
ردت: أي الأَمَةُ. أقاصيه: ما تباعد من ترابه وشذ منه.
لبده: سكنه بشدة. الوليدة: الأمة الشابة. الثأد: المكان الندي.
الأتي: السيل. خلت سبيل أتي: أي كنسته، ونحَّت ما فيه من مدر وغير ذلك، =

ومنها قول الأعشى:

فَـدَعْ ذَا وَلٰكِـنْ مَـا تَـرَى رَأْيَ كَـاشِـحٍ   يَـرَى بَيْنَنَـا مِـنْ جَهْلِـهِ دَقَّ مَنْشِـمِ[1]

وقول مزرد:

فَـدَعْ ذَا وَلٰكِـنْ مَـا تَـرَى رَأْيَ عُصْبَـةٍ   أَتَتْنِـيَ مِنْهُـمْ مُنْـدِيَـاتٌ عَضَائِلُ[2]

بل هذا زهير نفسه يستخدم النهج نفسه، فيقول في قصيدته القافية التي سنمر بها بعد قليل، وبرواية حماد أيضاً:

فَعَـدِّ عَمَّـا تَـرَى إِذْ فَـاتَ مَطْلَبُـهُ   أَمْسَى بِذَاكَ غُرَابُ البَيْنِ قَدْ نَعَقَا[3]

وعلى أساس هذا الاتباع في المذهب الشعري، وهو ما يعرف بـ «**في الخروج من النسيب إلى المدح وغيره**»، قال أبو هلال العسكري:

«**وكانت العرب في أكثر شعرها تبتدىء بذكر الديار والبكاء عليها، والوجد بفراق ساكنيها، ثم إذا أرادت الخروج إلى معنى آخر، قالت: فدع ذا، وسل الهم عنك بكذا، كما قال (امرؤ القيس):**

فَـدَعْ ذَا وَسَـلِّ الهَـمَّ عَنْـكَ بِجَسْـرَةٍ   ذُمُـولٍ إِذَا صَـامَ النَّهَـارُ وَهَجَّـرَا[4]

وفي ضوء هذا، نعود إلى الحكم الذي أصدره المهدي ـ بغض النظر

= لئلا يحتبس الماء فيه فيفسد تراب النؤي الذي حوله. رفعته: أي رفعت التراب.
السجفان: ستران رقيقان في مقدمة البيت.
النضد: الأوعية وجلال التمر إلى جانب السجفين، ينضد بعضها على بعض.
خلاء: خالية.
أخنى عليها: أي أفسد عليها الدهر الذي أفسد على لبد وهرّمه وأفناه، ولبد: آخر نسور لقمان بن عاد. القتود: عيدان الرحل. العيرانة: الناقة القوية والنشيطة الأجد: الموثقة الخلق.

(١) ديوانه، ص ١٢٣.
(٢) المفضليات، ص ١٧٧. المنديات: المخزيات. العضائل: الشدائد.
(٣) شرح شعره، حاشية ص ٤٤.
(٤) كتاب الصناعتين، ص ٤٧٤.

عن استشعاره شخصياً أن هناك مقدمة سقطت من القصيدة، وبغض النظر عن حكمه الجائر بعد هذا على حماد، ودون أن نثبت ملاحظة المفضل الضبي على ابتداء القصائد بالنسيب ـ لنحكم نحن على نتيجة الرجلين:

فليس من حق الأدب أن يطيل الوقوف في المسائل الشخصية، وهو يتعامل مع موروث شفوي، له طوابعه وخصائصه، ولكن الحكم الجائز، هو أن المفضل أثبت أنه لا علم له بمثل تلك المقدمة، وليس عيباً أو نقصاً ألا يكون لديه مثل ذلك، لأنه إنما يروي ما سمعه عن غيره، بعد أن بَعُد الزمن به عن الشاعر كثيراً؛ أما حماد، فسواء أكانت الأبيات لزهير أم لغيره، فهو أيضاً ليس مسؤولاً عن هذه الزيادة أو التداخل، لأن ذلك من طبائع الأشياء ههنا كذلك. ولعل هذه فضيلة لحماد، فقد حفظ ما لم يحفظه غيره، واستوعب ما نساه الآخرون، وبعد ذلك، فلا دخل لنا في معايير الصحة والسلامة، أو الأصالة، أو الانتحال، ما دامت مثل هذه المقدمة تجاري عرف الشعر الجاهلي العام، وما دامت تتوافق مع التركيب والصياغة واللغة في القصيدة، وربما جاز لنا أن نقبل رواية حماد بدلاً من رفضها، لأنه كان أكثر التصاقاً بزهير من المفضل، فالمفضل لم يرو لزهير شيئاً في مفضلياته، بينما كان حماد أحد رواة بعض قصائده.

وحقيقة الأمر في الجدل حول هذه القصة ومضمونها ـ وهي حقيقة أسقطت من نقاش القدماء والمحدثين على حد سواء، وهي بالنسبة للمحدثين أكثر مسؤولية ـ أن حماداً كان أكثر استدعاء للمحفوظ من المفضل، فعلى حين أن المفضل تمسك بالرواية التي يرويها المهدي، ولم يتجاوزها، سارع حماد إلى غربلة ذاكرته، فسرعان ما جادت عليه بتلك المقدمة؛ ويعد هذا الاستدعاء السريع ملمحاً من ملامح التفوق في قوة الذاكرة، فحتى لو لم تكن تلك المقدمة جزءاً من القصيدة، فإن المنوال الشعري يتطلب سداد تلك الثغرات، ولهذا وجد حماد، لا شعورياً، أن تلك المقدمة هي التي تسد مكان

المقدمة الساقطة، ولعلها هي هي، ولعلها ليست هي. وفي كلتا الحالتين، فإن ملء الفراغ، يعد تصرفاً ذكياً من حماد، لأن النسق الشعري يتطلب ذلك، وهذا يدل على أنه كان يتعهد محفوظه بالاستدعاء المستمر؛ أما المفضل، فكان في تقويم عمل الذاكرة، أقل نشاطاً من حماد، وهذا أمر غريب عند المقارنة بين سن حماد وسن المفضل[1].

ولعل هذا يفسر لنا ما جاء في القصة وقول حماد:

«أنا قائلها»

أو إقراره:

«إنه قائلها»

فسير الرواية *Process* ليس عملية آلية تقنية، وإنما هي عملية نفسية، تتأثر بحالات الاسترجاع والتعلم والاستدعاء والتعرف؛ومن غير نشاط الذاكرة، فلن يكون هناك استقرار في المحفوظ إلى حد ما، وهنا نجد حماداً يتوهم أنه هو الذي جاء بها من عند نفسه، في حين أنها تقدمت في سطح الذاكرة، لتلائم الإيقاع واللغة، أو لأنها هي كذلك، وهو ما ذكرته رواية السيوطي: «**أنا زدت هذه الأبيات**»، أي هي زيادة،ليس هو مسؤولاً عنها.

ومما هو مؤكد أن النسيان هو الذي عرض للمهدي، فلاحظ أن في القصيدة شيئاً ما محذوفاً، فهذه الملاحظة، هي التي تعمق وجود ذلك الشيء المفقود، والثابت علمياً أن النسيان لا يُلحظ، وإنما الذي يلحظ هو عدم القدرة على تَذَكُّرٍ ما[1]. ولقد كان الأولى أن نقبل رواية حماد لأن ما

---

(١) انظر حول هذا الموضوع: *Howe, Introduction..., PP. 18 - 19*.

أورده غائر في أعماق ذكراته، وقد كان من السهل عليه استدعاؤه[1].

وأخيراً، فإن ما قدمناه من أقوال، لا يعدو الجدل والنقاش، وإلا فالحقيقة أن حماداً كان يروي الشعر الموثوق به، وأن المهدي كان يعلم أن القصيدة تبدأ بما رواه حماد نفسه، وأن تلك القصص التي دارت لتفسير الحادثة، إنما هي قصص مألوفة في هذا المجال. فهذا الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ)، السابق على أبي الفرج، وعلى السيوطي، يروي ما يأتي:

«المهدي . . .

أبو الحسن (المدائني)، كان رجل من ولد عبد الرحمٰن بن سمرة، أراد الوثوب بالشام، فحُمل إلى المهدي، فخَلَّى سبيله وأكرمه، وقرب مجلسه، فقال له يوماً: أنشدني قصيدة زهير التي على الراء، وهي التي أولها:

لمن الديار بقنة الحجر ... أقوين من حجج ومن دهر»[2]

فهناك، وضعت القصيدة متأخرة، لتُظهر حماداً عاجزاً عن الدفاع عن نفسه، وفي موقع التهمة. كما تُظهر المهدي جاهلاً برواية القصيدة على حقيقتها. على حين نراه هنا في رواية قريبة العهد به وبالمفضل، وبحماد، عالماً بمطلع القصيدة حافظاً له، غير منكر سياقه. ولعل هذه النتيجة تفضي بنا إلى التساؤل عن مدى صحة الخبر الأصلي الذي رُوِّج عن حماد، وهل حقاً أصدر المفضل هذا الحكم، أم أنه اختُرِع من بعده، نكاية شخصية بحماد منه، أو من مصدر ما، خاصة أننا نجد المفضل يروي عن حماد، فلا يطعن في روايته.

---

(١) انظر حول صعوبة الاستدعاء وسهولته.

Ibid P. 15. Higbee, your memory, PP. 23 - 26.

(٢) البيان والتبيين، جـ ٢، ص ٢٥٨.

وبعد كل هذا، فإنه مما يوثق رواية حماد، ويجلو ما لحق به من تهم وما اعترى روايته من تحريف، أن تلميذه، أو لنقل منافسه، راوية البصرة، ومعاصره، خلف الأحمر (ت ١٨٠ هـ)، يروي المطلع المختلف عليه، وفي مصدر موثوق من المصادر الأقدم من الأغاني، الذي روى خبر التقاء المفضل بحماد، أي الشعر والشعراء لابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ)، بل إن خلفاً ليتجاوز تلك الرواية إلى عقد موازنة بين زهير وابنه كعب:

فقد روى ابن قتيبة في الشعر والشعراء ما يأتي:

قيل لخلف الأحمر: زهير أشعر أم ابنه كعب؟ قال: لولا أبيات لزهير أكبرها الناس لقلت إن كعباً أشعر منه يريد قوله:

لمن الديار بقنة الحجر ... أقوين من حجج ومن دهر
وَلأَنْتَ أَشْجَعُ مِنْ أُسَامَةَ إِذْ ... دُعِيَ النِّزَالُ وَلُجَّ فِي الذُّعْرِ
وَلأَنْتَ تَفْرِي مَا خَلَقْتَ وَبَعْضُ القَوْمِ يَخْلُقُ ثُمَّ لَا يَفْرِي
لَوْ كُنْتَ مِنْ شَيْءٍ سِوَى بَشَرٍ ... كُنْتَ المُنَوِّرَ لَيْلَةَ البَدْرِ[1]

أما ما رواه السيوطي من الاستشهاد بصناعة البيت:

«لمن الديار بقنة الحجر».

على أساس أنه: **«لم يعرف في بلاد العرب، موضع يقال له الحجر، بالألف واللام...»**، فهو قول ينقض نفسه بنفسه، لأنه يقول:

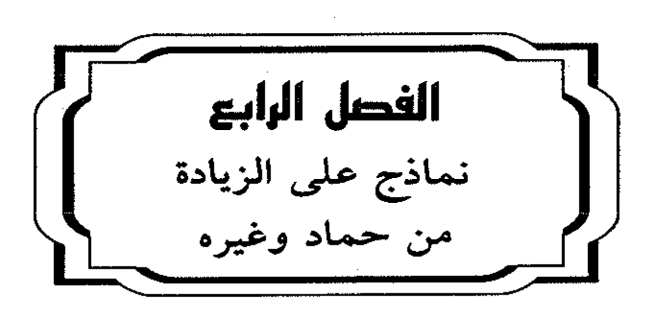
«إلا أن يقول قائل: إن زهيراً، إنما أراد بقنة حجر، ثم زاد الألف واللام...»، فهو يثبت هنا أن القول لزهير، وإنما يحاول تطبيق قواعد نحوية صارمة مستخلصة من نتائج عامة، على شعر سابق على القواعد النحوية الصارمة والنتائج العامة. ومن الملاحظ أنه حتى في هذا التطبيق،

---

(١) جـ ١، ص ١٣٩.

هناك خلط بين أسماء الأعلام: «**أم العمرو**»، وأسماء الأمكنة، إذ إن غالب أسماء الأمكنة معرفة بالألف واللام. وإذا كانت حجر اليمامة، مضافة إلى اليمامة، أليس هناك «**الحجر**» في غير اليمامة، إذ إنه من الواضح هنا أن حجر هذه منطقة ذات جبال: «قنة»، أي مرتفع، واليمامة أرض زراعية منبسطة، ثم إن الرواية المجمع عليها هي «**الحجر**»، **بكسر الحاء، وليس فتحها.**

ويبقى أن نعود مرة أخرى، إلى الخلط في الأسماء، فقد عرفنا أن حماداً كان مشهوراً بـ«الراوية»، غير أن المرزباني يقدمه لنا في قصة لقائه الأول بالمفضل على أنه المعروف بـ«الخرجوني»، فهل هناك حماد آخر توارى عن الأعيان، ليوضع مكانه حماد المغضوب عليه، أو المطارد بكل اتهام؟!



الفصل الرابع
نماذج على الزيادة
من حماد وغيره

١ ــ زهير بن أبي سلمى:

ولكي نكون أقرب إلى العدل والإنصاف في رؤية مواقف الطرفين، فإننا نعرض هنا أمثلة من الزيادة أو التزيد، التي اشترك حماد فيها إلى جانب غيره، بحيث نزن الأمور بميزان آخر غير ذلك الميزان الذي وُضع فيه حماد، فمن هذه الأمثلة ما يأتي:

روى حماد قصيدة زهير:

صَحَا القَلْبُ عَنْ سَلْمَى وَأَقْصَرَ بَاطِلُهْ ... وَعُــرِّيَ أَفْــرَاسُ الصِّبَــا وَرَوَاحِلُــهْ

كما رواها أيضاً الأصمعي، وأبو عمرو الشيباني وأبو عبيدة: ولكنّ حماداً زاد ثلاثة أبيات على الرواية التي توَقَّف عندها أبو عمرو، وهي:

تَرَى الجُنْدَ وَالأَعْرَابَ يَغْشَوْنَ بَابَهُ ... كَمَـا وَرَدَتْ مَـاءَ الكُـلَابِ هَـوَامِلُـهْ

إِذَا مَـا أَتَـوْا أَبْـوَابَـهُ قَـالَ مَـرْحَبـاً ... لُجُوا البَابَ حَتَّى يَأْتِيَ الجُوعَ قَاتِلُهْ

فَلَـوْ لَـمْ يَكُـنْ فِـي كَفِّـهِ غَيْـرُ نَفْسِـهِ ... لَجَـادَ بِهَـا فَلْيَتَّـقِ اللَّـهَ سَـائِلُـهْ

وإذا كانت هذه، هي الزيادة التي زادها حماد، فإن أبا عبيدة والأصمعي زادا على رواية أبي عمرو سبعة أبيات هي:

تَـــرَاهُ إِذَا مَـــا جِئْتَـــهُ مُتَهَلِّـــلاً كَـأَنَّـكَ تُعْطِيـهِ الَّـذِي أَنْـتَ سَـائِلُـهْ
وَذِي نَسَـــبٍ نَـــاءٍ بَعِيـــدٍ وَصَلْتَـــهُ بِمَـالٍ وَمَـا يَـدْرِي بِـأَنَّـكَ وَاصِلُـهْ
حُــذَيْفَــةُ يُنْمِيــهِ وَبَــدْرٌ كِــلاَهُمَــا إِلَـى بَـاذِخٍ يَعْلُـو عَلَـى مَـنْ يُطَـاوِلُـهْ
وَمَنْ مِثْلُ حِصْنٍ فِي الحُرُوبِ وَمِثْلُهُ لإِنْكَـارِ ضَيْـمٍ أَوْ لأَمْـرٍ يُحَـاوِلُـهْ
أَبَـى الضَّيْـمَ وَالنُّعْمَـانُ يَحْـرِقُ نَـابَـهُ عَلَيْـهِ فَـأَفْضَـى وَالسُّيُـوفُ مَعَـاقِلُـهْ
إِذَا حَـلَّ أَحْيَـاءُ الأَحَـالِيـفِ حَـوْلَـهُ بِـذِي لَجَـبٍ أَصْـوَاتُـهُ وَصَـوَاهِلُـهْ
يُهَـدُّ لَـهُ مَـا بَيْـنَ رَمْلَـةِ عَـالِـجٍ وَمَـنْ أَهْلُـهُ بِـالغَـوْرِ زَالَـتْ زَلاَزِلُـهْ[1]

بل نجد إضافة إلى ذلك، في خاتمة القصيدة بيتين لاحقين هما:

وَأَهْـلِ خِبَـاءٍ صَـالِـحٍ ذَاتُ بَيْنِهِـمْ قَـدِ احْتَـرَبُـوا فِـي عَـاجِـلٍ أَنَـا آجِلُـهْ
فَـأَقْبَلْـتُ فِـي السَّـاعِيـنَ أَسْـأَلُ عَنْهُـمُ سُؤَالَكَ بِالشَّيْءِ الَّذِي أَنْتَ جَاهِلُهْ[2]

وعودة إلى رواية حماد، فإن البيت الثالث فيها: «**وذي نسب ناء...**»، ينسب إلى شاعرين من مخضرمي الدولتين هما: بكر بن النطاح، وزياد الأعجم، كما ينسبان أيضاً إلى شاعر من العصر العباسي هو أبو تمام[3]. وهذا دليل على التداخل في الرواية على أحسن ظن، وهو من باب السرقات الأدبية، على وجه آخر من الظن، أي إن البيت قديم، تعاوره شعراء عدة، وهذا باب معروف من أبواب الدراسة الأدبية للشعر.

---

(١) شرح شعر زهير، ص ص ١١٢ ـ ١١٤. الكلاب: من أرض بني عامر. الهوامل: الإبل المهملة بلا راع. لجوا: أدخلوا، قاتل الجوع: العطاء والقرى والرفد. متهللاً: مستبشراً. حذيفة: والد حصن، وهو حصن بن حذيفة بن بدر. باذخ: عال. يحرق: يصر بنابه من الغيظ. أفضى: صار في فضاء، وصار يمتنع بالسيوف. الأحاليف: أسد وغطفان. ذي لجب: الجيش ذو اللجة والجلبة. الغور: ما غار من الأرض. الزلازل: الشدائد.

(٢) المصدر نفسه، الحاشي، ص ١١٥.

(٣) المصدر نفسه، الحاشية، ص ١١٣.

ولكن القضية من ناحية أخرى، تعني أن مثل هذه الزيادات والتداخلات أمر وارد لا سبيل إلى اتخاذه دليل إدانة واتهام على صناعة الشعر إذا ما كان بين أيدينا نص مجمع عليه.

فحال هذه الأبيات الثلاثة، كحالها في الأبيات التي جاءت في مقدمة رائيته السابقة. ثم ماذا نقول عن زيادات الأبيات السبعة في رواية الأصمعي على الأقل؟ وإذا كان هذا هو معيارنا، ألا يمكن أن نعممه على كل رواية، لنتهم الزيادة فيها بالانتحال وتعمد صناعة الشعر؟!

وربما كان إلحاق البيتين الأخيرين المنسوبين تارة إلى خوات بن جبير الأنصاري والخنوت توبة بن مضرس العبسي[١]، أكبر دليل على ما نذهب إليه من الزيادة أو التداخل والاختلاط.

ومثال آخر على الزيادات أو الاختلاط، الإضافة التي انفرد بها حماد وحده لروايته قصيدة زهير:

إنَّ الخَلِيطَ أَجَدَّ البَيْنَ فَانْفَرَقَا ... وَعُلِّقَ القَلْبُ مِنْ أَسْمَاءَ مَا عَلِقَا[٢]

التي اشترك في روايتها أيضاً أبو عبيدة وأبو عمرو الشيباني، والأصمعي، وهذه الإضافة هي:

فَعَدِّ عما تري إذ فات مطلبه ... أمسى بذاك غراب البين قد نعقا

وَانْمِ القَتُودَ عَلَى وَجْنَاءَ دَوْسَرَةٍ ... يَشْرَى الجَدِيلُ إِذَا مَا دَأْيُهَا عَرِقَا

---

(١) المصدر نفسه، الحاشية، ص ١١٥.

(٢) المصدر نفسه، الحاشية، ص ص ٤٤ ـ ٤٥.

عد: اصرف نفسك وهواك.

انم: ارفع. القتود: جمع قتد، وهو خشب الرحل وآلته. الوجناء: الناقة الغليظة الوجنات والرأس. الدوسرة: الضخمة. يشرى: يضطرب. الجديل: زمام من جلد مضمور. الدأي: فقرات العنق.

كَـأَنَّ كُـورِي وَأَنْسَـاعِـي وَمِيثَـرَتِـي ... كَسَـوْتُهُـنَّ مُشِبَّـاً نَـاشِطـاً لَهَقَـا[1]

رَعَـى بِغَيْـثِ لأَوْرَاكِ فَنَـاصِفَــةٍ ... مِـنَ الشِّتَـاءِ فَلَمَّـا شَـاءَهُ نَفَقَـا

وَقَـدْ يَكُـونُ بِهَـا حِينـاً تُعَـزِّبُـهُ ... وَقَـدْ تَطَـرَّفَ مِـنْ حَـافَـاتِهَـا أَنَقَـا

عِشْـراً وَخِمْساً فَقَـدْ طَابَـتْ مَـرَاتِعُـهُ ... مِنَ الرَّبِيعِ وَلَمْ يَبْدُنْ وَقَدْ زَهَقَا[1]

فَسَـارَ مِنْهَـا عَلَـى شَيْـمٍ يَـؤُمُّ بِهَـا ... جَنْبَـي عَمَـايَـةَ فَـالـرَّكَـاءَ فَـالْعُمُقَـا

فَـأَدْرَكَتْـهُ سَمَـاءٌ بَيْنَهَـا خَلَـلٌ ... تُرْوِي الثَّرَى وَتُسِيلُ الصَّفْصَفَ الْقَرِقَا[1]

فَبَـاتَ مُعْتَصِمـاً مِـنْ قُـرِّهَـا لَثِقـاً ... رَشَّ السَّحَـابُ عَلَيْـهِ الْمَـاءَ فَـاطَّـرَقَـا

يَمْـرِي بِـأَظْـلافِـهِ حَتَّـى إِذَا بَلَغَـتْ ... يُبْسَ الْكَثِيبِ تَدَاعَى التُّرْبُ فَانْخَرَقَا

---

(١) الكور: الرحل. الأنساع: جمع نسع، وهو سير يشد به الرحل. الميثرة: حشية يضعها الراكب تحته فوق الرحل. المشب: الثور الوحشي المسن. الناشط: الذي يخرج من بلد إلى بلد آخر.

اللهق: الشديد البياض.

العشر: أن يرد الماء يوماً ويمكث ثمانية أيام، ثم يرد في اليوم العاشر، والخمس على هذا التقدير. الربيع: ما ينبت في الربيع، يبدن: يبلغ الغاية في الضخامة. زهق: سمن.

على شيم: على منظر رآه وقصده. عماية والركاء والعمق: أسماء مواضع.

السماء: المطر. الثرى: التراب الندي. تسيل: تجعله يسيل الماء. الصفصف: المستوى من الأرض. القرق: الأملس الذي لا شيء فيه.

المعتصم: المستتر اللائذ. القر: البرد. اللثق: المبتل. أطرق: ركب بعض وبره بعضاً.

يمري: يحفز. تداعى: تساقط بعضه في إثر بعض، أي إنه حفر في التراب الندي فاستقام له الحفر، فلما انتهى إلى الرمل الجاف انهال عليه.

الروق: القرن. المرزم: نجم المرزم. خفق: غاب.

ليلته: أي مولى الريح طوال ليلته تحت ذلك الكثيب.

الشد: العدو الشديد. الخطف: السريع. الخرق: النزق وسوء العمل.

طواها: هزلها وأضمرها. الصنعة: العناية والتضمير.

النهز: الجذب. الرهق: اللحاق.

النافذة: الطعنة تنفذ إلى الجوف. النجلاء: الواسعة.

مُـوَلِّـيَ الـرِّيـحَ رَوْقَيْـهِ وَجَبْهَتَـهُ حَتّـى دَنَـا مِـرْزَمُ الْجَـوْزَاءِ أَوْ خَفَقَـا
لَيْلَتَـهُ كُلَّهَـا حَتَّـى إِذَا حَسَـرَتْ عَنْـهُ النُّجُـومُ أَضَـاءَ الصُّبْحُ فَـانْطَلَقَـا
فَصَبَّحَتْـهُ كِـلاَبٌ شَـدُّهَـا خَطِـفٌ وَقَـانِـصٌ لاَ تَـرَى فِـي فِعْلِـهِ خُـرُقَـا
زُرْقُ الْعُيُـونِ طَـوَاهَـا حُسْـنُ صَنْعَتِـهِ مُجَـوَّعَـاتٌ كَمَـا تَطْـوِي بِهَـا الْخِـرَقَـا
حَتَّـى إِذَا ظَـنَّ قَـرْنُ الشَّمْـسِ غَـالِبَـهُ وَخَـافَ مِـنْ جَـانِبَيْـهِ النَّهْـرَ وَالـرَّهَقَـا
كَـرَّ فَفَـرَّجَ أُولاَهَـا بِنَـافِـذَةٍ نَجْـلاَءَ تُتْبِـعُ رَوْقَيْـهِ دَمـاً دُفِقَـا

ولا يدع النظر إلى هذه المقطوعة، مجالاً للشك في أنها لم تخرج عن النمط القديم في تمثيل الثور الوحشي، حتى عند بعض الشعراء المتأخرين من أمثال النابغة الشيباني أو الأخطل. فالخطوط الرئيسة عندهم جميعاً هي:

١ ــ الثور يلجأ في إحدى الليالي إلى شجرة كبيرة (عادة ما تكون أرطاة)، يستظل بها عن المطر الذي يسقط في تلك الليلة شديداً. ويظل يتحرك في مكانه والرمال تنهار من حوله.

٢ ــ يفاجئه عند شروق الصباح صياد مصطحباً كلابه، فتجري معركة دامية بينهما، فإما أن ينجو، وإما أن يموت.

ويمكن رصد لغة المقطوعات في هذا الوصف، الذي سيؤدي إلى تكوين معجم لغوي خاص به. وقد أثبتت الدراسات النفسية الحديثة والأسلوبية كذلك انعكاس شخصيـة قائل كل مقطوعة عليها.

ونحن نلاحظ هنا أن القائل بلغ من الدقة والفن مبلغاً كبيراً جداً، بحيث إن افتراض أن حماداً أضافها إلى زهير، افتراض مقبول، بل محمود لحماد، لو صح ذلك، وهذا جزء من ظاهرة التداخل والاختلاط لتقارب الطريقة والفن.

أما افتراض أن حماد هو قائلها، وهو ما لم يقله أحد على الأقل، وإنما قال صعوداء:

«لم يروها أحد من الرواة غير حماد»[1].

مما يعني تفرد حماد بروايتها، فهذا أمر ليس مقصوراً عليه وحده.

وأخيراً، فإن كان حماد متهماً بالتزيد والانتحال في الشعر، (بمعنى إضافته حسبما مر بنا)، فلماذا لا يتهم بالاكتفاء بالنص المجمع عليه، إذا جاءت منه رواية تتسم بتلك الخاصة، فهو روى لزهير، قصيدته:

وَخَالِي الجَبَا أَوْرَدْتُهُ القَوْمَ فَاسْتَقَوا　　　بِسُفْرَتِهِمْ مِنْ آجِنِ المَاءِ أَصْفَرَا[2]

وإلى جانبه رواها الأصمعي، وهو راوية (ثقة) أدان حماداً. وفي الديوان زيادة برواية صعوداء تبدأ بمطلع غزلي هو[3]:

أَبَتْ ذِكَرٌ مِنْ حُبِّ لَيْلَى تَعُودُنِي　　　عِيَادَ أَخِي الحُمَّى إِذَا قُلْتُ أَقْصَرَا

كَأَنَّ بِغُلَّانِ الرُّسَيْسِ وَعَاقِلٍ　　　ذُرَى النَّخْلِ تَسْمُو وَالسَّفِينَ المُقَيَّرَا

أَلَمْ تَعْلَمِي أَنِّي إِذَا وَصْلُ خُلَّةٍ　　　كَذَاكِ تَوَلَّى كُنْتُ بِالصَّبْرِ أَجْدَرَا؟

ثم إن صعوداء، في روايته وحده بعد قول زهير في البيت الثالث من رواية حماد والأصمعي:

وَمَرْقَبَةٍ عَرْفَاءَ أَوْفَيْتُ مُقْصِراً　　　لِأَسْتَأْنِسَ الأَشْبَاحَ مِنْهَا وَأَنْظُرَا

زاد الأبيات التالية[4]:

---

(١) شرح شعر زهير، ص ٤٤.

(٢) شرح شعر زهير، ص ص ١٨٧ ـ ١٩٠.

الجبا: ماء حول البئر. السفرة: التي يأكلون عليها. الآجن: المتغير.

(٣) شرح زهير، حاشية، ص ١٨٧.

أخو الحمى: المحموم.

الغلان: جمع غال أو غليل، وهو منبت الطلح، أو الوادي الغامض في الأرض.

الرسيس: واد لبني أسد. عاقل: واد لبني عامر يشركهم فيه بنو أسد. المقير: المطلي بالقار، شبه الظعن بالنخل والسفن.

(٤) شرح زهير، حاشية، ص ١٨٨.

وَخَــرْقٍ يَعِـــجُّ الْعَــوْدُ أَنْ يَسْتَبِينَــهُ إِذَا أَوْرَدَ الْمَجْهُـولَـةَ الْقَـوْمُ أَصْـدَرَا
تَــرَى بِحِفَــافَيْــهِ الــرَّذَايَــا وَمَتْنِــهِ قِيَـامـاً يُقَطِّعْـنَ الصَّـرِيـفَ الْمُفْتَّـرَا
تَرَكْتُ بِهِ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ مَوْضِعِي فِـرَاشِـي وَمُلْقَـايَ النَّقِيـشَ الْمُشَمَّـرَا
وَمَثْنَــى نَــوَاجٍ ضُمَّــرٍ جَــدَلِيَّــةٍ كَجَفْـنِ الْيَمَـانِـي نَيُّهَـا قَـدْ تَحَسَّـرَا

فما موقفنا بعد هذا من هذه الزيادات، وذلك في ضوء ما مر بنا من اتهامات؟!.

وإنما وجدنا أمثاله عند عدد كبير من الرواة، فيناقضه حقيقة عجز حماد عن قول مثل ذلك الشعر.

وفي هذه القصيدة عينها ما يثبت ذلك أيضاً، ففي خاتمتها ورد بيت لم يروه أحد من الرواة السابقين غير الأصمعي، وهو قوله:

هَــذَا وَلَيْــسَ كَمَــنْ يَعْيَــا بِخُطَّتِــهِ وَسْـطَ الـرِّجَـالِ إِذَا مَـا نَـاطِـقٌ نَطَقَـا

= الخرق: الأرض الواسعة تنخرق فيها الرياح. يعج: يضجر ويرغو.
المجهولة: الأرض التي لا طرق عليها ولا علم، وفاعل أصدر ضمير يعود على الخرق.
حفافاه: جانباه. الرذايا: جمع رذية، وهي المعيبة من الإبل، سقطت من الجهد وتخلفت.
المتن: الوسط. الصريف: صوت أنياب الإبل، وهو في النوق من الإعياء والضجر. المفتر: الضعيف لشدة الإعياء.
الملقى: مصدر ميمي لألقى: النقيش: الرحل المنقوش كنقش الدنانير.
المشمر: المقلص المدرج.
المثنى: الزمام. النواجي: جمع ناجية، وهي الناقة السريعة.
الضمر: جمع ضامر، وهي المهزولة. الجدلية: المنسوبة إلى جديلة. الجفن: غمد السيف.
اليماني: سيف منسوب إلى اليمن. الني: الشحم. تحسر: ذهب.

كما تفرد الأصمعي برواية بيت آخر لم يروه أ حد غيره، وهو:

لَـوْ نَـالَ حَـيٌّ مِـنَ الـدُّنْيَـا بِمَكْـرُمَـةٍ   أُفْـقَ السَّمَـاءِ لَنَـالَـتْ كَفُّـهُ الأُفُقَـا

فإذا كانت القاعدة تنطبق على أية زيادة، فإنها تنطبق على مثل هذه الزيادة، قلّت أم كثرت.



الفصل الخامس
نموذج على الزيادة
من حماد وغيره

هند بنت النعمان:

الرائية:

وربما كانت الرواية الأخرى التي أوردها السيوطي سنداً آخر للقول باتهام حماد والحط من قيمة روايته، يقول السيوطي:

«أنشد أبو عبيدة في كتاب أيام العرب لهند ابنة النعمان:

أَلَا مَنْ مُبْلِغٌ بَكْراً رَسُولاً ... فَقَدْ جَدَّ النَّفِيرُ بِعَنْقَفِيرِ
فَلَيْتَ الجَيْشَ كُلُّهُمُ فِدَاءٌ ... وَنَفْسِي وَالسَّرِيرُ وَذُو السَّرِيرِ
فَإِنْ يَكُ نِعْمَةٌ وَظُهُورُ قَوْمِي ... فَيَا نِعْمَ البِشَارَةُ لِلْبَشِيرِ

ثم قال أبو عبيدة: وهي مصنوعة لم يرضها أبو بردة، ولا أبو الزهراء، ولا أبو فراس، ولا أبو شريرة، ولا الأغطش، وسألتهم عنها قبل مخرج إبراهيم بن عبد الله بسنتين، فلم يعرفوا منها شيئاً، وهي مع نقيضة لها أخذت عن حماد الراوية»[1].

(١) المزهر جـ١ ص ١٨٠. وخرج إبراهيم بن عبدالله في البصرة سنة ١٤٥ هـ/ ٧٦٢ م، وتمت هزيمته في ذي الحجة من السنة نفسها.

فمع ملاحظة أن هذه الرواية خلت من أهم عنصر من عناصر الاتهام، وهو الوضع أو الصنعة على يد حماد، فإن قيمتها كشهادة، غير قوية، ولا تقوم برهاناً يمكن الأخذ به على اتهامه؛ فمصدرها أبو عبيدة الراوية البصري، وإذا كانت مصنوعة، فإن أبا عبيدة لم يقل أن حماداً صنعها، وإنما يدل كلامه على أنه رواها، أي: «**أخذت عن حماد**»، وهذا يبرهن على أن أبا عبيدة عند تحريه «التوثيق»، لم يجد هذه الرواية عند من عددهم من الرواة، وإنما وجد أن الذي اختص بها هو حماد وحده، فهو على هذا راوية لها ولم يكن صانعها، وهذا يعني أن حماداً أخذها عن غيره، فرواها، وهذا يعيدنا إلى المسألة السابقة التي نجد فيها حماداً يروي شعراً مختلفاً على هويته، كما تضعنا أمام قضية وجود شعر شعبي سابق على حماد، كما سنرى في شعر قيس بن الحدادية.

وأكثر من هذا، فإنه إذا كان مجرد اقتصار راوية على رواية يحتمل الشبهة والظن، فإن علماء هم في ميزان الرواية، وأبعد عن الشبهة والظن، كما أن مروياتهم أشد شبهاً وتجانساً بالشعر الجاهلي، تفردوا برواية بعض القصائد المتهمة عن آخرين، ومثال ذلك:

١ ــ قصيدة الزبرقان بن بدر:

نَحْنُ الكِرَامُ فَلَا حَيٌّ يُعَادِلُنَا ... مِنَّا المُلُوكُ وَفِينَا تُنْصَبُ البِيَعُ

علق ابن هشام على القصيدة:

«**رواه لي بعض بني تميم، وأكثر أهل العلم بالشعر ينكرها للزبرقان**»[1].

٢ ــ قصيدة زهير:

وَبَلْدَةٍ لَا تُرَامُ خَائِفَةٍ ... زَوْرَاءَ مُغْبَرَّةٍ جَوَانِبُهَا

(١) السيرة، جـ٤، ص ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩.

جاء في الديوان:

«رواها أبو عمرو الشيباني، وهي متهمة عند المفضل»[1].

٣ ــ قصيدة زهير:

أَمِــنْ آلِ لَيْلَــى عَــرَفْــتَ الطُّلُــولاَ ... بِــذِي حَــرَضٍ مَــاثِــلاَتٍ مُثُــولاَ

جاء في الديوان:

«رواها أبو عمرو والمفضل، وزعم الأصمعي أنها مولدة»[2].

٤ ــ قصيدة طرفة:

أَلاَ اعْتَزِلِينِي اليَوْمَ يَا خَوْلَ أَوْ غُضِّي ... فَقَـدْ نَـزَلَـتْ حَـدبَـاءُ مُحْكَمَـةُ العَضِّ

جاء في الديوان:

«قال أبو عمرو (الشيباني)، وكان المفضل ينكرها ولم يثبتها الأصمعي، ورواها أبو عبيدة»[3].

٥ ــ قصيدة طرفة:

يَــا خَلِيلَّــي قِفَــا أُخْبِــرْكُمَــا ... عَــنْ أَحَــادِيــثَ تَغَشَّتْنِــي وَهَــمْ

جاء في الديوان:

«أثبتها أبو عبيدة والمفضل، وأبو عمرو الشيباني، وزعم الأصمعي أنها مصنوعة، وأنه أدرك قائلها»[4].

---

(١) شرح شعر زهير، ص ص ١٩١ ـ ١٩٣.

(٢) ص ١٤٦

(٣) ديوان طرفة، تحقيق الشنقيطي، ص ص ٤٧ ـ ٥٠.

(٤) المصدر نفسه، ص ص ٥٦ ـ ٦٢.

٦ ـ قصيدة النابغة:

عُـوجُـوا فَحَيُّـوا لِنِعْـمٍ دِمْنَـةَ الـدَّارِ ... مَـاذَا تُحَيُّـونَ مِـنْ نُـؤْيٍ وَأَحْجَـارِ

جاء في الديوان:

«هي أبيات منحولة، ينشدها قوم قبل:

لَقَـدْ نَهَيْـتُ بَنِـي ذُبْيَـانَ عَـن أُقُـرٍ ... وَعَـنْ تَـرَبُّعِهِـمْ فِـي كُـلِّ أَصْفَـارِ[1]

ولكن القرشي (ت نحو ٣٠٠ ـ ٣١٠ هـ)، عدها في الجمهرة من ضمن السموط السبع رواية عن شيخه المفضل بن عبد الله المجَبَّري[2].

هذا غيض من فيض مما أثبته عالم، ونفاه عالم آخر، ومما أثبتته جماعة، ورفضته جماعة أخرى. ولو أصبح هذا هو المقياس، لانفتح الباب على مصراعيه، فأصبح الداخل كالخارج، والخارج كالداخل، واختلط الحابل بالنابل، فضاعت القضية وسقط الادعاء.

كل ذلك، وما سبق كان حديثاً يهدف إلى بسط القول وتوضيحه، فمسألة مثل هذه، مسألة ينبغي عدم تجاهلها؛ فما دام أبو عبيدة هو مصدرها، فإن أدنى حجة تضعفها. لقد استشهد أبو عبيدة برجال متأخرين عاصرهم في حدود النصف الأول من القرن الثاني الهجري، فهم رواة قد يكون حماد أكبر سناً منهم. ذلك أمر، والأمر الآخر، أن رجلاً معاصراً لأبي عبيدة، وهو هشام بن الكلبي (ت ٢٠٦ هـ). روى الأبيات رواية مختلفة، عن أبيه محمد بن السائب (ت ١٤٦ هـ)، المعاصر للرجال الذين استشهد بهم أبو عبيدة، والمعاصر كذلك لحماد الراوية، فروايته هي:

ألا أبلـغ بنـي بكـر رسـولاً...

---

(١) ديوان النابغة، ص ص ٢٠٢ ـ ٢٠٤. وانظر: ص ص ٧٥ ـ ٧٨.

(٢) الجمهرة، جـ ١، ص ١١١.

فليت الجيش....

كأني حين جدّ بهم إليكم ... معلّقةُ الذوائبِ بالعَبور

فلو أني أطقت لذاك دفعا ... إذا لدفعته بدمي وزيري[1]

فهل نوثّق الآن حماداً، ونقبل روايته على أنها رواية شفوية؟ إذ ليس من الجائز أن يرضى عنها كل الرواة، فربما بلغ علم أحدهم ما لم يبلغ علم الآخر.

وأن رواية ابن الكلبي، رواية متوافقة إيقاعاً وصياغة مع كثير مما يماثلها في الشعر الجاهلي، ونحن نرى أنها صحيحة، وما حكم أولئك الرواة على رواية حماد إلا أنها خرجت شيئاً ما عن القالب المتداول. ولعل أقرب قصيدة متشابهة معها هي رائية المهلهل الشهيرة.

---

(١) الأغاني، جـ ٢٣، ص ص ٢٢٠، ٢٢٧. العبور: نجم العبور. الزير: ما استحكم فتله من الأوتار، تريد هنا عروقها.
وفي رواية: «وريري» بدلاً من «وزيري». والرير: مخ العظام الذي سال ما به.



الفصل السادس

رواية الشعر الشعبي
قيس بن الحدادية

القافية:

تكونت لدينا الآن فكرة واضحة عن المطاعن التي أُتِي منها حماد، وهي مطاعن لا تعدو التمسك بأطراف هشة، ومحاولة إقامة دعوى كبيرة على أساسها، وهي دعوى لا تصمد للنقاش والمحاجة، بل تتهاوى وتتراجع لتلم أشتاتها. وتجمع آراءها السالفة، بعد أن أخفقت في الحصول على بينة وحجة.

وربما وجد القائلون فيما أورده أبو الفرج الأصفهاني، دليلاً قوياً يعضد ذلك الدليل المتهافت عن دعواهم باتهام حماد والطعن فيه، على الرغم من أن هاتين اللفظتين، تستوجبان الحذر والحيطة قبل الإدلاء بهما. يقول أبو الفرج:

«قال أبو عمرو: وكان ابن الحدادية أصاب دماً في قوم من خزاعة وناس من أهل بيته، فهربوا فنزلوا في فراس بن غنم، ثم لم يلبثوا أن أصابوا أيضاً منهم رجلاً، فهربوا فنزلوا في بجيلة على أسد بن كرز، فآواهم وأحسن إلى قيس وتحمل عنهما ما أصابوا في خزاعة وفي فراس، فقال قيس بن الحدادية يمدح أسد بن كرز:

لاَ تَعْـذِلِينِـيَ سَلْمَـى اليَـوْمَ وَانْتَظِـرِي   أَنْ يَجْمَـعَ ٱللَّـهُ شَمْـلاً طَـالَمَـا ٱفْتَـرَقَـا

إنْ شَتَّتَ الدَّهْرُ شَمْلاً بَيْنَ جِيرَتِكُمْ فَطَالَ فِي نِعْمَةٍ يَا سَلْمَ مَا اتَّفَقَا
وَقَدْ حَلَلْنَا بِقَسْرِيٍّ أَخِي ثِقَةٍ كَالبَدْرِ يَجْلُوا دُجَى الظَّلْمَاءِ وَالأُفُقَا
لاَ يَجْبُرُ النَّاسُ شَيْئاً هَاضَهُ أَسَدٌ يَوْماً وَلاَ يَرْتُقُونَ الدَّهْرَ مَا فَتَقَا
كَمْ مِنْ ثَنَاءٍ عَظِيمٍ قَدْ تَدَارَكَهُ وَقَدْ تَفَاقَمَ فِيهِ الأَمْرُ وَانْخَرَقَا

قال أبو عمرو: **هذه الأبيات من رواية أصحابنا الكوفيين، وغيرهم يزعم أنها مصنوعة، صنعها حماد الراوية لخالد القسري في أيام ولايته، وأنشده إياها فوصله، والتوليد بيِّن فيها جداً**»[1].

وهذه هي الواقعة الأخرى التي بين أيدينا مما نُصّ فيها نصاً صريحاً على عبارة: «**مصنوعة صنعها حماد**».

وهي واقعة نتج عنها:

أ ــ أن هذه الأبيات لا تتفق مع نمط الشعر الجاهلي وصياغته، سواء في شعر النسيب، أو حتى في شعر الفرسان الذي ينطلق فيه الشاعر الفارس متحمساً ثائراً.

ب ــ أنه وفق هذه المعايير المرسومة أيضاً، فإن لغتها وموسيقاها لا يتناسبان مع الشعر الجاهلي، وهما بشعر المولَّدين أشبه. وهذا ما رآه أبو عمرو الشيباني نفسه، عندما قال: «**والتوليد بين فيها جداً**».

فالقصيدة مرفوضة من جانب على أساس أنها مصنوعة، وأن صانعها هو حماد الراوية بالتحديد. ولكن أبا عمرو يقول: «**هذه الأبيات من رواية أصحابنا الكوفيين**». فرواية الأبيات ليست قاصرة على حماد، وإنما تشمل علماء الكوفة كذلك.

---

(١) الأصفهاني، الأغاني جـ ١٤، ص ١٤٣.
هاض الشيء: كسره.

وإذا كان علماء الكوفة يروونها إلى جانب حماد، فكيف يصح قبول أن حماداً صنعها لخالد القسري، إلا أن يزعم زاعم أن علماء الكوفة قبلوا رواية حماد دون نقد، وفي هذا إلغاء لعقول علماء الكوفة كلهم وجهودهم؟.

إذن، فتهمة صناعة الأبيات، تهمة خاصة موجهة ضد حماد، وهي كذلك تهمة عامة يدخل في نطاقها كل علماء الكوفة، ومن بينهم حماد، على الرغم من أن أبا عمرو يقول: «**رواية أصحابنا الكوفيين**».

ومن ناحية أخرى، فإن تعقيب أبي عمرو: «**التوليد بين فيها جداً**»، تعقيب يكشف عن جانب شخصي في المسألة، إذ يبدو أنه على غير وفاق مع حماد، وعلينا ألا ننسى اجتماع أبي عمرو الشيباني بحماد الراوية ضمن مجموعة من علماء بغداد والكوفة، وذلك التلاحي بين أفراد هذه المجموعة، بحيث شُحنت أفئدة بعضهم على بعض، حتى عَلَّلنا قصة لقاء حماد بالمفضل عند المهدي، بأنها قصة مدبرة للمرارة التي لحقت بالمفضل في ذلك المجلس، ونحن نعلل هذا الدس هنا على حماد، بالنتيجة نفسها، حيث لقي أبو عمرو من حماد ما لقيه المفضل. ولكن الغريب في الأمر أن نتائج ذلك اللقاء الأول طمست وغابت معالمهما، على حين بهرجت وكيفت نتائج اللقاء الثاني، حتى جر وراءه كثيراً من التبعات.

وإنه لمن الواضح للمتأمل جيداً في قول أبي عمرو، أنه قول أخذ بعض الظاهرة وترك أغلبها، فإذا صح أن هذه القصيدة من صناعة حماد، فماذا نقول عن القصيدة الأخرى التي رواها أبو الفرج، وقال عنها بلسانه هو نفسه:

«**هذه القصيدة مصنوعة، والشعر بين التوليد**»، والقصيدة هي:

خُـزَاعَـةُ قَـوْمِـي فَـإِنْ أَفْتَخِـرْ بِهِـمْ يَـزْكُ مَعْتَصَـرِي وَالنَّسَـبْ

يُـوَاسِـى لـدى المَحْـلِ مَـوْلاَهُـمُ وَتُكْشَـفُ عَنْـهُ غُمـومُ الكُـرَبْ
فَجَـارُهُـمُ آمِـنٌ دَهْـرَهُ بِهِـمْ أَنْ يُضَـامَ وَأَنْ يُغْتَصَبْ
يُلَبُّـونَ فِـي الحَـرْبِ خَـوْفَ الهِجَـاءِ وَيَبْـرُونَ أَعْـدَاءَهُـمْ بِـالحَـرَبْ
وَلَـوْ لَـمْ يُنَجِّـكَ مِـنَ كَيْـدِهِـمْ أَمِيـنُ الفُصُـوصِ شَـدِيـدُ العَصَـبْ
لَـزُرْتَ المَنَـايَـا فَـلاَ تَكْفُـرَنْ جَـوَادَكَ نُعْمَـاهُ يَـا بْـنَ الظَّـرَبْ
فَـإِنْ يَلْتَقُـوكَ يَـزُرْكَ الحِمَـا مُ أَوْ تَنْـجُ ثَـانِيَـةً بِـالهَـرَبْ[1]

وهي قصيدة لا تختلف في أسلوبها وصياغتها عن تلك التي زُعم أن حماداً صنعها لخالد. فهل صنعها حماد أيضاً؟ بل هل تختلف هاتان القصيدتان عن بقية ما نسب إلى ابن الحدادية، ومن ذلك قوله:

فَخَـرْتَ بِيَـوْمِ لَـمْ يَكُـنْ لَـكَ فَخْـرُهُ أَحَـادِيـثُ طَسْـمٍ إِنَّمَـا أَنْـتَ حَـالِـمُ
تُفَـاخِـرُ قَـوْمـاً أَطْـرَدَتْـكَ رِمَـاحُهُـمْ أَكَعْبَ بْنَ عَمْرٍو هَلْ يُجَابُ البَهَائِمُ
غَـدَاةَ تَـوَلَّيْتُـمْ وَأَدْبَـرَ جَمْعُكُـمْ وَأُبْنَـا بِـأَسْـرَاكُـمْ كَـأَنَّـا ضَـرَاغِـمُ

وهذه أخبار وأشعار مصدرها أبو عمرو الشيباني؟ فهل نوجه التهمة لأبي عمرو بدلاً من توجيهها إلى حماد؟ أم نقول مثلما قال أبو الفرج: «هذه القصيدة مصنوعة، والشعر بين التوليد».

والذي لا ريب فيه أن قدم تاريخ قيس بن الحدادية، كان سبباً من الأسباب القوية التي أخرجته من حظيرة الأدب الرفيع إلى حظيرة الأدب الشعبي، فقد عاصر قيسٌ عامرَ بن الضرب العدواني، الذي اشترك في حرب البيداء التي هَزَمت فيها اليمنَ قبائلُ ربيعة ومضر متحدة في حدود سنة ٤٥٠ م.

وعن هذه الفترة جاءت أخبار البراق والأشعار التي سبقت حرب البسوس[2]. وهذه أشعار لا يد لحماد فيها، كما أنه لا يد له في أخبار ابن

(١) الأغاني، م ١٤، ص ١٤٢.

(٢) أبكاريوس، تزيين نهاية الأرب. . .، ص ص ٢١١ ـ ٣٠٠.

الحدادية وأشعاره، وإنما رواها مما وجده في التراث الشعبي منسوباً إليه، ووجد خالداً القسري يتطلع إلى أشعار آبائه وأجداده، فأورده إليه حسبما أوصلته الرواية الشعبية إلى حماد، من لجوء قيس بن الحدادية وناس من أهل بيته إلى أسد بن كرز أحد أجداد خالد، وهو خبر لم يخترعه حماد، لأن أبا عمرو الشيباني يثبته؛ ولذلك فالشعر المستشهد به على أن حماد صنعه، يدور حول القصة نفسها، ولم يكن خارجاً عنها، مما يعني قدم النوعين: القصة والشعر. أما مفهوم **التوليد**، فبغض النظر عن الدافع وراء إصداره لتناقضه، فإنه يعني عدم تطابقه مع الشعر الأدبي من الفترة الجاهلية. ولعل شعر ابن الحدادية، كما هو شعر المهلهل والأشعار في حرب كتاب حرب بكر وتغلب، يفتح الباب للنظر إلى نماذج أولية تعد إحدى مراحل تطور القصيدة العربية.

ويقودنا ذلك إلى المسألة التاريخية، فمعنى: «**التوليد بين**» أو «**بين جداً**»، أن القائل من المولدين الذين أدركوا العصر العباسي الأول، لأنه لا يعقل أن يضع حماد شعراً، على افتراض أنه صانع كل هذا الشعر المنسوب إلى قيس، وينحو به نحو المولدين وشعر الموالي، ثم يسمعه خالد القسري. ولا بد له إذن، أن يصنع شعراً على غرار الشعر الجاهلي، لأنه يريد أن يجعل هذا الشعر جاهلياً ويُعَمِّيَه على خالد، وهو ممن نُسِب إليه القدرة على صناعة الشعر الجاهلي، ثم يأتي لينشده إياه على أنه لقيس، فيخفى هذا الشعر على خالد، الذي قد يحتار فيه ويقول له مثلما قال له بلال بن أبي بردة، في خبر سيأتي: «**قد علمت أن هذا شيء قلته ونسبته**»، أو يجد من يعرف كلام أهل الجاهلية من أهل الإسلام، كما حدث مع ذي الرمة. فإذا علمنا أن خالداً القَسري ولي العراقين في عهد هشام بن عبد الملك، فتولى سنة **١٠٥** هـ وعزله هشام سنة **١٢٠** هـ، بدا لنا أن افتراض جواز مثل هذا الشعر المولد على خالد بعيد الاحتمال.

وإن الاحتمال الراجح هو أن هذه الأبيات التي لا تتوافق مع معايير الشعر الأدبي الرفيع، أي مع خصائص الشعر الجاهلي الأدبي وصياغته، هي أبيات تعود إلى المراحل الأولى القديمة من جهة، ومن جهة أخرى، تسير في تيار الشعر الشعبي، الذي كانت الكوفة تقبل منه شيئاً كثيراً، وهو ما عبر عنه ابن سلام بتكرار قوله: «**وقد علمت**».

وهنا تصبح نسبة صناعة الأبيات إلى حماد، نسبة غير واقعية، لأنها قَبِلت جزءاً من غير حماد، ثم خصصت حماداً بهذه الأبيات، مع أن طابع الأبيات هنا وهناك، وطابع القصائد التي قيل إنها صحيحة النسبة إلى ابن الحدادية، طابع واحد.

وهناك احتمال آخر، وهو أن شخصية قيس بن الحدادية هي شخصية قصصية شعبية تتداولها ألسن الناس وأفواههم، والشعر فيها شعبي خالص، وعلى هذا، فحماد ليس مسؤولاً عن أي مقدار منه، فلدينا مثلاً: كتاب منسوب إلى الأصمعي هو كتاب «تاريخ الملوك الأولية» هو راويته وهو كتاب من هذا النوع[1]، فهل نتهم الأصمعي بصناعة الشعر: سواء أصحت نسبته له أم لم تصح؟.

ولعلنا نذهب أبعد من كل ذلك، فنرفض رواية حماد للشعر المولَّد أصلاً، لأنه لا يتلاءم، كما مضى من حديث عن روايته، مع نشأته وما ألف استماعه، وكذاك مع اتجاهه، فكل ذلك مغاير لطبائع الأشياء؛ لأن كل الروايات التي تتهمه، تجعله يأتي بشعر متناسب

(١) يقول محققه، المقدمة ص ث.
«كتب بالخط الكوفي بخط عَلَمَ من أعلام اللغة المبرَّزين، هو أبو يوسف يعقوب بن السكيت، ولم يثبت ما يوجب الشك في ذلك، وقد تم استنساخها في عاشر شوال سنة ٢٤٣ هـ، أي بعد وفاة الأصمعي بـ (٢٦) سنة.
... إن تاريخ النسخ وشخص الناسخ كافيان في إثبات نسبة المخطوط لمؤلفه من دون شك أو تردد».

إيقاعاً ولغة مع الشعر الجاهلي، فكيف ينحرف بسرعة عن هذا الاتجاه، إذ إن أي راوية شفوي عاش تلك الأجواء حتى تملكت عليه حواسه، سيجد من العسر والإجهاد رواية شعر خارج عن النمط الذي تتردد أصداؤه حوله، ولو كان حماد يريد صناعة شعر لخالد، لجاء بأي قصيدة محكمة النسيج، وزعم أنها لابن الحدادية، وهذا يبعث بقوة على ترجيح الهدف من نسبتها إلى حماد، كما مر.

وهكذا نخلص إلى أن ما فُهِم من أنه صناعة الشعر، إنما يعني ثلاثة اتجاهات:

الأول:

زيادة الأشعار، أي إن عدد أبيات رواية حماد لقصيدة ما يختلف بعض الاختلاف عن عددها في رواية من وجه له التهمة.

الثاني:

الأخذ، وهو أن القصيدة التي صدر الحكم عليها مصنوعة ـ وهو حكم من عالم بصري دائماً ـ كان مصدرها حماد، وحماد مجروح في رأي علماء البصرة المتأخرين.

الثالث:

الرواية الشعبية، وهي أن حماداً وعلماء الكوفة معه، يروون تراثاً شعبياً احتفظوا به، وأهمله علماء البصرة، فأصدر هؤلاء حكمهم عليه بأنه شعر مصنوع.

ومن ثم نستنتج أمرين في غاية الأهمية، هما:

أحدهما:

أن هذه الأشعار التي اتهم حماد بصناعتها لا تتجاوز المقطوعات ذات العدد المحدود جداً من الأبيات. فهو لم يصنع حسبما زعم أبو حاتم

السجستاني سوى بيتين أضافهما إلى همزية الحطيئة، وهو لم يصنع من الشعر المصنوع المنسوب إلى هند بنت النعمان سوى ثلاثة أبيات ونقيضتها، ومجموع الأبيات على هذا ستة فقط.

وهو لم يصنع من الشعر المنسوب إلى قيس بن الحدادية، حسبما ادعى أبو عمرو الشيباني سوى خمسة أبيات. ويستنتج الدارس من هذا، أن حماداً غير قادر على صناعة المطولات الشعرية، وأنه كان يميل إلى الشعر ذي الصياغة المولدة، لو كان ذا استعداد على صناعة الشعر.

والآخر:

وهو الأمر الحاسم جداً في هذه القضية، وهو أن تهمة صناعة الشعر، إنما وجهت إليه من علماء ذوي ميول خاصة، ومن أصحاب المرحلة الثانية في الرواية الشفوية: أبو عبيدة، (ت ٢٠٩ هـ)، أبو عمرو الشيباني الكوفي، (٢١٣ هـ)،أبو حاتم السجستاني (ت ٢٥٥ هـ)، وقد ثبت لنا أنه في جميع تلك الحالات كان راوية ولم يتجاوز الرواية إلى صناعة الشعر.



الفصل السابع

اختلاف النسبة

ليس هذا الموضوع مجال مناقشة، أو جدل، إذ لو حصر المرء مثل تلك الاختلافات، لوجدها ليس في القصيدة الواحدة فحسب، بل في قصائد كاملة، وهي - بعد - ليست قاصرة على زمن دون زمن، وإنما تتجاوز المرحلة الشفهية التي شكّل هذا الاختلاف أحد طوابعها، إلى المرحلة الكتابية حيث يتوافر القلم والدواة. وما إدراجها هنا إلا لأنها ربما ضُمت إلى معنى «ينحل الرجل غيره، وينحله غير شعره»، وهي المقولة التي سنراها بعد قليل عند ابن سلام.

وما إيراد مثل هذا الاختلافات هنا في الحقيقة، إلا لإيفاء البحث حقه من التناول والمراجعة لاستيفاء جوانب الصورة التي تهدف إلى إبراز مكانة حماد في مسيرة رواية الشعر العربي القديم.

وتعود تلك المآخذ التي أخذها النقاد على حماد في حوادث يسيرة تعكس طريقة المدرسة البصرية في التثبت والتحري، كما تعكس من ناحية أخرى، إحدى الطرق التي كانت تسم المدرسة الكوفية بميسمها، فمن ذلك قول ابن سلام:

«أخبرني أبو عبيدة، عن عمر بن سعيد بن وهب الثقفي قال: كان حماد لي صديقاً ملطفاً، فعرض علي ما قبله يوماً، فقلت له: أمل علي

قصيدة لأخوالي من سعد بن مالك، فنظر فأملى علي:

إِنَّ الخَلِيطَ أَجَدَّ مُنْتَقَلُهْ ... وَلِذَاكَ زُمَّتْ غُدْوَةً إِبِلُهْ
عَهْدِي بِهِمْ فِي النَّقْبِ قَدْ سَنَدُوا ... تَهْدِي صِعَابَ مَطِيِّهِمْ ذُلُلُهْ

وهي لأعشى همدان»[1].

ومن ذلك أيضاً ما رواه أبو الطيب اللغوي من أن:

«سعيد بن هريم البرجمي، قال: حدثني من أثق به، أنه كان عند حماد، حتى جاء أعرابي فأنشده قصيدة لم تعرف، ولم يدر لمن هي، فقال حماد: اكتبوها، فلما كتبوها وقام الأعرابي، قال: لمن ترون أن نجعلها؟ فقالوا أقوالاً، فقال حماد: اجعلوها لطرفة»[2].

وعلى الرغم من أن هذين المثلين يؤخذان دليلاً على تضعيف الثقة بحماد، فإن النظر فيهما يجعلنا نلتفت إلى:

١ ــ أنهما قصتان تثبتان، كما أثبتت قصص أخرى غيرها، أن حماداً كان راوية للشعر، وأنه كان يتلقى الشعر من أفواه الرواة تلقياً.

٢ ــ أنه كان يعتمد، كما يعتمد غيره، على الرواة الأعراب، فيأخذ منهم على أنهم رواة للشعر القديم.

٣ ــ أنه كان يتمتع بحاسة ذوقية تستطيع أن تميز القديم من المحدث المولد، فأعشى همدان ليس شاعراً عباسياً على الأقل، وما رواه الأعرابي، جاء من أعرابي لم تفسد لغته، ولم يخالط المدينة اجتماعياً، فهو أعرابي عايش البادية وخبرها لغة وتفكيراً.

---

(١) طبقات، ص ٤١. وفي المزهر جـ ١: فأملى علي لطرفة».
(٢) مراتب النحويين، ص ص ١١٧ ـ ١١٨.

٤ ــ أنه ليس في أي من النصين ما يشير إلى أن الشعر منحول (مصنوع)، وإنما هو شعر يروى رواية، فحماد: «**عرض علي ما قبله يوماً**»، أي جيء له به فرواه، والأعرابي: «**أنشده قصيدة لم تعرف ولم يدر لمن هي**»، فهو يرويها أيضاً رواية.

٥ ــ أنهما تبينان أن لحماد تصوراً ما عن شعر طرفة، ولذلك أحس أن طريقة نظم القصيدتين، هي طريقة طرفة، ولذلك أضافهما إليه.

٦ ــ أن هذه النقطة الخامسة تنقلنا إلى نوع مشابه للنوع الأول: التزيد والزيادة، أي إضافة شعر إلى شعر الشاعر، لأن الإحساس يؤدي إلى ذلك، فهو إجراء نقدي صرف، يقع فيه حماد، كما يقع فيه غير حماد.

٧ ــ أن الاختلاف في نسبة هذا الشعر، إنما جاء من اختلاف منهج المدرستين البصرية، كما يمثلها أبو عبيدة، الذي نِيل منه هو نفسه كثيراً، وهي المدرسة التي يشكل الإجماع محور روايتها، والمدرسة الكوفية التي تعتمد على الرواية والشاذ في النسبة والسماع.

٨ ــ نتبين هنا أن حماداً كان في مركز الرأي والتقدير والتوجيه؛ فهذا الشعر الذي يرويه أعرابي، ليس مسؤولاً عنه هو، وإنما المسؤول عنه الأعرابي، وحيث إن مصدره أعرابي، كما هو مصدر الشعر الجاهلي بشكل عام، فالقصيدة قديمة على كل حال.

٩ ــ وإذا كان عمر بن سعيد الثقفي يعلم أن القصيدة لأعشى همدان، فلماذا كتبها، ولماذا لم يُعلم حماداً بحقيقتها، وهو صديقه الملطف؟ أليست هذه القصة التي يرويها أبو عبيدة هي محل نظر؟.

١٠ ــ أن تصرف حماد تصرف يحمِّله مسؤولية علمية حقيقية، ولكننا بهذا نطبق معايير عصر غير عصره، ومدرسة غير مدرسته، فأبو عبيدة توفي سنة ٢٠٩ هـ، ومع أن النقد العلمي والدراسة الأدبية

لا تعارض مثل هذا التصرف، إذا تأسس لدى المرء ـ كما هو حال حماد ـ عمق فكري أدبي يميز ويقارن، فإن الواقع أن حماداً كان يطبق معايير عصره، فهو إذ ينقل مشافهة عن الأعراب، إنما يعبر عن مرحلة شفوية سابقة على المعايير المتأخرة، سواء من المدرسة البصرية أو من غيرها.

١١ ــ وبعد، أليس خبر الثقفي وخبر البرجمي خبراً واحد، وفي الأول زَعْم بأن الأبيات لأعشى همدان، أما في الثاني، فهي أبيات مجهولة، رأى حماد أنها ألصق بطرفة، وقد تكون أبيات أعشى همدان مما شابه تلك الأبيات، وهو كثير في الشعر العربي القديم؟.



الباب السادس

انتحال الشعر



الفصل الأول

ادعاء ميمية الحطيئة

هذه هي القضية الخطيرة التي رأينا بعض ظلالها فيما نسب من أقوال إلى المهدي في حماد: «**وصل حماداً الشاعر**»، «**من أراد أن يسمع شعراً جيداً محدثاً، فليسمع من حماد**». وقد رأينا كل الشواهد تشير إلى أنه كان يورد أبياتاً زائدة عن الرواية التي جاءته منها التهمة، ولم تذكر أية رواية أنه نسب الشعر إلى نفسه، وإنما ذكرت الزيادة، وهذا هو ما سنراه في قول ابن سلام. وهنا ننتقل إلى موضوع ذي وجهة أخرى، فبدلاً من الخلاف على نسبة عدد محدود من الأبيات، بحيث أَدخل ذلك الخلافُ حماداً في عداد الشعراء الذين يقولون شعراً جيداً، نسمع هنا أن حماداً كان يقف لينشد قصيدة من عنده، وقد تعاقبت الأقوال والأخبار في تناول هذا المنحى الواحد، حتى كادت تتوافق في النتيجة، فكان أن اتُّخِذَت إدانة لا رجعة فيها له.

ولنأخذ الخبر الأول الذي رواه ابن سلام لأنه أقدمها، ولأن بقية الأخبار تُعَد تفصيلاً له. يقول ابن سلام:

«أخبرني أبو عبيدة عن يونس، قال: قدم حماد البصرة على بلال بن أبي بردة، وهو والٍ عليها، فقال: أما أطرفتني شيئاً، فعاد إليه، فأنشده القصيدة في شعر الحطيئة، مديح أبي موسى، قال: ويحك! يمدح الحطيئة

أبا موسى، لا أعلم به، وأنا أروي شعر الحطيئة؟ ولكن دعها تذهب في الناس»[1].

وفي الخبر عدة أمور مثيرة للانتباه، منها:

١ ــ أن رواته كلهم بصريون: يونس، وأبو عبيدة، ومحمد بن سلام نفسه.

٢ ــ أن مصدر الرواية هو يونس بن حبيب، وقد رأينا موقف يونس من حماد في أكثر من مناسبة، وهو أمر لا بد من وضعه في الحسبان هنا.

٣ ـ أن مصدر الخبر، يونس بن حبيب (توفي سنة ١٨٠ هـ)، على حين أن بلالاً توفي سنة ١٢٠ هـ، فمتى أدرك يونس بلالاً أو علم بالخبر، وهو لم يسنده، كما فعل ابن سلام إلى غيره؟ فانقطاع السند مدعاة إلى التدليس، بل مظنة على الكذب.

٤ ــ أن خبر يونس، يُفصح باطنه وظاهره، على كذبه. فهو يزعم أن بلالاً لم يعرف القصيدة للحطيئة، وأنه قَبِلها على أساس أنها قصيدة منسوبة إلى الحطيئة في أبي موسى، ولكن الخبر يتناقض بسرعة فيقول:

«**أنشده القصيدة في شعر الحطيئة، مديح أبي موسى**»، وهذا يعني أن القصيدة حقيقة في أبي موسى، فكيف يتم التوفيق بين القولين، مع ملاحظة تعريف «**القصيدة**»، بدلاً من تنكيرها «**قصيدة**».

٥ ــ يقول الخبر: «**أما أطرفتني شيئاً، فعاد إليه، فأنشده**». وهدف الخبر هو إظهار حماد بمظهر من يضع الشعر وينسبه إلى غيره، فلماذا لم يروه القصيدة فوراً؟ ولماذا هذا التأجيل: «**فعاد إليه**»؟ والخبر يجعل حماد يزور بلالاً، وهو لا يزوره إلا ابتغاء نواله، وقد كان المفترض أن يحمل

---

(١) طبقات فحول الشعراء، ص ٤١.

في جعبته شيئاً، لا أن يؤجل النظر فيه، وما التأجيل إلا عمل مقصود من رواية يونس حتى يخلق حوله هذا الطعن فيه.

والعجب بعد ذلك أن يروي ابن سلام هذا الخبر، وأن يحكي ألفاظه، فيغفل عن تناقضاته، ولعل ابن سلام كان منجرفاً وراء رأي شيوخ مدرسته، حيثما كان الخبر يحقق هوى في نفسه للطعن في حماد.

وبعد أن انهار الخبر بتفصيلاته وبرجاله، فإن أبا الفرج يرويه بشكل أكثر تفصيلاً، فيقول:

«قال صالح:

وأنشد حماد الراوية بلال بن أبي بردة، ذات يوم قصيدة قالها، ونحلها الحطيئة، يمدح أبا موسى الأشعري، يقول فيها:

جمعت من عامر فيها ومن جشم ... ومن تميم ومن حاء ومن حام
مستحقبات رواياها جحافلها ... يسمو بها أشعري طرفه سامي

فقال له بلال....»[1].

وهنا نجد الخبر أكثر تنسيقاً من السابق، فحماد أنشد: «**ذات يوم**»، دون تحديد أو تأجيل، والقصيدة: «**قالها**» حماد و «**نحلها الحطيئة يمدح أبا موسى الأشعري**»، ومع ذلك، فهو خبر لا يبرأ أيضاً من التناقضات؛ فهو يجعل بلالاً يطرح سؤالاً على حماد، فيقول: «**أنت قلت ذلك الشعر؟**»، ويثبت أن قائله: «**بعض شعراء الجاهلية، وهو شعر قديم**»، بل إن الخبر يؤكد أن حماداً إنما يروي الشعر رواية حين يقول على لسانه: «**وما يرويه غيري**». وبهذا نفهم أن «**قالها**» تعني رواها، دون أن يفصح عن قائلها، أي إنه ادعاها لنفسه.

---

(١) الأغاني، ص ص ٨٤ ـ ٨٥.

ونمضي مع الخبر تلو الخبر، لنجد أن الأخبار كلها تهدف إلى إنطاق حماد بالشعر وتلبيسه تهمة نسبته إلى غيره، فها هو أبو الفرج يرويه بشكل آخر، فيقول:

«حدثني اليزيدي قال: حدثني عمي عبيد الله، قال: حدثني سليمان ابن أبي شيخ، قال: حدثني صالح بن سليمان، قال:

قدم حماد الراوية على بلال بن أبي بردة البصرة، وعند بلال ذو الرمة، فأنشده حماد شعراً مدحه به، فقال بلال لذي الرمة: كيف ترى هذا الشعر؟. قال: جيد، وليس له، قال: فمن يقوله؟ قال: لا أدري، إلا أنه لم يقله، فلما قضى بلال حوائج حماد وأجازه، قال له: إن لي إليك حاجة، قال: هي مقضية، قال: أنت قلت ذلك الشعر؟ قال: لا، فمن يقوله؟ قال: بعض شعراء الجاهلية، وهو شعر قديم، وما يرويه غيري، قال: فمن أين علم ذو الرمة أنه ليس من قولك؟ قال: عرف كلام أهل الجاهلية من كلام أهل الإسلام»[1].

وفي هذا الخبر يصبح حماد شاعراً يمدح بلالاً نفسه، لا جده أبا موسى الأشعري، فيقول: «**أنشده حماد شعراً مدحه به**».

والخبر هو عين الخبر السابق براويته صالح بن سليمان، وبألفاظه لولا هذه العبارة، وقد عرفنا حماداً في جميع حالاته وأخباره راوية، فكيف صار شاعراً هنا، يسرق شعر غيره ويدعيه لنفسه، ولماذا اقتصر كونه شاعراً على حالة فريدة واحدة، في حين أنه راوية في جميع الحالات؟ وهو على كل حال، عين الخبر السابق، والواقع أن عبارة: «**أنشده حماد شعراً مدحه به**»، تعني أنشده شعراً فيه مديح أبي موسى، لأن القصيدة المختلف عليها،

(١) الأغاني، جـ٦، ص ٨٤.

هي في أبي موسى وليست في بلال، وهو ما تكشف عنه رواية صالح السابقة لبعض أبياتها.

أما قوله عن ذي الرمة «**عرف كلام الجاهلية...**»، فإنه تأكيد على قِدَمِها، وأن بلالاً لم يعرفها للحطيئة في أبي موسى. وفي الخبر جاء قول بلال كما ذكرنا:

«**أنت قلت ذلك الشعر؟!**».

وهو استفهام استنكاري يعيدنا إلى الرواية الأولى التي تقول: «**قد علمت أن هذا شيء قلته أنت ونسبته إلى الحطيئة**»، أي إن بلالاً ينكر هذه القصيدة للحطيئة في أبي موسى، ويتشكك فيها وفي نسبتها؟ فـ«**قلت**» تعني هنا: أجئت أنت بالقصيدة؟ لأن بلالاً لا يعرفها، وهذا هو ما يعنيه الشق الآخر من الرواية: «**وإلا فهل كان يجوز أن يمدح الحطيئة أبا موسى بشيء لا أعرفه أنا ولا أرويه**». ويوضح نفي حماد، وإجابته بأن الشعر قديم لبعض شعراء الجاهلية، اختص وحده بروايته، أنه لم يَدَّع الشعر له، ولم يحاول ذلك، أما قوله عن ذي الرمة هنا:

«**عرف كلام أهل الجاهلية من كلام أهل الإسلام**».

التي قد توهم أن هذا تقويم للشعر الذي أنشده حماد في بلال، فإنه إنما يؤكد روايته، لأن قصيدة الحطيئة في أبي موسى، لا يعرفها بلال، وأفكارها إسلامية وليست جاهلية، وقد رفضها بلال، على حين قبلها ذو الرمة دون أن ينسبها. وهل بلغ حماد من الغفلة بحيث يمدح بلالاً بقصيدة في عصر احتدام العصبية القبلية، فيقول فيه:

جمعت من عامر فيها ومن جشم ... ومن تميم ومن حاء ومن حام

وسواء أجعلنا تلك غفلة أم ذكاء، فإن حماداً الراوية، لم يكن باستطاعته أن يكون حماداً قائل القصيدة، إذ إن تغيير مفردات القصيدة،

لتلائم مدح بلال، سيخلق عنده اضطراباً في اللغة والإيقاع، ثم تسقط القصيدة وينكشف الأمر، بل سيعجز هو عن الإنشاد.

ثم إن هذا المديح لا بد أن يكون في ولاية أبي موسى، وليس في إمارة حفيده بلال، ففي ذلك الوقت كان من الممكن جمع هذه القبائل المتباينة النسب، أما في عهد بلال، فكانت قبائل أسد وتميم وحاء وحام، تتحين الفرص للانقضاض على بعضها، وقد أثبت ذو الرمة أن الشعر ليس لحماد، ولم يقله، وأنه لا يعرف صاحبه حين قال عنه هنا أيضاً:

«**ليس له... لم يقله**».

والملاحظ أن ما مر به ذو الرمة هو أنه ميز القصيدة تمييزاً غير محدد، فقال: إنها قديمة، ولكنه لم يدرك قائلها؛ وهذا يجعل حماداً هو الذي أدركها وعرف صاحبها، ويدفعنا هذا الموقف إلى وصف ذاكرة ذي الرمة بأنها ذاكرة مهوشة غير محددة، في حين يجعل حماداً أكثر تركيزاً وانتباهاً[1]؛ وللتمييز قيمة كبرى في علم النفس الخاص بالذاكرة إذ يتمتع صاحبه بالاستقرار النفسي والثقة في الذات[2].

وحتى لا نكون ممن يقبل المتناقضات، ويُقبل على كل ادعاء، علينا أن نلاحظ أولاً لقب الراوية في هذا الخبر: «**قدم حماد الراوية على بلال بن...**». وفي الخبر السابق: «**أنشد حماداً الراوية بلال بن....**»، ثم قول ابن سلام: «**أنشده القصيدة في شعر الحطيئة**»، فحماد هنا، كما هو في غيره من المواقف، راوية وليس شاعراً، وثانياً يَلزمنا إما أن نسقط استماع بلال لحماد راوية، وإما أن نجعله يستمع إليه شاعراً، وهذا ما لم يحدث، وإنما كان يروي رواية. وإذن، فهو يروي الشعر له، ولم ينشىء

(١) انظر عن هذا الموقف: عطية الله، الذاكرة والنسيان، ص ٢٠٩.
(٢) المصدر نفسه، ص ص ٢٢١ ـ ٢٢٣.

الشعر فيه، أو يأتي به لينشده على أنه له، وهو الذي عُرف في كل محفل بالرواية والإنشاد، وليس بكونه شاعراً.

فـ «أنشده شعراً مدحه به»، تعني ما تعنيه على الحقيقة، أي الرواية والإنشاد، و «مدحه»، تعني إسماعه تلك القصيدة، والاستفهام الاستنكاري يعني عدم معرفة القصيدة، وحكم ذي الرمة يعني إثبات قدمها، وعلى هذا فنحن لسنا أمام شاعر، وإنما أمام راوية منشد.

ولا يزيدنا مهذب الأغاني إلا تنسيقاً للشعر وجمعاً له، إذ هو عين الخبر الذي رواه ابن سلام، وجاء مشتتاً في الأغاني، يقول عن حماد:

«أنشد بلالاً ذات يوم قصيدة قالها ونحلها الحطيئة يمدح فيها أبا موسى الأشعري، أولها:

هل تعرف الدار من عامين أو عام ... داراً لهند بجزع الخرج فالدام
تحنو لأطلالها عين ملمعة ... سفع الخدود بعيدات من الذام

يقول فيها:

وجحفل كسواد الليل منتجع ... أرض العدو ببؤس بعد إنعام
جمعت من عامر فيه ومن أسد ... ومن تميم ومن حاء ومن حام
وما رضيت لهم حتى رفدتهم ... من وائل رهط بسطام بأصرام
فيه الرماح وفيه كل سابغة ... جدلاء مبهمة من نسج سلام
وكل أجرد كالسرحان أضمره ... مسح الأكف وسقي بعد إطعام
وكل شوهاء طوع غير آبية ... عند الصياح إذا هموا بالإلجام
مستحقبات رواياها جحافلها ... يسمو بها أشعري طرفه سام
لا يزجر الطير إن مرت به سنحا ... ولا يفيض على قدح بأزلام

فقال له بلال: قد علمت أن هذا شيء قلته أنت ونسبته إلى الحطيئة، وإلا فهل كان يجوز أن يمدح الحطيئة أبا موسى بشيء لا أعرفه أنا ولا

أرويه، ولكن دعها تذهب في الناس، وسيِّرها حتى تشهر، ووصله»[1].

وبعد أن ظهرت لنا الحقيقة على ما هي عليه في التعرف على بعض جوانب هذه القضية المهمة، فإن محاولة رسم صورة مشوهة لحماد، لم تكن موفقة أو ناجحة، فبعد أن تجلت لنا عدة أمور غامضة في روايته، وبعد أن انزاحت عنه غشاوة غطت على الأضواء حوله، فإن هذه الأخبار التي خضعت للمصالح الذاتية، وتعرضت للتحريف إثر التحريف، غفلت عن أن القصيدة في مدح أبي موسى، هي للحطيئة حقاً فيه، ولم يصنعها حماد، وإنما رواها كما حفظها، ولم يعرفها بلال، فأصابته روايتها بالارتباك والاستغراب، وهذا يضفي على حماد بعداً أعمق، ويضيف إلى رصيده في الرواية والتوثيق إضافات كبيرة. فهذا أبو الفرج نفسه، يروي ما يصحح نسبة القصيدة للحطيئة في أبي موسى، فيقول:

«الشعر للحطيئة يمدح به أبا موسى الأشعري، لما ولاه عمر بن الخطاب رضي الله عنه العراق. . .، قال محمد بن حبيب: أتى الحطيئة أبا موسى يسأله أن يكتبه معه، فأخبره أن العدة قد تمت، فمدحه الحطيئة بهذه القصيدة. . . وقال المدائني: لما مدح الحطيئة أبا موسى رضي الله عنه بهذه القصيدة وصله. . . قال (المدائني): وزاد فيه حماد الراوية أنه يعني نفسه ـ (أي حماد)، أنشدها بلال بن أبي بردة، ولم يكن عرفها فوصله. . .»[2].

وبعد أن أثبت المدائني نسبتها إلى الحطيئة في أبي موسى، عاد ليقول:

---

(1) مهذب الأغاني، جـ ٣، ص ص ٢٦٢ ـ ٢٦٣. وانظر الأغاني، جـ ١٢، ص ١٣٣ في رواية خبر ابن سلام: «أخبرني القاضي أبو خليفة، إجازة، قال: حدثنا محمد بن سلام، قال: أخبرني أبو عبيدة عن يونس، قال: قدم حماد الراوية البصرة على بلال. . .».

(2) الأغاني، جـ ١٢، ص ص ١٣١ ـ ١٣٣.

«زاد حماد الراوية أنه يعني نفسه (أي حماد)، أنشدها بلال بن أبي بردة، ولم يكن عرفها فوصله».

وهي عبارة تحمل النتيجة السابقة نفسها. وفي رواية أخرى نجد المدائني يتجاوز ذكر القصيدة وعلاقتها بأبي موسى وحماد، إلى القطع بصحتها، يقول أبو الفرج:

«ذكر المدائني أن الحطيئة قال هذه القصيدة في أبي موسى، وأنها صحيحة قالها فيها، وقد جمع جيشاً للغزو، فأنشده:

جمعت من عامر فيها ومن أسد

وذكر البيتين، وبينهما هذا البيت وهو:

فما رضيتهم حتى رفدتهم   بوائل رهط ذي الجدين بسطام

فوصله أبو موسى، فكتب إليه عمر رضي الله عنه يلومه على ذلك فكتب إليه: إني أشتري عرضي منه بها، فكتب إليه عمر: إن كان هذا هكذا، وإنما فديت عرضك من لسانه، ولم تعطه للمدح والفخر، فقد أحسنت، ولما ولي بلال بن أبي بردة، أنشده إياها حماد الراوية، فوصله»[1].

---

(١) المصدر نفسه.

التخريج، ديوان الحطيئة، ص ص ٢٢٥ ـ ٢٢٧. وجاء في طبقات الشعراء لابن سلام، ص ٤١.

أخبرني أبو عبيدة عن يونس، قال: قدم حماد البصرة على بلال بن أبي بردة، وهو عليها، فقال: أما أطرفتني شيئاً، فعاد إليه، فأنشده القصيدة في شعر الحطيئة، مديح أبي موسى، قال: ويحك! يمدح الحطيئة أبا موسى، لا أعلم به، وأنا أروي شعر الحطيئة؟ ولكن دعها تذهب في الناس».

وجاء في الأغاني، ج ٦، ص ص ٨٤ ـ ٨٥:

«أنشد حماد الراوية بلال بن أبي بردة، ذات يوم قصيدة قالها ونحلها الحطيئة، =

وإذن، فالمسألة لا تعدو إنشاد الشعر القديم ودخول بعضه في بعض. وهنا نعود مرة أخرى إلى صلب الموضوع، ظاهرة التداخل والاختلاط، إحدى الظواهر التي وسمت كل آداب شعوب العالم الشفوية.

وعلى هذا، فإن القصة تشير إلى ما يأتي:

١ ــ أن القصيدة جاهلية، وأن حماداً رواها لبلال.

٢ ــ أن حماداً وبلالاً وذا الرمة كانوا جميعاً على إدراك بأن القصيدة قديمة.

٣ ــ أن حماداً لم يغيِّر فيها، وإنما أنشدها كما حفظها. وكان من المفترض أنه لو وجهها لنفسه أن يغير فيها بحيث تشتمل على اسم بلال، ولذلك يختل إجماع الثلاثة على قدمها.

٤ ــ أن اعتراف حماد بأن قائله: «**بعض شعراء الجاهلية، وما يرويه غيري**»، اعتراف بامتلاكه حافظة قوية جداً في إبّان نشاطها، وما هذه الظاهرة التي ألمحنا إليها إلا مظهر من مظاهر اكتنازها وسعتها، وأنه يروي الشعر ولا ينشئه.

وليس من شك في أن المدرسة البصرية كانت وراء ذلك الترويج، فهي تتشبث بالنصِ المجمع عليه عندهم، ولا تتسامح في أية رواية لا تتفق مع ذلك.

وهكذا أثبتت رواية الأغاني أن الحطيئة قال القصيدة حقاً في أبي موسى، فهي تقول: «**الشعر للحطيئة يمدح به أبا موسى...**». ثم استشهد

= يمدح أبا موسى الأشعري، يقول فيها:

جَمَعْتَ مِنْ عَامِرٍ فيهَا وَمِنَ جُشَمٍ ... وَمِنْ تَمِيمٍ وَمِنْ حَاءٍ وَمِنْ حَامِ

مُسْتَحْقِبَاتٍ رَوَايَاهَا جَحَافِلُهَا ... يَسْمُو بِهَا أَشْعَرِيٌّ طَرْفُهُ سَامِي»

بمحمد بن حبيب (ت ٢٤٥ هـ)، الذي أثبت القصة. وهكذا، فإن رواية المدائني تؤكد صحة القصيدة، بل إن الخبر الذي رافقها، أي كتابة عمر رضي الله عنه لأبي موسى، وردّ أبي موسى عليه، لهو من الأدلة القوية على صحة الخبر، فالخبر لا يحمل في ظاهره إلا الحقيقة، وليس فيه ما يوحي بالدس أو التضليل.

وبعد، فلنا وقفة مع القصيدة، حسبما جاءت في ديوان الحطيئة، على النحو التالي:

هَلْ تَعْرِفُ الدّارَ مُذْ عَامَيْنِ أَوْ عَام ... دَاراً لِهِنْدٍ بِجَزْعِ الخَرْجِ فَالدّام[1]

تَحْنُو لِأَطْلاَئِهَا عِينٌ مُوَلَّعَةٌ ... سُفْعُ الخُدُودِ بَعِيدَاتٌ مِنَ الذَّام[2]

لَقَدْ أُغَادِي بِهَا صَفْرَاءَ آنِسَةً ... لا تَأْتِلِي دُونَ مَعْرُوفٍ بِأَقْسَام[3]

خَوْداً لَعُوباً لَهَا رَيَّا وَرَائِحَةٌ ... تَشْفِي فُؤَادَ رَذِيِّ الجِسْمِ مِسْقَام[4]

وَمَا رَمَيْتَ بِهِمْ حَتَّى رَفَدْتَهُمُ ... مِنْ وَائِلٍ رَهْطِ بِسْطَامٍ بِأَصْرَام[5]

فِيهِ الرِّمَاحُ وَفِيهِ كُلُّ سَابِغَةٍ ... جَدْلاَءَ مُبْهَمَةٍ مِنْ صُنْعِ سَلاَّم[6]

وَكُلُّ أَجْرَدَ كَالسِّرْحَانِ آزَرَهُ ... مَسْحُ الأَكُفِّ وَسَقْيٌ بَعْدَ إِطْعَام[7]

---

(١) الخرج والدام: موضعان.

(٢) الأطلاء: جمع طلا، وهو ولد البقرة.
مولعة: بها توليع من سواد، أي خطوط في قوائمها. السفعة: سواد إلى حمرة.
الذام: العيب.

(٣) صفراء: اصفرت من الطيب. آنسة: ذات أنس تؤنس بحديثها من غير ريبة.
لا تأتلي: لا تصنع معروفاً؛ ويريد بالمعروف، السلام.

(٤) الخود: الحسنة الخلْق الشابة أو الناعمة. الريا: الريح الطيبة.
الرذي: من أثقله المرض، والضعيف من كل شيء.

(٥) رفدتهم: أعنتهم. بسطام: هو بسطام بن قيس بن مسعود، من فرسان الجاهلية، من بكر بن وائل. الأصرام: البيوت المجتمعة، جمع صِرْم.

(٦) السابغة: الدرع. الجدلاء: اللطيفة المجدولة. مبهمة: لا تستبين فيها أطراف حلقها. سلام: أراد سليمان بن داود عليه السلام.

(٧) الأجرد: القصير الشعر. السرحان: الذئب. آزره. أتمه وأضمره. سقي: يعني اللبن.

وكُـلُّ شَـوْهَـاءَ طَـوْعِ غَيْـرِ آبِيَـةٍ عِنْـدَ الصَّبَـاحِ إذَا هَمُّـوا بِـالْجَـامِ[1]
مُسْتَحْقِبَـاتٍ رَوَايَـاهَـا جَحَـافِلَهَـا يَسْمُوا بِهَا أَشْعَرِيٌّ طَرْفُهُ سَامِي[2]
لا يَـزْجُـرُ الطَّيْـرَ إنْ مَـرَّتْ بِـهِ سُنُحـاً وَلا يُفِيـضُ عَلَـى قَسْـمٍ بِـأَزْلاَمِ[3]
يَـا لَهْـفَ نَفْسي عَلَى بَيْعٍ هَمَمْتُ بِـهِ لَـوْ نِلْتُـهُ كـانَ بَيْعَ الـرَّابحِ النَّـامِـي[4]
أُرِيـدُهُ إذْ نَـأَى مِنِّـي وَأَتْـرُكُـهُ مِنْ بَعْدِمَا كانَ مِنِّي قِيسَ إبْهَامِي[5]
نَفْسِـي فِـدَاكَ لِنُعْمَـى تُسْتَـرَادُ لهـا وَلِلـزُّحُـوفِ إذَا هَمَّـتْ بِـإِقْـدَامِ[6]
وَجَحْفَـلٍ كَبَهِيـمِ اللَّيْـلِ مُنْتَجِـعٍ أَرْضَ العَـدُوِّ بِبُـؤْسَـى بَعْـدَ إنْعَـامِ[7]
جَمَعْـتَ مِـنْ عَـامِـرٍ فِيـهِ وَمِـنْ أَسَـدٍ وَمِـنْ تَمِيـمٍ وَمِـنْ حَـاءٍ وَمِـنْ حَـامِ[8]

ومع أن مصطفى صادق الرافعي قال عنها:

«والبصير بالشعر ومذاهبه، إذا قرأ شعر الحطيئة أخرج هذه القصيدة منه، لأنها تقليد ومقاربة، وإن كان المدائني قد صحح أنها للحطيئة في أبي موسى، ونفى أن يكون حماد نحلها الحطيئة تقرباً إلى بلال،

---

(١) الشوهاء: الحسنة. طوع: مطاوعة عند الإلجام والإسراج عند الصباح، وقت الغارة.

(٢) الروايا: الإبل التي تحمل الماء والزاد، فالخيل تُجنب إليها، فإذا طال عليها، السفر وضعت جحافلها على أعجازها، فصارت كأنها قد استحقبت جحافلها، أي جعلتها حقائب لها.

(٣) لا يزجر: لا يتطير من السانح أو البارح. على قسم: لا يستقسم بالأزلام، والأزلام: القداح، جمع زَلَم. الإفاضة: الضرب بالقداح.

(٤) البيع: الفرض الذي دعاه إلى أبو موسى، وكان قدم عليه، فعرض عليه أن يَفرِض له، فأبى، ثم قدم، فطلب الفريضة، فلم يقدر عليها.

(٥) القِيس: القَدْر.

(٦) تستراد: تطلب. الزحوف: الجيوش.

(٧) الجحفل: الجيش الضخم. كبهيم الليل: كالليل الذي لا قمر فيه.
منتجع: أي يأتي أرض العدو للغارة، وأصل الانتجاع، طلب الغيث.
بعد إنعام: بعدما كانوا ينعمون على غيرهم، أي يغزو ليبدل نعمتهم ببؤس.

(٨) حاء: قبيلة من مذجح، حام: قبيلة من خثعم.

فإن نَفَس الشاعر أصدق في نسبة كلامه من ألسنة الرواة»[1].

فإن القصيدة لا تختلف في نمطها وصياغتها عن أية قصيدة جاهلية، بل هي متوافقة تماماً مع أسلوب الحطيئة وطريقته في الإبداع والتفكير. ولا يعقل أبداً أن ينظم مقلِّد شعراً فيحشد فيه مثل هذه الصور الرائعة، حتى إنه يأتي بما يتوافق مع المنطوق الشعبي للنبي سليمان عليه السلام، فيسميه «سلاَّم»، كما سماه النابغة «سُلَيم» في قوله:

ونسج سليم كلُّ قَضَّاء ذائل[2]

كما أنه يساير التفكير الشعبي في نسبة عمل الدروع إلى سليمان، مع أن الذي عملها داود عليه السلام.

ولو أخذنا بقية الصور، لوجدنا أنها تعكس تفكيراً خاصاً جداً، فقوله: «**آزره/ مسح الأكف وسقي بعد إطعام**» إشارة إلى عمل من أعمال الفروسية التي تجمع بين المبالغة في إكرام الفرس وإطعامه. أما قوله:

مستحقبـات روايـاهـا جحـافلهـا ... يسمـو بهـا أشعـري طـرفـه سـامـي

فهو بيت لا يمكن أن يقوله إلا من عايش حياة الصحراء وحياة الفروسية، مهما بلغت خبراته الثقافية، وذلك أنه يقول: إن الخيل تُجْنَب إلى الإبل التي تحمل الماء والزاد، فإذا طال عليها السفر وضعت جحافلها على أعجازها، فصارت كأنها قد استحقبت جحافلها، أي جعلتها حقائب لها.

---

(١) تاريخ آداب العرب، حاشية، ص ٣٦٤.

(٢) ديوانه، ص ١٤٦. القضاء: الدروع الحديثة العمل، الخشنة الملمس.
الذائل: الدرع الواسعة ذات الذيل.
وانظر قصيدة النابغة اللامية هذه، ديوانه، ص ص ١٤٤ ـ ١٤٨، ففي قصيدة الحطيئة تلك روح كبيرة منها.

ثم إنه لو كان حماد صانعاً لهذا الشعر الرائع الجميل، الذي يتطابق مع خصائص شعر الحطيئة، لوقع في تناقضات، ولم يستطع التوفيق بين الفكر الوثني والفكر الإسلامي كما في قوله: «لا يزجر الطير...»، فيحوِّله إلى اتكال على الله تعالى بدلاً من الاتكال على الأوثان، مع أنه استخدم ألفاظاً من صميم الجاهلية. ولقد نبَّه محقق الديوان إلى ملاحظة بالغة القيمة في هذه القصيدة، فقد علق على قوله، الذي يعني فيه الفرض الذي دعاه إليه أبو موسى فأبى ثم طلبه فلم يقدر عليه:

يا لهف نفسي على بيع هممت به … لو نلته كان بيع الرابح النامي

فقال:

«لعله يومىء من طرف خفي إلى الآيات الكريمة التي تدور حول معنى بيع المؤمنين أنفسهم بالجنة وثواب الآخرة، كقوله تعالى في سورة البقرة (آية: ٢٠٧):

﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله﴾. وفي سورة التوبة (آية: ١١١) **﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾**»[1].

وإلى جانب ذلك، فهناك لغة القصيدة، التي تدل على تحسس وتذوق للمفردات والألفاظ.

(١) ديوان الحطيئة، ص ٢٢٧.



الفصل الثاني

سرقة دالية الطرماح

لم نوفق حتى الآن في إيجاد دليل ملموس قاطع على الزيادة المتعمدة التي تؤثر في تركيب الشعر أو تقلل من قيمة نسبته إلى الجاهلية، حتى البيتان اللذان يفترض إضافتهما إلى زهير، هما بيتان ثبت نسبتهما إلى زهير. كما أننا لم نصل إلى ما يقنعنا بأنه يقول الشعر، ويدَّعي قوله، فينسبه إلى نفسه، وقد بقيت لدينا أقوال مثل قول المهدي عنه: «**حماد الشاعر**».

وقول حماد:

«**أنا قلت ذلك الشعر**».

وكان هذان الزعمان جراء بيتي زهير، اللذين مضى الحديث عنهما. وقبل قليل كنا مع أبيات للحطيئة، وقول لصالح بن سلمان عن إنشاد حماد بلالا:

«**أنشده حماد شعراً مدحه به**».

وقول ذي الرمة:

«**ليس له... لم يقله**».

وذلك وفق الرواية الأخرى، أما الرواية الأولى: فتقول:

«أنشد حماد. . . قصيدة قالها ونحلها الحطيئة يمدح أبا موسى. . . »
وراوية الخبرين واحد، هو صالح بن سليمان. وهذا يدل على أن: «قالها»، كما اتضح لنا تعني: رواها، وحماد إنما يروي شعراً للحطيئة، ولهذا دار الخلاف، وتمسك به المعترضون عليه، ومنهم ابن سلام الذي أكد، قبل أبي الفرج، أنها تخص الحطيئة، ولم يقل إنه قال شعراً مدح به بلالاً، وإنما تدور القضية كلها حول إنشاد حماد شعراً نسبه إلى الحطيئة، وهذا ما ناقشناه، وهو يؤدي بنا هنا إلى تأكيد معنى رواية الشعر وإنشاده لا نسبته إلى نفسه.

ولأول مرة في تاريخ رواية حماد، نجد الرواية الوحيدة التالية:

«الطرماح قال: أنشدت حماداً الراوية في مسجد الكوفة. . .

بان الخليط بسحرة فتبددوا

وهي ستون بيتاً، فسكت ساعة ولا أدري ما يريد، ثم أقبل علي فقال: هذه لك؟ قلت نعم، قال: ليس الأمر كما تقول، ثم ردها علي كلها وزيادة عشرين بيتاً زادها فيها في وقته، فقلت: ويحك! إن هذا الشعر قلته منذ أيام ما أطلع عليه أحد، قال: والله، قلت أنا هذا الشعر منذ عشرين سنة. . . »[1].

وفي الخبر نعثر على قول حماد نفسه:

«والله، قلت أنا هذا الشعر منذ عشرين سنة».

ولعل هناك من يأخذ هذه الحادثة *anecdote* الفريدة، على أنها دليل على كون حماد يقول الشعر، مثلما أقر سابقاً للمهدي عن أبيات زهير: «أنه قائلها»، وهو في الحقيقة لم يقلها بل رواها، أو إذا أسأنا الظن به،

---

(١) الأغاني، جـ١٦، ص ص ٣٥١ ـ ٣٥٢.

فأسقطنا الموروث الشفوي من الحسبان، أن نقبل اعترافه، حسب رواية السيوطي: «**أنا زدت فيه هذه الأبيات**»، وهذا يطرح احتمالات ثلاثة، هي:

الاحتمال الأول:

أن هذا الوضع يشابه الأوضاع السابقة، أي الزيادة: «**ردها علي كلها وزيادة عشرين بيتاً زادهاً في وقته**». فهناك قصيدة، أي نص في حالة الطرماح، عدده ستون بيتاً، وهناك زيادة على هذا العدد عددها عشرون بيتاً، فحماد، إذن، لم يقل القصيدة أو يبدعها، وإنما رواها، لأن الشعر في الأصل للطرماح، ولأنه «**ما أطلع عليه أحد**». وعلى هذا، فإن معنى «**قلت**» هو «**رويت**»، وهو المعنى المتضمن في قوله عن أبيات زهير: «**قائلها**»، أي راويتها، حسبما تبين لنا من القصة، ولقد مر بنا توارد خبره وخبر أبي عمرو بن العلاء في زيادة بيت الأعشى: «**وأنكرتني...**»، وألمحنا هناك إلى فكرة الزيادة والاعتقاد بأن الراوية من أمثالهما، يصل إلى مرحلة توهم قول الشعر، فيظن أن الزيادة من قوله، على حين أنها مظهر من مظاهر تسربات الذاكرة. وعلينا أن نتنبه جيداً إلى قبول الطرماح لتلك الزيادة، ودخول العشرين بيتاً في القصيدة دونما نشاز، بحيث اشتبه الأمر على الطرماح نفسه، فخُيل إليه أن القصيدة ليست له. وتفسير هذه الحادثة في ضوء هذا الاحتمال، لا يخرج عما مضى من تفسيرات، إنه ازدحام الذاكرة بذلك الكم الهائل من الأشعار ذات الإيقاع الواحد والقافية الواحدة. فقصيدة الطرماح:

بان الخليط بسحرة...

هي من البحر الكامل، ورويها الدال، وكم هناك من شعر قديم في هذا الوزن، وذلك الروي، بل كل هذه الأفكار الرئيسة التي تحملها القصيدة؛ فالقصيدة تبدأ بوصف رحلة المحبوبة وما في الصحراء من غربان وجنادب وما يلاقيه المسافر من جفاف وقسوة، وظعائن المحبوبة تقطعها،

ثم وصف الناقة والبعير، ويعود كرة أخرى إلى وصف الصحراء ويتطرق إلى وصف ذكر النعام، وبعد ذلك يبدأ في وصف رحلته هو على ظهر بعيره الذي يصوره فيشبهه بالثور الوحشي الذي تطارده الكلاب.

إننا هنا في واقع الأمر أمام ما يعرف بـ «الانتحال غير الواعي **Unconscious plagiarism**» وهناك أمثلة لا تحصى على مثل هذا الموقف، ليس في مجال الأدب، بل في مجالات أخرى كالموسيقى والرسم(١). وسبب ذلك يعود إلى الألفة والمعرفة بالشيء.

وحيث إن هذه حالة فريدة من حالات حماد، فإنها تعد حالة شاذة، لا يقاس عليها؛ ولذلك يخرج عن أن يكون موقفاً متعمداً منه، لأنه حتى الانتحال غير الواعي يتطلب وقتاً وألفة. والظاهر أن الطريقة التي أنشد فيها الطرماح قصيدته، كانت هي الدافع وراء ذلك الوهم، لأن الطرماح أنشد هذه القصيدة الرتيبة الإيقاع، المتواردة المعاني في طول يبعث على الضجر، ويدعو إلى النسيان وانفلات شد الانتباه، ثم السَّرَحان، وبعد ذلك، انبعاث تواردات أخرى، تأخذ مجراها في جو القصيدة، حتى تحل أخرى شيئاً فشيئاً محلها، ولو كان حماد يقرؤها، لما وقع في هذا الالتباس، وإنما أوقعه فيه نشيدها الموقَّع من الطرماح.

ومع كل، فإن قراءة قصيدة الطرماح، بينت لنا أن إعادة تماسكها ووحدتها تتوافق مع شواهد مماثلة من شعره.

ومن ثم، فإنه على افتراض صحتها، فهي تبين شاعرية حماد المزعومة؛ إنها ضخامة مستودع متعدد الروافد من الرواية الشفوية، يجعله يتوهم أن ما يسمعه ليس شعراً جديداً، وإنما هو شعر قديم حفظه منذ عشرين سنة، حتى إنه لطول معايشته لهذه الأشعار ذات الإيقاعات الرتيبة

---

(١) *Hunter, Memory, P22*.

والقافية المطردة أصبح مثل هذا الشعر من السهولة لديه بحيث لا يجد فيه جديداً، وإنما هو جزء منه، أي من مروياته، وفي هذا برهان جديد على أن اختصاصه كان الرواية. ولولا أن هذه القصيدة كانت قصيدة نمطية تعود إلى النموذج الأعلى **Archtype** وهي وفق التكرار المألوف والمعتاد في الأشعار القديمة من عبارات وألفاظ وقوالب صياغية، أي جزء من النمطية **Steryotype** التي تشكل عماد رواية حماد، لما انسجمت معها تلك الأبيات العشرون، ولخرجت عن سياقها، ولقال الطرماح إنها لا تشاكلها، ولا تتفق معها. ولهذا لم نجده يسلك هذا السلوك مع كل من احتك به، حتى ذو الرمة، ذلك الشاعر التقليدي الذي أعجب به ذات يوم. وهو لم يقل ذلك للفرزدق، ولا لجرير، ولا للكميت، ولا حتى للطرماح في غير هذه القصيدة.

كما أن الحادثة تثبت شيئاً آخر غير ما توحي به، إنها تثبت أن حماداً يمتلك ذاكرة تخطف القول كخطف البرق، إنها قوة استذكار عجيبة، بحيث إنه ما إن يسمع شعراً، مهما كان طوله، حتى تلتقطه ذاكرته التقاطاً مدهشاً، فيعيده ثانية كما هو. فالطرماح ينشد حماداً ستين بيتاً، وما هي إلا برهة وجيزة، حتى يعيدها كما هي بنت وقتها. وهذا الوضع الغريب قد يكون مشهوداً عليه عند آخرين.

وعلى الرغم من غرابة هذه القصة، فإن واقع قصة الطرماح وحماد، واقع قد يمهد للتوقف عندها.

ولكي تتضح الصورة أكثر، ولكي نصل إلى موقف صريح من هذه القصة التي ربما بعثت على القلق من رواية حماد، نأخذ أمثلة أخرى تدلل على تلك الموسوعة الشعرية التي تحمّل عبأها في حفظ الشعر الجاهلي القديم، يضاف إليه أشعار المخضرمين والأمويين، إلى جانب رواية الأخبار حتى يستثير هذا دهشة الوليد فيقول له:

«إن هذا العلم، وأبيك كبير»[١].

فها هو في حضرة الوليد بن يزيد، ومجلسه عامر بالشعراء، يتصدر المجلس فيسمع الشعر، ويصمت كل من حضر إلا حماداً، الذي يستعيد الشعر ثم يتبادر إلى ذهنه، أن هذه الأشعار كالأشعار التي يحفظها، فلا جديد في الموضوع، ولا جديد في الصياغة. يقول مروان بن أبي حفصة راوياً هذه الحكاية:

«دخلت أنا وعداد من الشعراء على الوليد، وإذا رجل غائب في الفراش، وكنا عدة من الشعراء: طريح وأشجع وغيرهما.

قال: فكل من أنشد التفت إلى الخليفة، فقال: سرق ذا من كذا وذا من كذا، حتى يأتي على شعره، فقلت لبعض من أقول: من هذا؟ قال: حماد الراوية»[٢].

ومسألة سرقة الشعر، مسألة عايشها النقد القديم وعرفها الرواة، وهي هنا تعتمد على ملاحظة الصياغة والتركيب والمعنى في الأبيات المفردة، كما يوحي به الخبر، وهو خبر يختلف عما أثاره الطرماح منذ قليل.

ولم يكن الموقف مقتصراً على مروان، أو غير مروان، ممن هم في عداد شعراء العصر الأموي، ذوي المكانة والشهرة، بل تعداه إلى رجل يحذر منه الرواة، ويتهيبه العلماء، إنه الفرزدق، وكما هو الحال مع الطرماح ومع مروان، وعدد من الشعراء. حيث يعتقد حماد أنه لا يجد

---

(١) الأغاني، جـ ٦، ص ٦٩.

(٢) الزجاجي، مجالس العلماء، ص ٢٧. ورواية الأغاني جـ ٦، ص ٦٩: «وإذا رجل عنده... كلما أنشد شاعر شعراً، وقف الوليدَ بنَ يزيد على بيت بيت من شعره، وقال: هذا أخذه من موضع كذا وكذا، وهذا المعنى نقله من موضع كذا وكذا من شعر فلان، حتى أتى على أكثر الشعر».

جديداً، بل معاداً مكروراً، إيقاعاً ولغة ومعاني، يقف الموقف نفسه مع الفرزدق، يقول الوليد بن هشام رواية عن أبيه:

«أنشدني الفرزدق وحماد الراوية حاضر:

وَكُنْتَ كَذِئْبِ السَّوْءِ لَمَّا رَأَى دَماً بِصَاحِبِهِ يَوْماً أَحَالَ عَلَى الدَّمِ

فقال له حماد: أنت تقوله؟ قال: نعم، قال ليس الأمر كذلك، هذا لرجل من أهل اليمن، قال: ومن يعلم هذا غيرك. أفأردت أن أتركه وقد نحلنيه الناس ورووه لي، لأنك تعلمه وحدك ويجهله الناس جميعاً غيرك»[1].

فلقاؤه هذا مع الفرزدق، يأتي لدعم هذه الحافظة الضخمة لديه، وهذا التداخل الذي كان يقع فيه، حتى إن الفرزدق نفسه يتشكك في بيته:

وكنت كذئب السوء لما رأى دما بصاحبه يوماً أحال على الدم

فيعترف أنه أخذه من غيره. مع أن الفرزدق قال معنى ترادف عليه شعراء كثيرون، وأصبح في مضمون المثل، وألفاظه مهما اختلف قائلوها، تعود إلى معجم واحد حول ما تعارف عليه العرب من أكل الذئب لصاحبه إذا ما جرح. ولولا مكانة حماد وثقله في الرواية، لما سَلِم من لسان الفرزدق ولناله من هجائه ما نال غيره في مثل هذه المواقف، بل إنه انتزع منه اعترافاً يشح به الفرزدق على غير نفسه، حين يقول له في كلمة، أغفلها النقد والأدب في حقه:

«إنك تعلمه وحدك، ويجهله الناس جميعاً غيرك».

وهو قول يكشف عن خشية الفرزدق من سعة علم حماد، أو هو اعتراف مطلق بعلمه.

---

(١) الأغاني، جـ٦، ص ٩٠.

الاحتمال الثاني:

هو أن غرابة القصة وخصوصيتها يبعثان على الشك فيها، ولو كانت صحيحة حقاً، لأشير إلى أيٍ من الأبيات التي أضافها حماد. ولعل مما يبعث على الحذر من قبولها، هو أن زمنها المبكر لا يسمح بهذا التداخل والادعاء، ولو حدث هذا في زمن متأخر، بعد أن يكون قد تقدم حماد في السن، فضعفت ذاكرته، بفعل الإدمان المتواصل على النبيذ، واختلاف الظروف السياسية الجديدة القاسية، وتراكم الضغوط النفسية عليه، ووجود فراغ ثقافي حوله، لأمكن تصور مثل هذه الحادثة، أما في عصر الطرماح، فإن هذا الاحتمال ضعيف جداً، وتغدو القصة كلها غير صحيحة.

الاحتمال الثالث:

هو، أننا عندما نعيد النظر في القصة، نجد أنها تقول:

«أنشدت حماداً... ستون بيتاً، فسكت ساعة... ثم ردها علي كلها وزيادة عشرين بيتاً زادها فيها في وقته».

فإذا صرفنا النظر عن احتمال التداخل، أو التوارد، أو توهم القول، أو الذاكرة الأعجوبة، فإن الاحتمال الآخر هو توجيه التهمة إلى الطرماح نفسه، لاختلاقه القصة على الأقل، إن لم يكن سرقته القصيدة وافتضاح أمرها على يد حماد، لأنه لو أن حماداً حفظها من أول مرة سمعها، لأعادها في التو دونما انتظار، ودون أن يطرأ أدنى تغيير على ألفاظها، إذ لا بد لحفظ مثل هذا الكم الكبير أن يتكرر عند سماعه حتى يتخذ طريقه إلى ذاكرته.

وبعد، فهذه القصيدة موجودة في ديوان الطرماح، وهي فيه ثلاثة وستون بيتاً، لا تزيد، وليس لها روايات أخرى، فكيف وصلت ثمانين بيتاً، وأين تلك الزيادة؟ وكيف تم التوافق بين إنشاد الطرماح وإنشاد حماد؟.

ونحن في الواقع حين نقرأ القصيدة نجدها تقليدية خالصة، حتى كأنها قطعة مستوحاة من الماضي، كما بينا سابقاً، والبيتان الوحيدان اللذان تنفرد بهما هما آخرها:

أَنْبَا بِحَاجَتِكَ الأَمِيرُ وَمَدَّهُ   فِي ذَاكَ قَوْمٌ كَاشِحُونَ فَأَجْهَدُوا

وَرَمَى مَدَى غَرَضِي فَقَصَّرُ دُونَهُ   هَيْهَاتَ مِنْكَ مَدَى الكِرَامِ الأَبْعَدُ[1]

وعلى الرغم من أنهما يحملان مشكلة خاصة، فقد جاءا بأخرة من القصيدة، وكأنهما ملصقان بها. فهل نعود لنسأل مرة أخرى: أهي قصة *anecodet* أم حقيقة، وأين يكمن الصدق فيها؟!.

وواقع الأمر في الجدل حول هذه القصيدة، هو أنها، وعلى الرغم من نمطيتها وشدة تقليدها، قصيدة من قصائد الطرماح، وأن الخلط فيها لا يستقيم ألبتة، إلا إذا اتهمنا شاعرية الطرماح وذوقه ومداركه، وقبلنا نحن جزافاً كل مقال. ولو اقتصرت الحكاية على إعادة إنشاد القصيدة لقويت الحجة، ولكن زيادة عشرين بيتاً في هيكل واحد لا يكون. فقد صنع الطرماح قصيدته صناعة محكمة، واختار لغة متميزة، وشكل القصيدة على نحو يبين قدرته اللغوية والتصويرية. ولو شاء حماد أن يحفظها عن ظهر غيب، لاستدام ذلك فترة لا تحدد بساعة، مهما بلغت قدرته، والقصيدة ستون بيتاً كاملة.

ومن الأمور التي تحول دون التركيز في الحفظ وثبات الوعي، أن القصيدة لا تسير سيراً معتاداً مألوفاً، فهي تتحرك في دائرة الوصف، وتذهب هنا وهناك، بحيث يتشتت الذهن، فمن وصف الظعن إلى وصف الغراب... بل إنها تخرج حتى عن التركيب العام في وصف الثور الوحشي، فالتركيب العام أن يُطارَد الثور فيفلت من الصائد أو يقع في

---

(١) ديوان الطرماح، ص ص ١٢٨ ـ ١٥٤.

قبضته، ولكن الطرماح شاء أن يفلت الثور والبقرة بصحبته، ما عدا بقرة تأخرت عنهن من أجل ولدها، ثم يمضي الثور ناجياً وحده. وفي هذا التصوير خلط واضح، أو جمع لعدة لقطات متفرقة، ومناظر مختلفة. فهناك منظر البقر والثور التي لا تكون إلا جميعاً[١]. وهناك منظر آخر للبقرة الوحشية التي تغفل عن ولدها، فيأكله الذئب[٢]. وهناك منظر الثور المنفرد الذي ينجو سالماً بعد صراع مع الكلاب[٣]. ويبدو أن الخلط في اللقطات والمناظر أدخل صورة الحمار الوحشي مع أتنه[٤]. وهو المنظر القريب جداً من هذه الصورة. ويؤكد هذا الخلط عسر التركيز والانتباه، خاصة أنها لا تسير على وتيرة واحدة كما هو المعتاد في الشعر الذي تخصص فيه حماد، وقد لفق الطرماح من كل هذا صورة جامعة، تفرقت عند غيره.

وإذن، فيحق لنا كل الحق الآن أن نرفض مثل هذه الحكاية رفضاً كاملاً، وأن نطالب الدارسين بإعادة تقويم تاريخ حماد وسيرته. ولكي نقتنع قناعة تامة بهذا الطرح، نأخذ ذلك التصوير الذي رسمه الطرماح للثور لغة وتركيباً، والذي يسلس ويعذب حين يكون صدى لشعر سابق عليه مثل قوله:

كمخفــق الحشييــن بــات تلفــه	**وطفـــاء ســـاريـــة وهـــف مبـــرد**
ضــاحي المــراعي والطيات كــأنــه	**بـلــق تعـــاوره البنـــاة ممـــدد**
يقــق الســراة كــأن فــي سفــلاتــه	**أثــر النــؤور جــرى عليــه الإثمــد**

(١) انظر مثلاً صورة الثور الوحشي مع البقر عند زهير، شرح شعره، ص ٢٧٩.
(٢) انظر مثال ذلك عند الأعشى، ديوانه، ص ١٠٥.
(٣) انظر صورة الثور الوحشي بمفرده عقد النابغة، ديوانه، ص ص ٢١٥ـ٢١٦.
(٤) قارنه بصورة الحمار الوحشي وأتنه عند ربيعة بن مقروم الضبي، المفضليات، ص ص ٣٥٦ـ٣٥٨.

وقوله:

يبدو وتضمره البلاد كأنه ... سيف على شرف يسل ويغمد

فهذه السلاسة والعذوبة وتفاوتهما في جو القطعة وحدها، لأحد البراهين على الصناعة وملاحظة الموقف.

يقول الطرماح[(١)]:

هَلْ يُدْنِيَنَّكَ مِنْهُمُ ذُو مَصْدَقٍ ... شَجِعٌ يَجِلُّ عَنِ الكَلَالِ وَيَحْصَدُ[(٢)]

كمُخَفَّقِ الحشْيَيْنِ بَاتَ تَلُفُّهُ ... وَطْفَاءُ سَارِيَةٌ وهِفٌّ مُبْرِدُ[(٣)]

ضَاحِي المَرَاعِي والطِّياتِ كَأَنَّهُ ... بَلَقٌ تَعَاوَرَهُ البُنَاةُ مُمَدَّدُ[(٤)]

يَقَقُ السَّرَاةِ كَأَنَّ في سَفِلَاتِهِ ... أَثَرَ النَّؤُورِ جَرَى عَلَيْهِ الإِثْمِدُ[(٥)]

---

(١) ديوانه، ص ص ١٤٣ ـ ١٥٠.

(٢) منهم: أي من أحبابه الراحلين بظعنهم والذين ذكرهم. ذو مصدق: أي بعير صادق السير. الشجع: النشيط، والشَّجَع الشرّة والنشاط في لغة طيىء. يحصد: أي يزداد قوة ونشاطاً.

(٣) مخفق الحشيين: الثور اللطيف الحشى، يخفق من الجوع. الحشيان: الخاصرتان. تلفه: أي تجعله يجتمع ويتقبض من البرد والمطر. الوطفاء: السحابة الدانية من الأرض الكثيرة الماء. السارية: التي تأتي وتمطر ليلاً. الهف: الريح الباردة. المبرد: البارد.

(٤) ضاحي المراعي: بارزها، أي أنه لا يرتعي إلا فيما برز من المواضع. الطيات: المواضع التي يكون فيها، واحدها طِيّة، من طوى المكان إلى المكان، إذا جاوزه. البلق: الخيمة الكبيرة. تعاوره البناة: أي تداولوه في البناء. المدد: الطويل.

(٥) يقق السراة: أي أبيض الظهر، يصف الثور. سفلاته: قوائمه، واحدها سفيلة. النؤور: دخان الشحم، تتخذه المرأة سراجاً، وتضع فيه فتيلاً وشحماً، فإذا التهبت النار أكبّت عليه سطلاً، فما اجتمع من دخان الشحم فهو النؤور، تجريه المرأة على أسنانها، وتشيم به يدها. الإثمد: الكحل. يعني أن هذا الثور أبيض الظهر، في قوائمه توليع سواد.

حُبِسَتْ صُهَارَتُهُ، فظلَّ عُثَانُهُ ... فـي سَيْطَلٍ كُفِئَتْ لَهُ يَتَرَدَّدُ[١]
حَتَّـى إِذَا هُـوَ آلَ واطَّـرَدَتْ لَـهُ ... شُعَبٌ كَأَنَّ وُحِيَّهُنَّ الْمُسْنَدُ[٢]
أَجْلَتْ يَدَا بَلَوِيَّةٍ عَنْهَا لَهَا ... إِبَرٌ تَرَكْنَ قَرَائِحاً لاَ تَبْلُدُ[٣]
يَبْدُو وَتُضْمِرُهُ البِلاَدُ كَأَنَّهُ ... سَيْفٌ عَلَى شَرَفٍ يُسَلُّ وَيُغْمَدُ[٤]
وكَأَنَّ قِهْزَةَ تَاجِرٍ جِيبَتْ لَهُ ... لِفُضُولِ أَسْفَلِهَا كِفَافٌ أَسْوَدُ[٥]
هَاجَتْ بِهِ كُسْبٌ تَلَعْلَعُ لِلطَّوَى ... والحِرْصِ يَدْأَلُ خَلْفَهُنَّ الْمُؤْسِدُ[٦]
وغَدَا تَشُقُّ يَدَاهُ أَوْسَاطَ الرُّبَى ... قَسْمَ الفِئَالِ تَقُدُّ أَوْسَطَهُ اليَدُ[٧]

---

(١) صهارته: أي صهارة الشحم، وهو ما ذاب منه. عثانه: دخانه. السيطل: السطل. كفئت له: أي للدخان.

(٢) آل: أي اجتمع وصار نؤوراً، يعني دخان الشحم. اطردت له شعب: أي استقامت له خطوط في اليد، وهي آثار الوشم. الوحي: الخطوط، واحدها وَحْي، وهو الإشارة والخط، ومنه قيل للكتابة وَحْي أيضاً. المسند: الكتابة في الحجر، أو هو خط حمير الذي كانوا يكتبون به. يصف آثار الوشم في يد المرأة، ويشبهها بخطوط الكتابة.

(٣) أجلت: أقلعت. البلوية: امرأة من بَلِيّ، وهي قبيلة، يريد امرأة بلوية وشمت ذراع امرأة أخرى. عنها: عن الشعب، يعني آثار الوشم. القرائح: الجروح. لا تبلد: أي لا تمحى ولا تبلى. يعني أن إبر الواشمة تركت آثاراً لا تذهب في يد الموشومة.

(٤) يبدو: يعني الثور الوحشي. تضمره البلاد: تغيبه. كأنه سيف: أي في بياضه. الشرف: المكان العالي.

(٥) القهزة: ثوب أبيض من حرير. جيبت له: أي قُطِعت له. كفاف الثوب: حاشيته. يعني أن هذا الثور أبيض الظهر، في قوائمه توليع سواد.

(٦) الكسب: كلاب الصيد التي تصيد فتكسب لأصحابها. تلعلع: أي تتلعلع، فحذف التاء الأولى، ومعناها تتضوّر من الجوع. الطوى: الجوع. ـ يدأل: يسرع. المؤسد: الصّائد صاحب الكلاب الذي يؤسدها على الصيد، أي يطلقها ويغريها به.

(٧) غدا: أي الثور الوحشي. قسم الفئال: أي تشق يد الثور أوساط كما تشق اليد الفئال. الفئال: لعبة للصبيان، وذلك أن يكوّم الصبيان تراباً، ويجعلون فيه خبيئاً، ثم يشق اللاعب تلك الكومة نصفين، في أي النصفين الخبيء.

يَقـرُو الخمَائِلَ مِنْ جِـواء عُوارِضٍ ويَخُـوضُ أَسْفَلَهـا خُـزَامَـى تَمْـأَدُ[1]

وبعد هذا، أفليس من الجائز جداً أن هذا اللقاء ـ إن كان تم حقاً ـ كان لقاءً طبيعياً، لم يكن ينبغي أن يخرج عن مجاله وحدوده؛ إنه نوع من المشاكسة الأدبية المألوفة في مثل هذه الأوساط التي قد يعمد أصحابها إلى استفزاز الآخر وتهييجه، دون أن تمر في خلد ذلك الإنسان تلك الظنون والأوهام التي تُبنى عليها قضايا تفوق حجمها.

ولننظر بعد ذلك في سند القصة، فهو يجري كالتالي:

أبو الفرج الأصفهاني

عن

هاشم بن محمد الخُزاعي

عن

أبي غسان دَماذ

عن

أبي عبيدة

عن

يحيى بن صبيرة

عن

الطرماح (الحفيد)

عن

حكيم والد الطرماح (الحفيد)

عن

الطرماح (الشاعر) فهو خبر شفوي انتقل مشافهة من الطرماح المتوفى سنة ١٢٦هـ إلى أبي الفرج المتوفى سنة ٣٥٦ هـ، أي بين الحادثة وتدوينها حوالي ثلاثة قرون. فهل بقي للقصة أي سند؟!

(١) يقرو: أي يتبع. خزامى تمأد: أي تهتز من النعومة والزي.

وللتحقق من صدق ما نذهب إليه، نستشهد بأبيات البحتري الدالية الشهيرة في الذئب ؛ فقد زعم أحد الرواة أنه أنشد البحتري تلك الأبيات، فما كان من البحتري إلا أن عاد صبيحة اليوم التالي وأحضر قصيدة مكتوبة بمداد حديث تشتمل على تلك الأبيات، وادّعى أن الأبيات له ولم يقلها أحد غيره[1].

(١) الحلي، المناقب المزيدية، جـ ١، ص ص ٢٥٣ ـ ٢٥٨.



الباب السابع

أقوال العلماء القدامى والمحدثين في اتهام حماد





الفصل الأول

تداخل الأشعار (الزيادة)

لم نجد في الشواهد الماضية إلا الحديث عن البيتين أو الثلاثة مما زادهما حماد، فاتُّخذ ذلك مطعناً فيه وسبيلاً إلى تجريح روايته. فهذا ابن سلام يقول:

«حماد الراوية، وكان غير موثوق به، وكان ينحل شعر الرجل غيره، وينحله غير شعره، ويزيد في الأشعار»[1].

فهذا الحكم القاسي جداً، اتَّخَذ من شاهد أو شاهدين، أو لنقل من عدة شواهد، منطلقاً وقاعدة. فإذا كانت هذه الشواهد هي ذات النموذج الأول، والآخر وما بعده ـ إن وجد ـ فهل نقبل مثل هذا الحكم؟ إن ما قام به حماد لا يخرج عن الزيادة أو التداخل، وهو قد وقع من علماء بصريين، ممن يمكن أن يستخدم لعملهم ذاك مثل عبارات ابن سلام: **«كان ينحل شعر الرجل غيره، وينحله غير شعره، ويزيد في الأشعار»**، وتكون النتيجة أنه **«كان غير موثوق به»**.

ومن ثم يصبح حصر اتهام ابن سلام لحماد في الزيادة، أو التزيد، خارج النقاش بعد أن تبينا حقيقة القضية وطبيعة الرواية.

(١) طبقات، ص ص ٤٠ ـ ٤١.

ولكن ياقوت ينقل عن الثوري ما يضع حماداً وجناداً في خط واحد، فيقول عنهما:

«اتكل أهل الكوفة على حماد وجناد، ففسدت رواياتهم من رجلين كانا لا يدريان، كثرت رواياتهما وقل علمهما»[(١)].

وهذا كلام يبدو التحامل فيه في كل لفظة من ألفاظه، وهو قول يغاير الأراء التي أجمعت على علم حماد، حتى من أشد خصومه، ثم هو يسقط مدرسة الكوفة إسقاطاً تاماً، بل إنه قول يجعل حماداً لا يعي ما يقول، وهو أمر شديد الغرابة، عسير القبول، بعد أن رأينا مكانة حماد في الرواية ليس في عصر ازدهاره، بل حتى في عصر أفول نجمه وخفوت صيته، وكيف لا يدري حماد ما يقول، وهو الذي يوجه الشعر ويسمي الشعراء؟ أمّا كثرة الرواية، فقد وجدناه يثبت ذلك لنفسه، فيفتخر بمحفوظه أمام الوليد، ويتحدى الرواة، ولم تكن الكثرة آنذاك مجلبة للطعن، ومدخلاً للاتهام. وإذا كانت الكثرة تعني التزيد أو الزيادة، فإن الموقف منها أصبح صريحاً واضحاً، كما بينا.

لقد أومأ جواد علي إلى مسألة مهمة في تحامل الثوري على حماد، فقال:

«علينا أن نكون حذرين في تقبل هذه المؤاخذة على الكوفيين في رواية الشعر، فقد كان الثوري من جماعة الأصمعي حتى كان ينسب إليه، وكان الأصمعي يحمل على حماد وعلى أهل الكوفة، لأنه كان بصرياً، فلا يستبعد تحمل التلميذ لأستاذه، وتأثره به فقال ما قال [في] جناد وحماد بداعي العاطفة والتعصب للبصريين على الكوفيين»[(١)].

---

(١) معجم الأدباء، جـ ٢، ، ص ٤٢٦.
(٢) المفصل، جـ ٩، ص ٣٠٣.

ومن المؤكد أن مدرسة البصرة بتشددها ومحافظتها على شخصيتها التي تتمسك برواية رواتها، كانت تنظر إلى أي خروج عما لديها، خروجاً على الرواية نفسها، يستحق حاملها اللعن والطرد. ويكفي أن الأصمعي، كما مر بنا، لم يأخذ عنه ثلاثمئة حرف، ويكفي على هذا أيضاً أنه:

«لم يرض روايته»[١].

وما ذلك إلا أنه يعد الزيادة خيانة للرواية التي بين يديه، يقول عنه:

«... إذا نصح، يعني إذا لم يزد وينقص في الأشعار والأخبار»[٢].

وكأن معيار الزيادة أو النقص معيار ثابت متفق عليه عند كل الرواة، وليس الأمر كذلك في أية رواية شفوية، حتى تلك التي يرويها الأصمعي، ويرويها غيره من الرواة. وزيادة حماد في الشعر، هي تلك الزيادة، أي بيت أو بيتين أو ما شابههما، وهذا معيار يضيِّق الخناق على الرواية والرواة، ويضع قانوناً لم يطبق في أي ميدان شفوي سواء أكان ذلك شعراً أم كان خبراً، وسواء أكان عالمياً أو محلياً.

وينبغي لنا قبل أن نضع قيمة لرأي الثوري أو لرأي الأصمعي، أو لرأي غيرهما ممن عاصرهما، أن نوازن هذه الآراء بالآراء في عصر حماد، وقد حاولنا أن نعثر على أي تلميح من معاصريه إلى هذه التهمة، أي تهمة الزيادة أو التزيد، فلم نجد غير تهيب من حماد وإعلاء لمكانته؛ واقتصرت الاتهامات كلها على اللحن في لغة الحديث، ولو كان معاصروه يدركون هذه النقيصة لقالوا بها، ولما استمعوا إلى روايته، ولكن الأمر تغير في أعقاب ذلك، فكان حماد وجهاً من الوجوه القائمة، بعد أن نشأ جيل جديد له تطلعاته ورغباته في الوصول

---

(١) ابن قتيبة، المعارف، ص ٢٣٥.

(٢) ياقوت، الإرشاد، جـ ٤، ص ١٤٠.

والارتقاء، كما هو حال المفضل، بل هو جيل له مقاييسه ونظراته المختلفة التي وجد نفسه فيها غير ما كان عليه حماد.

إن خطورة أي اتهام لا تقتصر على ما يخلقه من أصداء تبقى وصمة عار في جبين المتهم، ذلك المتهم الذي لم تترك له فرصة الدفاع عن نفسه، أو تتح الكلمة لأبناء جيله أو مدرسته الذين عاصروه، ولم يحتكوا به احتكاك تنافس أو تناحر، فيدلوا بشهاداتهم حوله، بل تتجاوز ذلك إلى اعتبار الاتهام حقيقة تتناقلها الأجيال، وتصبح من القوة بحيث تمتلك سلطة إخفات أي صوت يحاول تبرئة المتهم أو قول حق فيه، وذلك ما رأيناه من تناسي قول أبي عمرو بن العلاء، الذي أدرك حماداً وعرف واقعه، وذلك ما علمناه من تلك الجهات التي تمنحه أعلى الدرجات في الرواية، سواء أكانت من خلفاء أم أمراء أم متخصصين في الشعر والأدب.

فمن هذه الأصداء القديمة قول ابن عبد ربه:

«كان... حماد الراوية، يخلط الشعر القديم بأبيات له»[1].

وهذا قول لا يخرج عما نتناوله هنا من الزيادة، فهناك شعر قديم متفق على وجوده، والجديد هو إضافة أبيات إلى نسق ذلك الشعر. إن أهم ما في هذا القول هو: «أبيات»، أي عدد محدود، وإذا جاز لنا القياس، فإن عدد هذه الأبيات هو ما كشفت عنه الشواهد السابقة، بيت، أو بيتان، أو نحو ذلك، وهي زيادة منسجمة مع طبيعة الموروث الشفوي، ومن هنا يظهر أن ابن عبد ربه حكم على أن هذه الأبيات هي من شعر يقوله حماد فيضيفه عمداً، وما هكذا رأيناه فيما تقدم من شواهد، فالأبيات

---

(١) العقد، جـ ٥، ص ٣٠٧.

إذا ما جاءت مخالفة لرواية بصرية، عدت مصنوعة جاء بها حماد، فحكم ابن عبد ربه، إذن، هو حكم منقول عن سابقيه، ومتأثر بهم، ومستنتج من مثل تلك القصص عن زيادته وافتعاله الشعر.

وعلى هذا، فإن مؤدى هذه الأقوال وتلك الشواهد، هو أن ما فُهم على أنه زيادة أو تزيد لا يعدو التداخل والاختلاط، أو اختلاف رواية عن رواية، ولعلنا نقترح النظر إلى رواية حماد على أنها رواية أقرب إلى طبيعة الشعر الشفوي من سواها، فهو الأقدم، والأسبق، وعنه أخذ أغلب رواة المصرين: الكوفة والبصرة.

الفصل الثاني

صناعة الشعر (الانتحال)

وليس من الصعب، في ضوء ما مر من تصور عن حالة الأوضاع التي أُقحم حماد فيها، ليكون نموذجاً مستهدفاً من قبل خصومه ومنافسيه، أن ننظر النظرة نفسها إلى ما أشيع عنه من اتهامات مماثلة، خاصة أن بين أيدينا الشواهد التي تجعل الحكم أكثر واقعية واعتدالاً. فبعد أن لم يثبت إطلاقاً أنه صنع شعراً وأضافه متعمداً، وإنما حصر العلماء ملاحظاتهم في أبيات عدوها شذوذاً وانحرافاً، فإن هذا قد يقنعنا بإقفال ملف تهمة الزيادة والتزيد، للنظر في تهمة ادعاء الشعر، وإظهار حماد نفسه شاعراً، يقول الشعر ثم يدسه على الآخرين. والحقيقة أنه مر بنا شيء من ذلك، وإنما نحن هنا أمام اتهام صريح يدين حماداً أيما إدانة، يقول ابن الأعرابي فيما رواه أبو الفرج:

«سمعت المفضل الضبي يقول: قد سلط على الشعر من حماد الراوية ما أفسده، فلا يصلح أبداً ـ فقيل له: وكيف ذلك؟ أيخطىء أم يلحن؟ قال: ليته كان كذلك، فإن أهل العلم يردون من أخطأ إلى الصواب، لا، ولكنه ما يزال يقول الشعر، يشبه به مذهب رجل ويدخله في شعره، ويحمل ذلك عنه في الآفاق، فتختلط أشعار القدماء، ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد، وأين ذلك؟»[1].

---

(١) الأغاني، جـ٦، ص ٨٥.

وهذا قول بلغ من التشنيع في حماد مبلغاً لم يَدَع فيه مجالاً لإعطاء الرجل حقه، ، فهو يجرده كلية من التوثيق، ويغمطه بعض حقوقه في حفظ الموروث القديم، حتى إن تبرأته من الخطأ أو اللحن، لم يأتيا للاعتراف بقدم ساق الرجل في اللغة والنحو، وإنما حتى لا يتعارض ذلك مع كونه يقول الشعر. ويصبح القول متسلسل تسلسلاً منطقياً عجيباً على النحو التالي في شأنه:

١ ــ متضلع في النحو متمكن من اللغة.

٢ ــ دأبه وديدنه قول الشعر على غرار كل شاعر.

٣ ــ بلغ من الشهرة وبعد الذكر بحيث إن روايته ليس لها نظير.

٤ ــ أنه احترف هذا العمل احترافاً بحيث بلغ من مهارة الصنعة حداً فاق النقد وخبرة الآخرين.

والحقيقة أنه لو أخذنا بهذا القول، لما بقي لحماد محمدة، ولعدنا من حيث بدأنا، فنسينا كل تلك المقدمات التي تحاول إزالة ما لحق بالرجل من عتمة وظلمة. ولذلك فلا بد أن نمحِّص النظر في هذا القول بحسب ما لدينا من معطيات، وهذا يقود إلى التساؤل عن هذا الترتيب المنطقي، بحيث لا يترك ثغرة يؤاخذ منها، مما يكشف عن قصد من ورائه. وعلى الرغم من الدقة والحيطة في إيراد القول ومحاولته الشمول والتعميم، فإنه ترك ثغرة، هي أصل كل اتهام، يقول عنه:

«ما يزال يقول الشعر، يشبه به مذهب رجل، ويدخله في شعره».

فهو يقول الشعر، ويصنعه، ويضعه على الشاعر، ثم يدخله في شعره. إذن، هناك رواية ما لشعر شاعر ما، أي قصيدة ما، ثم يأتي حماد فيدخل فيها الشعر المصنوع الموضوع، وبهذا نعود إلى القضية التي عايشناها في أكثر من مثال، ولعل أبرزها، فيما يخص المفضل، هو البيتان

اللذان قيل إن حماداً أضافها إلى رائية زهير. . . ويبدو أننا وصلنا إلى قناعة حولهما، لأنه ثبت لدينا أنهما جزء من شعر زهير حسب رواية الجاحظ، أو بعض جزء من قصيدة لكعب حسب رواية خلف الأحمر، ثم إنهما بطبيعة الحال، جزء من الموروث القديم. ومن ثم، فهذا القول المجحف في حق حماد، كان قولاً تَعَنَّتَ فيه صاحبه حتى عده جريمة نكراء. ولو بحثنا عن مثال آخر عدا هذا وأمثاله مما مضى من شواهد، فلن نقع على شيء، اللهم إلا الأبيات التي زُعم أن حماداً صنعها لبلال بن أبي بردة من شعر الحطيئة، وهذا أمر تبينا وجه الحقيقة فيه.

هذا من الناحية الموضوعية للخبر، أما من الناحية الشخصية، أيعقل أن نقبل حكماً من رجل تلاحى مع حماد في مجلس المنصور، ويبدو أنه لم يكن منتصراً في ذلك المجلس، ثم أعاد الكرة في مجلس المهدي، فكان الجانب السياسي والثقافي في جانبه دون تردد أو اعتبار لِسِنِّ الآخر وظروفه النفسية والاجتماعية والسياسية؟ هذا ما كان من أمر المفضل، أما راوية الخبر عنه، فيقول عنه جواد علي:

> **«وابن الأعرابي الذي يروي انتقاص المفضل الضبي لحماد، هو على ما يُذكر ربيب المفضل، كانت أمه تحته، فلا أستبعد تأثره بحنق الضبي على حماد، بسبب المنافسة التي كانت بينه وبين حماد»**[1].

وإضافة إلى هذا، فإنه مما يستحق الذكر مرة أخرى، أن ابن الأعرابي ربما كان مجروحاً من حماد، كما جرح المفضل، عندما بدا أن حماداً هزمهما في مجلس المنصور، فكالا له ذلك الكيل من الاتهام والتشهير.

ومن أجل أن نكون، نحن الذين ليس بين أيديهم إلا هذه الصفحات الغامضة عن حماد، يجدر بنا أن نورد رأياً يترك الحكم فيه على المفضل،

---

(١) المفصل، جـ ٩، ص ٣١٨.

لمن يريد أن يوازن بين الأقوال فيستخلص العبر والنتائج.

يقول ابن سلام عن المفضل الضبي نفسه، طاعنا أيما طعن في مفضلياته: بل إن ابن سلام الذي ضرب صفحاً عن مدرسة الكوفة وممثلها حماد، يقول في المفضل:

«أعلم من ورد علينا من غير أهل البصرة، المفضل الضبي الكوفي»[1].

ولكنه يعود، فينسف ذلك القول رأساً على عقب، ويقول في المفضل نفسه:

«ذكر بعض أصحابنا أنه سمع المفضل يقول: له (أي للأسود بن يعفر) ثلاثون ومئة قصيدة، ونحن لا نعرف له ذلك، ولا قريباً منه، وقد علمت أن أهل الكوفة يروون له أكثر مما نروي، ويتجوزون في ذلك بأكثر من تجوزنا»[2].

فإذا ما شئنا أن نعدل بين الرجلين، فلنأخذ قولاً أكثر صراحة من ذلك التلميح، وهو قول يا ـ للغرابة ـ منسوب إلى ابن سلام أيضاً، يقول:

«وحكى ابن سلام: أنا أبا عبيدة كان يزعم أن المفضل صنع بعض القصائد التي اختار، ونسب ما صنع منها إلى رجال هو مما صنع أشعر منهم في صحيح أشعارهم»[3].

وبعد المفضل جاء أبو حاتم السجستاني (ت **٢٥٥** هـ)، فقال عنه كما ينقل هذا، أبو الطيب اللغوي:

---

(١) طبقات فحول الشعراء، ص ٢١.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) الحاتمي، حلية المحاضرة، جـ ٢، ص ٣٨.

«كان بالكوفة جماعة من رواة الشعر مثلِ حماد الراوية وغيرِه، وكانوا يصنعون الشعر ويقتفون المصنوع منه، وينسبونه إلى غير أهله»[1].

ولا بد أن نعود إلى الوراء قليلاً، لنحتكم إلى شواهد أبي حاتم، إذ هي الشواهد التي قال عنها: «وفي كتاب حماد...»، ومع أن أبا حاتم لم ينقل من حماد مباشرة وإنما نقل من كتابه، أو كما تحققنا، من نسخ من ذلك الكتاب، فإنه لمن الواضح جداً، أنه قارن شخصياً روايته برواية حماد، أو ما أضيف عليها في نسخ كتابه المملى على طلابه، فعد البيت الزائد عن روايته هو، مصنوعاً، وعد البيتين والثلاثة كذلك، ولكنه أغفل أية زيادة عن روايته من الروايات البصرية، ولأن حماداً روى مثل تلك الأبيات الزائدة، عد ذلك شعراً مصنوعاً، كما قال إن جماعة منهم: «يقتفون المصنوع منه» وهي العبارة نفسها في رواية ابن نوبخت: «ويقتنون»[2].

وتفسر هذا الروايات، سوء فهم لطبيعة الرواية الشفوية، ولمهنة الراوية الشفوي المحترف، كما تفسر فرض عقلية جديدة على عقلية أسبق منها، خاصة أن هناك انتقالاً فجائياً من مرحلة شفوية إلى مرحلة كتابية، بل انتقالاً من ثقافة ذات طوابع معينة إلى طوابع متعددة الثقافات ذات ألوان وأشكال متباينة ومتداخلة في حين واحد، أي ثورة فيها تغيير جذري لحضارة عربية إسلامية، إلى حضارة إسلامية شبه عالمية.

وتكاد الأقوال كلها تنحو هذا المنحى، فكل يستقي معلوماته عن الآخر، محافظاً على الصورة نفسها، ومردداً الاتهام نفسه، فهذا الشريف

---

(١) مراتب النحويين واللغويين، ص ٧٢. وجاء في الحاشية: بخط ابن نوبخت: «ويقتنون».

(٢) المصدر نفسه.

المرتضى، الذي وجدناه يتمسك بتهمة زندقة حماد، ويلح عليها، بعد أن نقل النصوص من غيره، فخرجت عن أصلها الأول عند الجاحظ، يقول هنا عنه أيضاً:

«كان حماد مشهوراً بالكذب في الرواية وعمل الشعر، وإضافته إلى الشعراء المتقدمين ودسه في أشعارهم، حتى إن كثيراً من الرواة قالوا: قد أفسد حماد الشعر، لأنه كان رجلاً يقدر على صنعته فيدس في شعر كل رجل منهم ما يشاكل طريقته، فاختلط لذلك الصحيح بالسقيم»[٢].

وليس بنا حاجة إلى أن نتوقف عند هذا الرأي، فرأي المرتضى (ت ٤٥٦ هـ)، رأي متأخر، منقول عن غيره، وهو كغيره أيضاً يجعل التداخل والاختلاط اتهاماً. ولكن المرتضى يقع في مزلق آخر، وهو قوله: «**اختلط لذلك الصحيح بالسقيم**»، وحسبما تبينا، فإن تلك الأبيات المزيدة، أو حتى المنسوبة إلى الحطيئة، ليست شعراً سقيماً بأية حال من الأحوال، أما أبيات قيس بن الحدادية، فهي «**سقيمة**»، حسب مقياس النقد الموازن بينها وبين الشعر الجاهلي الأدبي، ولكنها كما هي سقيمة من حماد، هي أيضاً سقيمة من أبي عمرو الشيباني ومن غيره. وليس في أبيات قيس بن الحدادية التي رواها حماد خلط، وإنما هي رواية منفصلة.

ولعل ياقوت (ت ٦٢٦ هـ)، كان معتدلاً في نقله، إذ قال عنه:

«كان متهماً بأنه يقول الشعر وينحله شعراء العرب»[١].

فحماد متهم، وهي تهمة حتى الآن لم تتحقق، أما مصدر التهمة، فهم أولئك العلماء المنافسون، من أمثال المفضل، أو الخصوم من أمثال يونس، الذي شدد النكير على حماد، فقال عنه هنا مثل أقواله في مواضع أخرى:

---

(١) أمالي المرتضى، جـ ١، ص ١٣٢.

(٢) الإرشاد، جـ ١٠، ص ٢٦٥.

«حماد... كان يكذب»[٢].

وعلى العموم، فإنه من المقطوع به أن علماء البصرة هم الذين قادوا حملة التشويه والتجريح ضد الكوفة، ممثلة في كبير رواتها، حماد الراوية، ولذلك حق لأبي الطيب اللغوي أن يقول:

«حماد الراوية... عند البصريين غير ثقة ولا مأمون»[١].

والواقع أن حملة التشهير، كانت حملة منظمة مستهدفة، سبقت تهجمات يونس (ت ١٨٥ هـ)، وذلك بعد أن رحل الرجل العدل أبو عمرو بن العلاء (ت ١٥٤ هـ)، فترك الساحة لآخرين يتسابقون إلى الشهرة والوصول، فهذا خلف الأحمر (ت ١٨٠ هـ)، يروي عنه أبو عبيدة (ت ٢٥٩ هـ)، قوله:

«كنت آخذ من حماد الراوية الصحيح من أشعار العرب وأعطيه المنحول، فيقبل ذلك مني ويدخله في أشعارها»[٢].

وهنا نجد الإصرار على تجهيل حماد، وإظهاره بمظهر الغبي المغفل، الذي تنطلي عليه كل حيلة، ويمر عليه كل خداع، ولكن الخبر، كبقية الأخبار التي تصاغ صياغة مقصودة، تقع فيما يضعفها، ويبطل مصداقيتها، فهو يضع أمرين متقابلين:

١ ــ أن حماداً كانت لديه الرواية الصحيحة من أشعار العرب.

وإذا علمنا أن هذا الخبر سبق كل أخبار الطعن من المدرسة البصرية فيه، حتى قبل طعنات يونس، فإنه بذلك يؤسس من جديد لتصحيح الرؤية حول

---

(١) ابن سلام، طبقات فحول الشعراء، ص ٤١، وانظر الجاحظ، رسائل الجاحظ، جـ ٢، كتاب البغال، ص ٢٢٦.

(٢) مراتب النحويين، ص ١١٧.

(٣) الأصفهاني، الأغاني، جـ ٦، ص ٨٨.

رواية حماد، واعتبار روايته لأشعار العرب صحيحة. فبضاعته من الشعر القديم سليمة لا أثر فيها للغش أو التزييف.

٢ ــ أن الشعر المنحول الذي بيد حماد، ليس من الشعر الذي كان يصنعه هو، وإنما هو شعر صنعه خلف.

وهذا يحوِّل قضية الاتهام ضد البصرة، بدلاً من الكوفة، فليس لحماد أو الكوفة شعر منحول، كما تردد كثيراً في الأوساط الأدبية، وإنما الشعر المنحول هو من نتاج البصرة. ثم إنه من ناحية أخرى، يخلِّص حماداً تماماً من القدرة على صناعة الشعر، ويجعله مجرد راوية فقط. وعلى افتراض صحة ذلك، فإننا لن نذهب بعيداً في فهم هذا الشعر المنحول، وإنما هو ذلك الشعر الزائد، لأن مثل قصيدة الحطيئة سبقت رواية خلف بسنين، قبل أن يتألق نجم خلف. وإنصافاً للرجلين، فإنه لا خلف ولا حماد صنعا شعراً منحولاً، وإنما كانا كلاهما يغرفان من ينبوع واحد، هو ينبوع الرواية الشفوية. وأبلغ من ذلك، فإن شخصية حماد الراوية، كانت أصلب عوداً من مثل هذا الذوبان أو التضاؤل أمام تلميذه خلف؛ فليس خلف بأعتى من مروان من أبي حفصة، ولا بأشد عنتاً من الفرزدق، ولا بأسلط لساناً من الكميت، وكل التقى حماداً، فكان نداً لكل منهم دون تضعضع أو تخاذل. وهنا علينا أن نتحفظ في قبول الخبر، خاصة أن راويته في الحقيقة، هو أبو عبيدة، وكم رأينا أبا عبيدة يسدد السهام لحماد، حتى زعم أن أبيات هند بنت النعمان الرائية مأخوذة عن حماد.

ونحن مع ذلك نستثني خلفاً من مثل هذا الادعاء، وهذه الغفلة الشنيعة في الخبر، ونحمل مسؤوليته أبا عبيدة، وإن كان الخبر مفيداً جداً في الكشف عن طبيعة الرواية الشفوية، وعن الصراع المتأخر على يد أبي عبيدة وأمثاله من الرواة العلماء الذين بلغت بهم الغيرة والمنافسة إلى

تجاوز معاصريهم من علماء الكوفة والرجوع برواياتهم جميعاً إلى راويتهم الأكبر حماد، لأنه من السهل جداً إلحاق أي أذى به، فهو يتعامل مع مرويات شفوية، وهو ممثل لمرحلة انقطعت آثارها، وهو كذلك غير مرضي عنه سياسياً.

وواضح جداً أن الهدف من إنطاق خلف بذلك القول، هوالجمع بينهما في تهمة واحدة، حتى ليقول حمزة الأصفهاني:

«ورموا حماداً الراوية وخلفاً الأحمر بأنهما كانا يصنعان الشعر على شعر العرب»[(١)].

وهكذا، فإننا إذا عدنا إلى المرحلة التي اشتغل فيها حماد بجمع الشعر وروايته، وجدنا أن عنصراً غاية في الأهمية كان غائباً عن هذه المرحلة، إنه عنصر المنافسة والصراع الإقليمي والثقافي. ففي العصر الأموي، العصر الذي برز فيه حماد علماً من أعلام الرواية الشفوية؛ تُشد إليه الرحال، ويُقَرِّبه الأمراء والخلفاء، كان كل هؤلاء يستمعون إليه ويثقون بروايته، ولم نسمع أحداً اتهمه أو جرّحه، حتى ذو الرمة كان حائراً في أمره، ولم يجرؤ على اتهامه. وما موقف بلال بن أبي بردة معه إلا دليل على الاحترام الذي يكنه أولئك له، كما أوضحنا في تتبع الخبر الذي انحرف على أيدي البصريين عن مغزاه.

وهذا مروان بن أبي حفصة، وهذا الطرماح، وهذا الكميت، يتحداهم حماد، فلا نجدهم يرمونه بانتحال الشعر، وإنما وقف الطرماح مشدوهاً من قدرته على استحضار القوافي والأوزان، وأخذ الكميت يباريه دون أن ينبس بلفظة، «صنعة» أو «وضع»، ولم يقل فيه الفرزدق مثل ذلك.

ويمثل هذا التصالح والتراضي بين طلبة العلم وعلمائه، موقف شيخ

---

(١) التنبيه، ص ص ١١٩ ـ ١٢٠.

البصريين أبي عمرو بن العلاء الذي أشاد بحماد أيما إشادة في تواضع وتقدير فقال:

«ما سمع حماد الراوية حرفاً إلا سمعته، وكان يقدمه على نفسه»(١).

ولكن فجأة، ومع تقدم الرجل في السن، ومع فقدانه للقوة السياسية والمكانة الاجتماعية التي يحتلها بين ذوي الشأن، اصطدم حماد بالمتطلعين إلى الظهور والراغبين في تبوء المراكز، ولقد كان أول هذا الاصطدام، الذي نعده المسؤول عن كل هذه الأقوال، ذلك اللقاء الذي جرى في بداية خلافة المنصور، حيث اجتمع علماء الكوفة بزعامة حماد، وعلماء البصرة، فكان حماد البارز بينهم جميعاً. ومن هنا ابتدأ كل طرف يتهم الطرف الآخر، وراح البصريون يتخذون من اعتماد الكوفة على الذاكرة مطعنا لهم فيهم، لعلمهم بما يجره الاعتماد على الذاكرة من عيوب، فقد اتخذوا منهجاً عدّوه صائباً، وهو توثيق الرواية والاعتماد على السند. وقد كشفت الروايات التي سقناها عن هذين المنهجين.

ولعل القارىء المنصف يستطيع بعد الآن أن يجد في مقولة القاضي الجرجاني التالية جواباً شافياً مقنعاً موجزاً عن حالة الأوضاع **State of affairs** التي دار في أجوائها حماد الراوية، وكيف أن ناقداً فذاً كالقاضي الجرجاني لم يستطع التخلص من سيطرة الأصداء القديمة على تفكيره، فواكب المزاعم وساير الركب، وقد كان حَرِيّاً به أن يضع حداً فاصلاً بين الشعر الذي يستعصى تقليده، والشعر المزيّف، كما كان جديراً به أن ينظر في المنحولات نفسها ليطبق عليها معاييره المستنبطة من الشعر القديم، وبعد ذلك عليه أن يوازن بين الرواة فيضع خلفاً وحماد في كفة، ويضع ابن دأب وأضرابه في كفة أخرى، سواء أكان ذلك من جهة الشعر أو من جهة

---

(١) الأغاني، جـ ٦، ص ٨٨.

الرواية. يقول القاضي الجرجاني في وساطته:

«فإن قلت: ما بال المتقدين خُصُّوا بمتانة الكلام، وجزالة المنطق، وفخامة الشعر، حتى إن أعلمنا باللغة وأكثرنا رواية للغريب، لو حفظ كل ما ضمت الدووابن المروية، والكتب المصنفة من شعر فحل، وخبر فصيح، ولفظ رائع - ونحن نعلم أن معظم هذه اللغة مضبوط مروي، وجل الغريب محفوظ منقول - ثم أعانه الله بأصح طبع، وأثقب ذهن، وأنفذ قريحة، ثم حاول أن يقول قصيدة، أو يقرض بيتاً يقارب شعر أمرىء القيس وزهير، في فخامته وقوة أسره، وصلابة معجمه، لوجده أبعد من العَيُّوق متناولاً، وأصعب من الكبريت الأحمر مطلباً، قلت: أحلتك على ما قالت العلماء في حماد، وخلف، وابن دأب، وأضرابهم، ممن نحل القدماء شعره، فاندمج في أثناء أشعارهم، وغاب في أضعافه، وصعب على أهل العناية إفراده، وتعسر، مع شدة الصعوبة، حتى تكلف فلي الدواوين، واستقراء القصائد، فنفى منها ما لعله أمتن وأفخم، وأجمع لوجوه الجودة وأسباب الاختبار، مما أثبت وقبل، وهؤلاء محدثون حضريون، وفي العصر الذي فسد فيه اللسان، واختلطت اللغة، وحظر الاحتجاج بالشعر، وانقضى من جعله الرواة ساقة الشعراء»[1].

ولنا أن نقول: إن ترديد مقولة الانتحال على غرار الشعر الجاهلي - أو الشعر من شعراء تكونوا في المحيط الجاهلي - في الفترة المتأخرة من العصر الأموي، على يد الموالي خاصة - إنما يسقط مدة زمنية انكسر فيها النمط، وابتعد الشعر فيها عن التقليد. ولا ينحصر تجاوز الزمن في اللغة والأفكار، أو اللوازم الفنية الإدائية في هذا، وإنما

(١) الوساطة، ص ص ١٦ - ١٧.

في المقومات الشخصية والعبقرية. أفبعد أن جاء الإسلام، واحتل التعبير الجديد مكانته كتابة ومحادثة، نصر على أن عقلية كعقلية حماد أو غير حماد، ظلت تعاود أصداء الماضي كما هي نصاً وروحاً؟ أيمكن أن يحذو حماد أو غير حماد حذو أسلافه من شعراء الجاهلية، فلا نحس بعسر في الهضم أو عدم الغوص أو الاستغراق الفني اللاشعوري في عمله.

ولقد رأينا حماداً يميل إلى الأعشى - صناجة العرب - ميلاً شديداً، فكيف تأتى له أن ينتزع نفسه من نفسه، ليتحول إلى نفس أخرى مخالفة له رؤية وإبداعاً، أي زهير بن أبي سلمى -الشاعر الحكيم[1].

---

(١) انظر عن هذه العلاقات الفنية:
يوسف ميخائيل أسعد، سيكولوجية الإبداع، ص ص ٤٧ - ٦٥.

الفصل الثالث

حماد الراوية
في نظر المحدثين

لا تختلف نظرة المحدثين إلى حماد عن نظرة من سبقهم من الأقدمين، إذ كانوا خاضعين لآرائهم، يرددون أقوالهم، ويعيدها اللاحق عن السابق، مضيفاً إليها شيئاً جديداً من حرارة التعبير وبراعة الأداء، حتى أصبح من المسلم به لدى الجميع أن حماداً رأس الانتحال وأبرز المخرِّبين. ومع أن بعضهم حاول أن يجد حلولاً وسطى لإخراج حماد من ورطته، فقد كانت دوافعه وراء ذلك، ليست الحقيقة العلمية المطلقة، وإنما إخضاع المادة الإخبارية لتساير اتجاهاته الشخصية هو، وهي اتجاهات كان طابعها التقليد والمتابعة والإقحام، وقلما نجد أحداً يتخذ رأياً جريئاً يتحرر فيه من سيطرة القدماء ومن ربقة الاتهامات التي تحيط بالرجل من كل جانب. ونحن إذ نستعرض هذه الآراء، إنما نوردها استيفاء للبحث والدراسة، وليس للمناقشة، إذ قد تناولنا كل هذه الأقوال فيما مضى من حديث. فمن هذه الأراء:

١ ــ مصطفى صادق الرافعي في كتابه تاريخ آداب العرب:

يقول عن حماد:

(١) يمكن الرجوع إلى بعض آراء المستشرقين، في كتاب عبد الرحمٰن بدوي، دراسات المستشرقين.

«لا جرم أنه كان رأس الوضاعين لما يُقتضى لصنعة الجمع الذي يراد به الاتساع والاستئثار من الزيادة في شعر المقل حتى يكثر، ونسبة ما يكون للخامل من الشعراء إلى المشهور حتى يروي شعره»[1].

ويقول:

«كان حماد يضع من الشعر ليقربه إلى بعض الأمراء زلفى»[2].

ويقول:

«وليس في الرواة جميعاً من يداني حماداً... في الصنعة وإحكامها»[3].

٢ ــ طه حسين في كتابه في الأدب الجاهلي:

يقول عنه:

«كان هذا الراوية البارع فاسد المروءة فاسقاً ماجناً زنديقاً، وكان شاعراً يحسن صوغ الشعر وحوكه، فكان ينظم على لسن الجاهليين ما لم ينطقوا به، وكثر منه ذلك حتى عرف به واشتهر»[4].

وعندما عرض طه حسين لبعض التناقضات في الأخبار عن حماد قال:

«ربما بالغ بعض البصريين، فقال عنه إنه كان يلحن ويكسر الشعر ويصحف ويكذب، ولكن بعد تجريد التهمة من مبالغاتها تظل عالقة به»[5].

---

(١) جـ ١، ص ٣٦٤.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٦٧.

(٤) ص ١٥١.

(٥) ص ص ١٥٢ ـ ١٥٣.

٣ ـ محمد رجب بيومي، في كتابه موقف النقد الأدبي:

يقول عنه:

«نعلم أن العلماء الأثبات من أمثال أبي عبيدة معمر بن المثنى ويونس بن حبيب وابن سلام قد عرفوا حماداً على حقيقته، فرفضوا منه وقبلوا، وعلموا أن الافتعال من أخلاقه»[١].

٤ ـ السباعي، تاريخ الأدب العربي:

يقول عنه:

«قبل أن يخلق الدساسون أمثال حماد الراوية في النصف الأول من القرن الثاني...»[٢].

٥ ـ إبراهيم أبو خشب، تاريخ الأدب العربي:

وهو يقول:

«فارس هذا الميدان هو حماد الراوية، لأنه بذ جميع الرواة عرباً وموالي... وكان لبصره بالشعر ـ أقدر من غيره على الوضع، والانتحال لأغراض شخصية أو شعوبية»[٣].

ثم يقول:

«وإذا علمنا أنه كان من الموالي الديالمة، وأنه كان على زندقة الفرس، أمكننا أن نعرف، لماذا حاول إفساد الشعر بهذا الأسلوب الذي هو أقوى أساليب الكيد للعرب، من حيث إنهم كانوا يتغنون بهذا التراث الخالد الذي حفظ بين طياته تاريخهم المجيد... وكأنه بذلك يريد ـ بإفساده الأدب ـ أن يشكك المحدثين في الأثر الباقي،

---

(١) ص ٣٤.

(٢) جـ ١، ص ٨٧.

(٣) ص ٧٢.

وبالتالي يريد أن يقضي على أسباب الفخر العربي».

ثم يمضي قائلاً:

«لا عجب أن كان ذلك من أقوى الأساليب العدائية التي سلكها الفرس في صراعهم الأدبي الأليم مع العرب»[1].

أما أولئك الذين حاولوا أن يقفوا موقفاً وسطاً أو مدافعاً، فمنهم:

١ ـ بدوي طبانة، في كتابه معلقات العرب:

يقول، وهو بصدد الحديث عن المعلقات، وما رواه أبو جعفر النحاس عن جمع حماد لها بعد ما رأى زهد الناس في الشعر:

«ثم متى رأى حماد زهد الناس في الشعر؟ لقد كانت ولادته في سنة خمس وتسعين وتوفي سنة خمس وخمسين ومائة. وفي هذه المدة لم ينقطع تيار الشعر العربي عن التدفق، وأقبل الرواة على رواية الشعر، وأكب الكاتبون على تدوينه، والعلماء على نقده وإحصاء المآخذ عليه، فالفترة التي عاصرها حماد تعد من أخصب فترات التاريخ العربي بالشعر والشعراء والرواة والمدونين والنقاد، ولا يكون شيء من هذا في زمن زهد الناس فيه في فن الشعر!».

ويواصل دفاعه قائلاً:

«إن الشاعر لا يقول إلا إذا وجد ما يقول، ووجد من يقول له، ومن يعي قوله ويقدره حق قدره، ويوازن قوله بالمأثور من أقوال من قبله، ومن عاصره ليشهد له بالإجادة أو التقصير. والراوية لا يروي إلا إذا وجد الراغبين في روايته. والناقد لا ينقد إلا إذا أحس حاجة الذين يروي لهم إلى معرفة ما عنده».

ثم يقول:

«وقد كان الأمر كذلك في هذه البيئة، وفي ذلك الزمان، اللذين

(١) المصدر نفسه.

عاش فيهما حماد الراوية، ولقد كان شأن حماد شأن غيره من الرواة الذين عاشوا في خصب بما يدر عليهم فن الرواية الذي كانوا ممتعين به، من صلات الخلفاء والسراة الراغبين في هذا الفن الجميل، والقادرين على تقديره، وتمييز القيم الفنية الصحيحة فيه».

وهو يشير إلى ما تدول عن اتهامه، فيقول:

«وليس في شيء من النصوص التي استشهدنا بها فيما سبق، ما يمكن أن يؤخذ منه الحط من شأن حماد؟ أو الغض من رواياته، أو رميه بالكذب أو الوضع أو الانتحال»[1].

وهكذا يصل إلى النتيجة التالية:

«علينا أن نقرأ بحذر ما قال بعض الرواة في حق هذا الرجل الذي فاقهم علماً ورواية لكلام العرب ودراية به، ومن ذلك ما قال ابن سلام: كان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها حماد الراوية، وكان غير موثوق به، كان يعمل شعر الرجل غيره، وينحله غير شعره، ويزيد في الأشعار. وقال الأصمعي: كان حماد أعلم الناس إذا نصح، يعني إذا لم يزد وينقص في الأشعار والأخبار، فإنه يقول الشعر، وينحله شعراء العرب. وقال المفضل الضبي: قد سلط على الشعر من حماد الراوية ما أفسده فلا يصلح أبداً، فقيل له: وكيف ذلك؟ أيخطىء في روايته أم يلحن؟ قال: ليته كان كذلك، فإن أهل العلم يردون من أخطأ إلى الصواب، ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم، فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل، ويدخله في شعره، ويحمل ذلك عنه في الآفاق، فتختلط أشعار القدماء، ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد، وأين ذلك»[2].

---

(١) ص ص ٣٤ ـ ٣٥.

(٢) ص ص ٣٥ ـ ٣٦.

وهو يؤكد رأيه بقوله:

«إن أمثال هذه الأقوال ينبغي أن تقرأ على حذر، وألا تؤخذ على علاتها، فإن المعاصرة حجاب يحول في كثير من الأحيان دون تقدير المعاصرين، والتنافس بين أولئك الرواة أمام الخلفاء والسراة، لا تجعل المنافس يشهد لمنافسه بالحق كله، ولا سيما إذا كان الذي يوجد عند المنافس دون ما عند غيره من رجال فنه.

ولم يكن حماد أول راوية جمع شعر العرب فقد سبقه كثير من الرواة»[1].

وبعد ذلك يعود للحديث للدفاع عن صحة المعلقات، فيقول:

«ومع هذا لم يستطع واحد ممن يعدون أنفسهم عدولاً، أو يعدهم الناس عدولاً، أن يضع أيدينا على زيادة في المعلقات أو بعضها، ادعاها حماد أو غيره وقام الدليل الثابت على افتعالها أو زيادتها، أو النقص الذي تعمده من الأصل»[1].

٢ ــ ناصر الدين الأسد في كتابه مصادر الشعر الجاهلي:

يقول في نفيه شاعرية حماد:

«أن يكون المرء شاعراً، في مثل هذه المنزلة من الفحولة والشاعرية، فيصرف كل شعره إلى غيره وينحله إياه، ويضن على نفسه بأن ينسب إليها بعضه؟»[2].

ويقول:

«كيف يكون حماد بهذا القدر من الشاعرية الفذة التي حاولت الرواية

---

(١) ص ٣٧.

(٢) ص ٤٤٤.

أن تصوره بها ثم يكون بعد ذلك يكسر الشعر ولا يقيم وزنه»[1].

ويقول عن المنافسة بين المفضل وحماد:

«إن بين المفضل وحماد منافسة شديدة ربما بلغت حد الخصومة والاتهام، ثم استغلها تلاميذ المفضل ورووا عنها الأخبار: يتهمون حماداً ويقوون من مكانة أستاذهم فتقوى بذلك مكانتهم»[2].

٣ ــ محمد التونجي في كتابه دراسات في الأدب العربي:

يثير التونجي بعض التساؤلات حول اتهام المفضل لحماد فيقول عن قول المفضل في حماد:

«أدخل في شعر العرب».

«وهذا يعني أن شعر العرب موجود. وحماد حاول أن يدس فيه. وكم يمكن لمثله أن يضيف؟ ولقد رأينا حماداً يفتخر بحافظته أمام الخلفاء، في حين أننا لم نره يتباهى بشاعريته. وكانت سوق الشعر نافقة لدى الوليد والمهدي. وإذا كان ينتحل لأنه أعجمي، فمن الذي دفعه إلى ذلك؟ وما هي القصائد التي نراها تطعن في العرب؟ بل أين علامات النحل الأعجمي في المعلقات؟ وفي دواوين الشعراء الأخرين؟ ألم يكن في عصره من يردعه عن نحله الشعر؟ كان العلم بالشعر رائجاً في القرن الثاني»[3].

٤ ــ جواد علي في المفصل:

ولعلنا بعد ذلك نورد أقوال جواد علي التي تحمل كلا الاتجاهين مما

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) ص ٤٤٥. وانظر بعد ذلك ما بقي من دفاعه، ص ص ٤٤٦ ـ ٤٤٩.

(٣) ص ١٩٩.

يدل على المنهج الذي كان سائداً في دراسة الأدب العربي القديم، والذي ما يزال مستمراً حتى الآن، يقول جواد علي عنه:

«ولا أستبعد وقوعاً للحن منه، إذ كان من الموالي، بعد أن وقع اللحن من عرب خلص ومن أنبل الأسر العربية ومن بعض كبار رجال الدولة في ذلك العهد. غير أن في هذا الوارد عن قلة بضاعته في العربية وفي كثرة لحنه وتصحيفه في القرآن الكريم، مبالغات وزيادات، وضعها عليه حساده ومنافسوه ولا شك، إذ لا يعقل وقوع مثل هذه الأغلاط الشنيعة من رجل وصل إلى الخلفاء برواية الشعر وتفسير غريبه، وعرف بين العلماء بسعة علمه بلغات العرب، حتى كانوا يلجأون إليه في حل مشكلها وغريبها. ولو كان على مثل ما ذكر من اللحن في الكلام والتصحيف فيه ومن قلة بضاعته في العربية، لما وصل إلى الوليد بن يزيد وإلى هشام وإلى خلفاء آخرين، وقد كانوا لا يختارون في الشعر واللغة إلا الفطاحل القديرين»[1].

ويحدد جواد علي رأيه، فيقول:

«وأكثر هذه التهم التي وجهت إلى علم حماد وإلى جهله بالعربية، وبالعروض، إنما هي تهم وجهها إليه أهل البصرة، عصبية لمدينتهم ولرجالهم، وما اتهام (ابن سلام) و (يونس ابن حبيب) لحماد، بالتهم المذكورة، سوى ترديد لهذه العصبية الضيقة، وللخصومة على الزعامة التي كانت بين المدينتين. و (يونس بن حبيب) الذي يحمل على حماد، ويتهمه باللحن، قد اتُّهم نفسه بتهمة اللحن، اتهمه خصومه أهل الكوفة بالطبع، ونجد مثل هذه الاتهامات من تجهيل العلماء بعضهم بعضاً بقواعد العربية وبالوقوع في اللحن، في صفحات الكتب الباحثة في المناظرات وفي التراجم، وفي كتب الأخبار والأدب، حتى يكاد يكون من الصعب علينا العثور على

---

(١) جـ ٩، ص ٣١٣.

عالم، نقول إنه سلم من سهم من سهام النقد والتجريح»[1].

ويقول محذراً:

«غير أن علينا باعتبارنا من المؤرخين أن نحترز احترازاً شديداً في تقبل كل ما يروى من الأخبار، ولا سيما في المسائل الشخصية، وفي القضايا التي تكتنفها الخصومات في مثل هذه الحالة. فقد كان لحماد خصوم كثيرون من أهل هذا الشأن، وقد حسدوه على تقدمه وشهرته، كما كان هو يحسد غيره ولا شك أن تقدم عليه. والإنسان مهما تقدم وترفع، فإنه لا يستطيع أن يجرد نفسه من العاطفة، ولا سيما عاطفة الدفاع عن النفس وإثبات الشخصية والتنافس مع الآخرين. وقد كان المفضل الضبي - كما ذكرت - في جملة خصوم حماد، وهو من رؤوس رواة الشعر في تلك الأيام، وهو نفسه لم يكن من الناجين من هذه التهمة التي اتهم بها حماد. غير أن هذا لا يعني أن حماداً كان صادقاً في كل ما قاله وفي كل ما رواه، فوضعه للشعر، وصنعه له، وحمله على القدماء من المسائل المتواترة التي لا سبيل إلى نكرانها، إنما أريد هنا أن أنبه على ضرورة التأني والتقصي في أثناء مجابهتنا لمثل هذه الأخبار، لنخرج ما قد بولغ أو زيد فيه، حتى يكون حكمنا حكماً محايداً، أو قريباً من الواقع»[2].

ويقول كذلك:

«وقد اتهم بالوضع وبالدس على الجاهليين وبالكذب عليهم: وهو نفسه لم ينكر ذلك، ولم يبرىء نفسه من الدس على الجاهليين والوضع عليهم. ولكنه كان بإجماع أنصاره وخصومه من أفرس الناس بالشعر، ومن أعلمهم بالشعر الجاهلي وبطرقه ودروبه وأساليبه، ولعل علمه هذا بالشعر، ورغبته في التفوق والتصدر على

---

(١) المفصل، جـ٩، ص ٣١٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣١٩

أقرانه المتعيشين مثله على رواية الشعر، كانا في رأس الأسباب التي حملته على الوضع والدس والافتعال»[1].

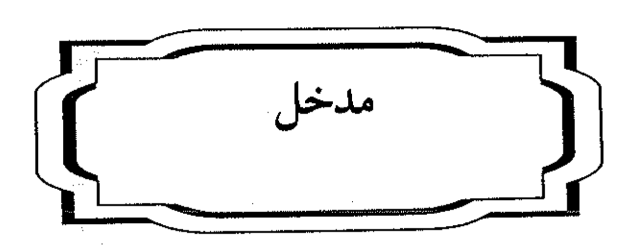
وعلى هذه الشاكلة من النقد، نجد المعالجات التي ما تزال تتردد عن حماد، بحيث يصعب الخروج منها برأي محدد.

(١) المصدر نفسه، ص ٥١١.



الباب الثامن

نماذج من رواية حماد للشعر



مدخل

لن نخوض في هذا الباب كثيراً من مناقشة الروايات وبيان الموقف منها، فقد أشرنا إلى بعضها في ثنايا هذه الدراسة، وإنما جعلناها هنا مادة علمية مجموعة يمكن الرجوع إليها والتحقق مما مضى من نقاش وعرض، ولكي يستضيء القارىء، وهو يتابع هذه الدراسة فيكوِّن قناعة شخصية، تمكنه من التخلص من الرواسب الماضية التي تشبث بها «البحث العلمي» المعاصر، والتي راجت عن حماد خلال أحقاب العصور. ونقدم في كل فصل من فصول هذا الباب خلاصة لما يمثل حلقة اتصال بين الأبواب والفصول السابقة، وهذا الباب وفصوله، بحيث تكون الشواهد والأمثلة هي الناطقة عن تلك الحقيقة التي سعت الدراسة دؤوبة حثيثة للكشف عن جوانبها المتداخلة، والتي أصبحت غائرة في أجواء مكتظة بالاتهامات والادعاءات والمزاعم، دون وضع حدود ثابتة شاخصة للأعمال الشفوية، ومن غير أن تتجسد رؤية نقدية فاحصة لشخصية الراوية الشفوي ودوره في التراث العربي القديم.

وعلى الرغم من عدم التركيز على نماذج مروياته، فقد كان هناك تحليل لبعض ما تبقى من شعره، وهو العمل الذي، إذا وضعناه في موضعه الصحيح، سيؤدي بنا إلى الفصل نهائياً بين حماد الراوية وحماد الشاعر، وسيقرِّب حماداً تقريباً كلياً من طبيعة الرواية الشفوية بظروفها وخصائصها ومميزاتها الفنية والموضوعية والشخصية.



الفصل الأول

إنشاده في العصر الأموي

أ ــ زياد بن أبيه: (ت ٥٣ هـ):

«دخلت على زياد، فقال لي: أنشدني، فقلت: من شعر من أيها الأمير؟ قال: من شعر الأعشى، فأنشدته:

بَكَرَتْ سُمَيَّةُ غُدْوَةً أَجْمَالُهَا

قال فما أتممت القصيدة، حتى تبينت الغضب في وجهه؛ وقال الحاجب للناس: ارتفعوا فقاموا؛ ثم لم أعد والله إليه. قال حماد: فكنت بعد ذلك إذا استنشدني خليفة أو أمير، تنبهت قبل أن أنشده لئلا يكون في القصيدة اسم أم له أو ابنة أو أخت أو زوجة»[1].

ب ــ يزيد بن عبد الملك (١٠١ هـ ـ ١٠٥ هـ):
جـ ــ وهشام بن عبد الملك (١٠٥ هـ ـ ١٢٥ هـ):

١ ــ «كان انقطاعي إلى يزيد بن عبد الملك بن مروان، فكان أخوه هشام يجفوني لذلك دون سائر أهله من بني أمية في أيام يزيد، فلما مات يزيد، وأفضت الخلافة إلى هشام، خفته، ومكثت في بيتي سنة لا أخرج إلا لمن أثق به من إخواني سراً، فلما لم أسمع أحداً يذكرني سنة، أمنت

(١) الأغاني، جـ ٦، ص ٨٨.

فخرجت، فصليت الجمعة، ثم جلست عند باب الفيل، فإذا شرطيان قد وقفا علي، فقالا لي: يا حماد، أجب الأمير يوسف بن عمر، فقلت في نفسي: مِنْ هذا كنت أحذر، ثم قلت للشرطيين: هل لكما أن تدعاني آتي أهلي، فأودعهم وداع من لا ينصرف إليهم أبداً ثم أصير معكما؟ فقالا: ما إلى ذلك من سبيل، فاستسلمت في أيديهما، وصرت إلى يوسف بن عمر، وهو في الإيوان الأحمر، فسلمت عليه، فرد علي السلام، ورمى إليَّ بكتاب فيه: «بسم الله الرحمٰن الرحيم من عبد الله هشام أمير المؤمنين، إلى يوسف بن عمر. أما بعد، فإذا قرأت كتابي هذا، فابعث إلى حماد الراوية من يأتيك به غير مروَّع ولا متعتع، وادفع إليه خمسمائة دينار وجملاً مهرياً يسير عليه اثنتي عشرة ليلة إلى دمشق، فأخذت الدنانير ونظرت، فإذا جمل مرحول، فوضعت رجلي في الغراز، وسرت اثنتي عشرة ليلة حتى وافيت باب هشام، فاستأذنت فأذن لي، فدخلت عليه في دار قوراء مفروشة بالرخام، وهو في مجلس مفروش بالرخام... وهشام جالس على طنفسة حمراء، وعليه ثياب من خز حمر، وقد تضمخ المسك والعنبر، فسلمت عليه، فرد علي السلام، واستدناني فدنوت منه حتى قبلت رجله، وإذا جاريتان لم أر قبلهما مثلهما...، فقال لي: كيف أنت يا حماد وكيف حالك؟ فقلت بخير يا أمير المؤمنين. قال: أتدري فيما بعثت إليك؟ قلت: لا، قال: بعثت إليك لبيت خطر ببالي لم أدر من قائله، قلت: وما هو؟ فقال:

وَدَعْوا بِالصَّبُوحِ يَوْماً فَجَاءَتْ ... قَيْنَةٌ فِي يَمِينِهَا إِبْرِيقُ

قلت: هذا يقوله عدي بن زيد العبادي في قصيدة، قال: فأنشدنيها، فأنشدته:

بَكَرَ الْعَاذِلُونَ فِي وَضَحِ الصُّبْـ ... ـحِ يَقُولُونَ لِي أَمَا تَسْتَفِيقُ
وَيَلُومُونَ فِيكِ يَا بْنَةَ عَبْدِ اللّـ ... ـهِ وَالْقَلْبُ عَنْكُمُ مَوْثُوقُ
لَسْتُ أَدْرِي فَإِذْ كَثُرَ الْعَذْلُ فِيهَا ... أَعَذُولٌ يَلُومُنِي أَمْ صَدِيقُ

زَانَهَا حُسْنُهَا وَفَرْعٌ عَمِيمٌ   وَأَثِيثٌ صَلْتُ الْجَبِينِ أَنِيقُ
وَثَنَايَا مُفَلَّجَاتٌ عِذَابٌ   لاَ قِصَارٌ وَلاَ هُنَّ رُوقُ
فَدَعَوْا بِالصَّبُوحِ يَوْماً فَجَاءَتْ   قَيْنَةٌ فِي يَمِينِهَا إِبْرِيقُ
قَدَّمَتْهُ عَلَى عُقَارٍ كَعَيْنِ الدِّ   يكِ صَفَّى سُلاَفُهَا الرَّاوُوقُ
مُرَّةٌ قَبْلَ مَزْجِهَا فَإِذَا مَا   مُزِجَتْ لَذَّ طَعْمُهَا مَنْ يَذُوقُ
وَطَفَتْ فَوْقَهَا فَقَاقِيعُ كَالدُّ   رِّ صِغَارٌ يُثِيرُهَا التَّصْفِيقُ
ثُمَّ كَانَ الْمِزَاجُ مَاءَ سَحَابٍ   غَيْرَ آجِنٍ وَلاَ مَطْرُوقُ

قال: فطرب هشام، ثم قال: أحسنت يا حماد، يا جارية أسقيه، فسقتني حتى ذهبت بثلث عقلي، وقال: أعد، فأعدت، فاستخفه الطرف حتى نزل عن فرشه.... فقال: سل حاجتك...، قلت: إحدى الجاريتين. فقال لي هما جميعاً لك بما عليهما ومالهما...، فأقام عنده مدة، فوصل إليه بمائة ألف درهم، وهذا هو الصحيح، لأن هشاماً لم يكن يشرب ولا يسقي أحد بحضرته مسكراً، وكان ينكر ذلك ويعيبه ويعاقب عليه»[1].

٢ ـ «الهيثم بن عدي... عن حماد الراوية... قال: استقدمني هشام بن عبد الملك في خلافته، وأمر لي فصيلة سنية وحملان، فلما دخلت عليه، استنشدني قصيدة الأفوه الأودي:

لَنَا مَعْشَرٌ لَمْ يَبْنُوا لِقَوْمِهِمُ   وَإِنْ بَنَى قَوْمُهُمْ مَا أَفْسَدُوا عَادُوا

قال: فأنشدته إياها، ثم استنشدني قول أبي ذؤيب الهذلي:

أَمِنَ الْمَنُونِ وَرَيْبِهَا تَتَوَجَّعُ

فأنشدته إياها، ثم استنشدني قول عدي بن زيد:

أَرَوَاحٌ مُوَدِّعٌ أَمْ بُكُورُ

(١) الأغاني، جـ٦، ص ص ٧٣ ـ ٧٤.

فأنشدته إياها، فأمر لي بمنزلة وجراية، وأقمت عنده شهراً، فسألني عن أشعار العرب، وأيامها، ومآثرها، ومحاسن أخلاقها، وأنا أخبره، وأنشده، ثم أمر لي بجائزة وخلعة وحملان، وردني إلى الكوفة، فعلمت أن أمره مقبل. ثم استقدمني الوليد بن يزيد بعده، فما سألني عن شيء من الجد إلا مرة واحدة، ثم جعلت أنشده بعده في ذلك النحو، فلا يلتفت إليه، ولا يهش إلى شيء منه، حتى جرى ذكر عمار ذي كناز فعرفه، . . . . ثم قال لي: هل عندك شيء من شعره؟ قلت نعم: أنا أحفظ قصيدة له، وكنت لكثرة عبثي به قد حفظتها، فأنشدته قصيدته التي يقول فيها:

حَبَّـــذَا أَنْـــتِ يَـــا سَـــلاَ مَـــةُ أَلْفَيْـــنِ حَبَّـــذَا»[1]

د ــ الوليد بن يزيد (ت ١٢٦ هـ):

١ ــ «جلس الوليد يوماً وجارية تغنيه، فأنشدها الوليد:

قينة في يمينها إبريق

قالت الجارية المغنية: لو أتممت الشعر، غنيت به. قال: لست أرويه. وكتب إلى حماد، فحمل إليه، فلما دخل عليه الوليد:

قينة في يمينها إبريق

فأنشدها حماد الراوية:

ثم نادى ألا أصبحوني . . .»[2]

٢ ــ «. . . حماد الراوية قال:

استنشدني الوليد بن يزيد، فأنشدته نحواً من ألف قصيدة، فما استعادني إلا قصيدة عمر بن أبي ربيعة:

---

(١) الأغاني، جـ ٢٣، ص ص ٣٦٨ ـ ٣٦٩. . . وانظر بقية القصيدة. ولعل القصة وقعت حقيقة مع الوليد بن يزيد لا هشام، كما جاء في جـ ٦، ص ١٢٤.

(٢) ابن عبد ربه، العقد، جـ ٤، ص ٤٥٨.

طَـالَ لَيْلِـي وَتَعَنَّـانِي الطَّـرَبْ

فلما أنشدته قوله:

فَـأَتَتْهَـا طَبَّـةٌ عَـالِمَـةٌ تَخْلِطُ الجِـدَّ مِـرَاراً بِـاللَّعِبْ

إلى قوله:

إِنَّ كَفِّـي لَـكِ رَهْـنٌ بِـالـرِّضَـا فَـاقْبَلِي يَـا هِنْـدُ قَـالَتْ قَـدْ وَجَبْ

فقال الوليد: ويحك يا حماد! اطلب لي مثل هذه أرسلها إلى سلمى، يعني أمرأته سلمى بنت سعيد بن خالد بن عمرو بن عثمان، وكان طلقها ليتزوج أختها، ثم تتبعتها نفسه»[1].

٣ ـ عن ابن الكلبي عن حماد الراوية، قال: دخلت يوماً على الوليد، وكان آخر يوم لقيته فيه، فاستنشدني، فأنشدته كل ضرب من شعر أهل الجاهلية والإسلام، فما هش لشيء منه، حتى أخذت في السخف، فأنشدته لعمار بن ذي كناز مجتبذاً.

فضحك حتى استلقى وطرب، ودعا بالشراب، فشرب، وجعل يستعيدني الأبيات، فأعيدها حتى سكر، وأمر لي بجائزة، فعلمت أن أمره قد أدبر»[2].

٤ ـ «حماد الراوية قال: دعاني الوليد يوماً من الأيام في السحر والقمر طالع، وعنده جماعة من ندمائه، وقد اصطبح، فقال: أنشدني في النسيب، فأنشدته أشعاراً كثيرة، فلم يهش لشيء منها حتى أنشدته قول عدي بن زيد:

أصبـح القـوم قهـوة فـي الأباريـق تحتـذي

---

(١) الأغاني، جـ١، ص ١٣٨.

(٢) الأغاني، جـ٦، ص ١٢٤ وهو شعر لم نورده هنا.

مـــــن كميـــــت مـــــدامـــــة	حبـــــذا تلـــــك حبـــــذا

فطرب، ثم رفع رأسه... قال حماد، ثم أحضرني فخلع علي خلعاً من فاخر ثيابه، وأمر لي بعشرة آلاف درهم، وحملني على فرس»[(١)].

٥ ــ «قال حماد الراوية: أرسل الوليد بن يزيد إلي بمائتي دينار، وأمر يوسف بن عمر بحملي إليه على البريد. قال فقلت: لا يسألني إلا عن طرفيه: قريش وثقيف، فنظرت في كتابَي قريش وثقيف. فلما قدمت عليه سألني عن أشعار بَلِي، فأنشدته منها ما استحسنه، ثم قال: أنشدني في الشراب ـ وعنده وجوه من أهل الشام ـ فأنشدته:

إِصْبَـــــحِ الْقَـــــوْمَ قَهْـــــوَةً	فِـــــي أَبَـــــارِيـــــقَ تُحْتَـــــذَى
مِـــــنْ كُمَيْـــــتٍ مُـــــدَامَـــــةٍ	حَبَّـــــذَا تِلْـــــكَ حَبَّـــــذَا
يَتْـــــرُكُ الْأُذْنَ شُـــــرْبُهَـــــا	أُرْجُـــــوَانـــــاً بِهَـــــا خُـــــذَا

فقال: أعدها، فأعدتها، فقال لخدمه: خذوا آذان القوم، فأُتينا بالشراب فسُقينا حتى ما دَرَينا متى نُقلنا، ثم حُملنا وطُرحنا في دار الضيفان، فما أيقظنا إلا حَرُّ الشمس، وجعل شيخ من أهل الشام يشتمني ويقول: فعل الله بك وفعل، أنت الذي صنعت بنا هذا»[(٢)].

٦ ــ قال حماد الراوية، استدعاني الوليد بن يزيد، وأمر لي بألفين لنفقتي، وألفين لعيالي، فقدمت عليه، فلما دخلت داره، قال لي الخدم: أمير المؤمنين من خلف الستارة الحمراء، فسلمت بالخلافة، فقال لي: يا حماد. قلت: لبيك يا أمير المؤمنين، قال: ثم ثاروا، فلم أدر ما يعني، فقال: ويحك يا حماد! ثم ثاروا، فقلت في نفسي: راوية أهل العراق، لا

---

(١) الأغاني، جـ ٦، ص ١٢٩.

(٢) المصدر نفسه، جـ ٦، ص ص ٨٩ ـ ٩٠.

الكميت: الخمر التي تضرب حمرتها إلى السواد.

يدري عما يسأل، ثم انتبهت، فقلت:

«ثُمَّ ثَارُوا إِلَى الصَّبُوحِ»[1]

٧ ــ حماد الراوية قال: دخلت على الوليد بن يزيد، وهو مصطبح، وبين يديه معبد ومالك وابن عائشة... وعلى رأسه وصيفة... فقال لي: يا حماد أنشدني أنت ما يوافق صفتها، وهي لك، فأنشدته قول ربيعة بن مقروم الضبي:

شَمَّـاءُ وَاضِحَـةُ الْعَـوَارِضِ طَفْلَـةٌ ... كَالْبَدْرِ مِنْ خَلَلِ السَّحَابِ الْمُنْجَلِي

وَكَـأَنَّمَـا رِيـحُ الْقَـرَنْفُـلِ نَشْـرُهَـا ... أَوْحَنْـوَةٌ خُلِطَـتْ خُـزَامَـى حَـوْمَـلِ

وَكَـأَنَّ فَـاهَـا بَعْـدَمَـا طَـرَقَ الْكَـرَى ... كَـأْسٌ تُصَفَّـقُ بِـالـرَّحِيـقِ السَّلْسَـلِ

لَـوْ أَنَّهَـا عَـرَضَـتْ لأَشْمَـطَ رَاهِـبٍ ... فِـي رَأْسِ مُشْـرِفَـةِ الـذُّرَى مُتَبَتِّلِـي

جَـارِ سَـاعَـاتِ النِّيَـامِ لِـرَبِّـهِ ... حَتَّـى تَخَـدَّدَ لَحْمُـهُ مُسْتَعْمِـلِ

لَصَبَـا لِبَهْجَتِهَـا وَحُسْـنِ حَـدِيثِهَـا ... وَلَهَـمَّ مِـنْ نَـامُـوسِـهِ بِتَنَـزُّلِ

فقال الوليد، أصبت وصفها، فاخترها أو ألف دينار، فاخترت الألف دينار..»[2]

٨ ــ قال حماد: «إن الوليد بن يزيد... استنشدني:

أمن المنون وريبها تتوجع

فأنشدته حتى أتيت على آخرها»[3].

---

(١) الأغاني، جـ٦، ص ١١٩.

(٢) المصدر نفسه، جـ ٢٢، ص ص ٩١ ـ ٩٢.

(٣) النويري، نهاية الأرب، جـ ٤ ص ص ٢٨٢ ـ ٢٨٣.



أ ــ أبو مسلم الخراساني (قتل سنة ١٣٧ هـ):

١ ــ «قال حماد الراوية: أرسل إليَّ أبو مسلم ليلاً، فراعني ذلك فلبست أكفاني ومضيت، فلما دخلت عليه، تركني حتى سكن جأشي، ثم قال لي: ما شعر فيه «أوتاد؟» قلت: من قائله أصلح الله الأمير: قال: لا أدري. قلت: فمن شعراء الجاهلية أم شعراء الإسلام؟ قال: لا أدري. قال فأطرقت حيناً أفكر فيه، حتى بدر إلى وهمي شعر الأفوه الأودي، حيث يقول:

لَا يَصْلُحُ النَّاسُ فَوْضَى لَا سُرَاةَ لَهُمْ ... وَلَا سُـرَاةَ إِذَا جُهَّالُهُمْ سَادُوا
وَالْبَيْتُ لَا يُبْتَنَى إِلَّا لَهُ عَمَدٌ ... وَلَا عِمَادَ إِذَا لَمْ تُرْسَ أَوْتَادُ
فَإِنْ تَجَمَّعَ أَوْتَادٌ وَأَعْمِدَةٌ ... يَوْماً فَقَدْ بَلَغُوا الْأَمْرَ الَّذِي كَادُوا

فقلت: هوه الأفوه الأودي، أصلح الله الأمير، وأنشدته الأبيات، فقال: صدقت، انصرف إذا شئت. فقمت، فلما خطوت الباب لحقني أعوان له، ومعهم بدرة، فصحبوني إلى الباب، فلما أردت أن أقبضها منهم، قالوا: لا بد من إدخالها إلى موضع منامك، فدخلوا معي، فعرضت أن أعطيهم منها شيئاً، فقالوا: لا نقدم على الأمير»[1].

(١) ابن عبد ربه، العقد، جـ ٥، ص ٣٠٨.

٢ ــ دخلت على أبي مسلم، فاستنشدني، فأنشدته قول الأفوه:

لنا معشر لم يبنوا لقومهم.

فلما بلغت إلى قوله:

تَهْدَى الأُمُورُ بِأَهْلِ الرُّشْدِ مَا صَلَحَتْ وَإِنْ تَــوَلَّــتْ فَبِــالأَشْــرَارِ تُنْقَــادُ

قال: أنا ذلك الذي تنقاد به الناس، فأيقنت حينئذ أن أمره مقبل»[١].

ب ــ أبو جعفر المنصور (١٣٦ هـ ــ ١٥٨ هـ):

«طلب المنصور حماداً الراوية، فطُلب ببغداد فلم يوجد، وسئل عنه إخوانه فعرّفوا من سألهم عنه أنه بالبصرة، فوجهوا إليه برسول يشخصه، قال الرسول: . . . أجب أمير المؤمنين. فما رأيت رسالة أرفع، ولا حالة أوضع من تلك. فأجاب، فأشخصته إليه. فلما مثل بين يديه، قال له: أنشدني شعر هِفّان بن همام بن نضلة يرثي أباه؛ فأنشده:

خَلِيلَــيَّ عُــوجَــاً إِنَّهَــا حَــاجَــةٌ لَنَــا عَلَــى قَبْــرِ هَمَّــامٍ سَقَتْــهُ الــرَّوَاعِــدُ

عَلَـى قَبْـرِ مَـنْ يُـرْجَـى نَـدَاهُ وَيُبْتَغَـى جَـدَاهُ إِذَا لَـمْ يَحْمَـدِ الأَرْضَ رَائِـدُ

كَـرِيـمِ الثَّنَـا حَلْـوِ الشَّمَـائِـلِ بَيْنَـهُ وَبَيْــنَ الْمُــزَجَّــي نَفْنَــفٌ مُتَبَــاعِــدُ

إِذَا نَـازَعَ الْقَـوْمُ الأَحَـادِيـثَ لَـمْ يَكُـنْ عَيِيّــاً وَلاَ ثِقْــلاً عَلَــى مَــنْ يُقَــاعِــدُ

صَبُـورٌ عَلَـى الْعِـلاَّتِ يُصْبِـحُ بَطْنُـهُ خَمِيصـاً وَآتِيـهِ عَلَـى الـزَّادِ حَـامِـدُ

وَضَعْنَا الْفَتَى كُلَّ الْفَتَى فِي حَفِيرَةٍ بِحُــرِّيـنَ قَــدْ رَاحَــتْ عَلَيْـهِ الْعَـوَائِـدُ

صَرِيعاً كَنَصْلِ السَّيْفِ تَضْرِبُ حَوْلَهُ تَــرَائِبَهُــنَ الْمُعْــوِلاَتُ الْفَــوَاقِــدُ

قال: فبكي أبو جعفر، حتى أخضَل لحيتَه، ثم قال: هكذا كان أخي أبو العباس، رضي الله عنه»[١].

---

(١) الأغاني، جـ٦، ص ١٢٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ص ٧٧ ـ ٧٨.

النثا: ما أخبرت به عن الرجل من حسن أو سيىء.

المزجي: الضعيف. النفنف: المهواة بين الجبلين.

جـ ـ جعفر بن أبي جعفر المنصور (ت ١٥٠ هـ):

«كان جعفر بن أبي المنصور، المعروف بابن الكردية، يستخف مطيع بن إياس ويحبه، وكان منقطعاً إليه، وله معه منزلة حسنة، فذُكر له حماد الراوية، وكان صديقه، وكان مطَّرحاً مجفوا في أيامهم، فقال: إئتنا به لنراه. فأتى مطيع حماداً فأخبره بذلك، وأمره بالمسير معه إليه؛ فقال له حماد: دعني فإن دولتي كانت مع بني أمية وما لي عند هؤلاء خير، فأبى مطيع إلا الذهاب إليه، فاستعار حماد سواداً وسيفاً، ثم أتاه، ثم مضى به مطيع إلى جعفر. فلما دخل عليه سلم عليه سلاماً حسناً، وأثنى عليه، وذكر فضله؛ فرد عليه وأمره بالجلوس فجلس. قال جعفر: أنشدني؛ فقال لمن أيها الأمير؟ ألشاعر بعينه، أم لمن حضر؟ قال: بل أنشدني لجرير. قال حماد: فسُلخ والله شعر جرير كله من قلبي إلا قوله:

بَانَ الْخَلِيطُ بِرَامَتَيْنِ فَوَدَّعُوا ... أَوَ كُلَّمَا اعْتَزَمُوا لِبَيْنٍ تَجْزَعُ

فاندفعت فأنشدته إياه حتى انتهيت إلى قوله:

وَتَقُولُ بَوْزَعُ قَدْ دَبَبْتَ عَلَى الْعَصَا ... هَلاَّ هَزِئْتِ بِغَيْرِنَا يَا بَوْزَعُ

قال حماد: فقال لي جعفر: أعد هذا البيت، فأعدته؛ فقال: بوزع! أي شيء هو؟ فقلت: اسم امرأة، فقال: امرأة اسمها بوزع؟! هو بريء من الله ورسوله، ونَفْي من العباس بن عبد المطلب إن كانت بوزع، إلا غولاً من الغيلان! تركتني والله يا هذا لا أنام الليلة من فزع بوزع؛ يا غلمان! قَفاه؛ فصُفِعت والله، حتى لم أدر أين أنا، ثم قال: جروا برجله؛ فجروا برجلي حتى أُخرجت من بين يديه مسحوباً، فتخرق السواد، وانكسر جفن السيف، ولقيت شراً عظيماً مما جرى علي؛ وكان أغلظ من ذلك كله، وأشد بلاء إغرامي ثمن السواد وجفن السيف، فلما انصرفت أتاني

مطيع يتوجع لي، فقلت له: ألم أخبرك أني لا أصيب منهم خيراً وإن حظي قد مضى مع بني أمية»[1].

د ـ المهدي (١٥٨ هـ ـ ١٦٩ هـ):

«دخلت على المهدي، فقال: أنشدني أحسن أبيات قيلت في السكر، ولك عشرة آلاف درهم وخلعتان من كسوة الشتاء والصيف؛ فأنشدته قول الأخطل:

تَرَى الزُّجَاجَ وَلَمْ يُطْمَثْ يُطِيفُ بِهِ ... كَأَنَّهُ مِنْ دَمِ الأَجْوَافِ مُخْتَضَبُ
حَتَّى إِذَا افْتَضَّ مَاءُ الْمُزْنِ عُذْرَتَهَا ... رَاحَ الزُّجَاجُ وَفِي أَلْوَانِهِ صَهَبُ
تَنْزُو إِذَا شَجَّهَا بِالْمَاءِ مَازِجُهَا ... نَزْوَ الْجَنَادِبِ فِي رَمْضَاءَ تَلْتَهِبُ
رَاحُوا وَهُمْ يَحْسَبُونَ الأَرْضَ فِي فَلَكٍ ... إِنْ صُرِّعُوا وَقَتِ الرَّاحَاتُ وَالرُّكَبُ

فقال لي: أحسنت، وأمر لي بما شرطه ووعدني به فأخذته»[2].

المناقشة:

تدل جميع تلك الأمثلة على أن حماداً كان حاضر البديهية، واسع الثقافة، ذا ذاكرة عجيبة في الحفظ والإنشاد، ولم تقتصر روايته على العصر الجاهلي فقط، بل تجاوز ذلك إلى العصر الأموي، فهو يروي لجرير مثلاً. ومن اللافت للنظر أنه لا يكتفي برواية أجزاء من شعر الشاعر، وإنما شعره كله، فهو كان يحفظ شعر جرير كله: «**فسلخ والله شعر جرير كله من**

---

(١) الأغاني، جـ ٦، ص ص ٧٨ ـ ٧٩.
رامتان: تثنية رامة، ورامة: منزل بينه وبين الرمادة ليلة في طريق البصرة إلى مكة ومنه إلى إمرة.

(٢) الأصفهاني، الأغاني، جـ ٦، ص ص ٨٣ ـ ٨٤.
الطمث: المس.

قلبي». وعلى هذه الشاكلة، ربما كان يحفظ شعر الأخطل، أيضاً، بل إنه ليتعدى ذلك إلى رواية أشعار القبائل، مثل قريش وثقيف وبلي. وتؤكد الشواهد جميعاً على قدرته على استحضار القافية حتى في فترة اضطراب الذاكرة وعدم ثباتها، يساعده في ذلك حدس ذكي على النظر في رغبات المستمعين وعشاق إنشاد الشعر، كما هو واضح من موقفه مع أبي مسلم الخراساني.

ولكن هذه المعرفة الواسعة بالشعر تشير إلى ملاحظة مهمة في روايته، فإذا عدنا إلى قول الأصمعي: **«كل ما في أيدينا من شعر امرىء القيس هو لحماد الراوية»**، وروايته لشعر زهير بن أبي سلمى، ثم هذه الروايات المتعددة التي تشمل شعر الأفوه الأودي وعدي بن زيد، وأبي ذؤيب، والأعشى، والأخطل، وجرير، ظهر لنا أنه لم يكن متخصصاً في أسلوب معين من أساليب الشعر ولا في فن من فنونه. وإنما كان جامعاً لكل ما يقع تحت يديه. وإن كان هناك إحساس يلامس الدارس في أن حماداً كان يميل إلى شعر المتعة والطرب. كما يوحي بذلك إنشاده قافِيَّة عدي، وشعر الأعشى، وأبيات الأخطل في السكر، وربما جر هذا الاستنتاج إلى القول إنه كان ذا ميل داخلي نحو الشعر المؤثر نفسياً، كإنشاده أبيات هفان في رثاء أبيه، وقصيدة أبي ذؤيب المشهورة. وليس هذا بغريب على جو حماد، فربما كان لصحبته الوليد بن يزيد أثر في ذلك.

وإن أهم ملاحظة في هذه الأمثلة هي أن أحداً ممن نقل هذه الأخبار لم ينبه إلى الطعن في أحدها أو بعضها، بل رووها على أنها شعر صحيح منسوب إلى صاحبه. والأهم من كل ذلك أنها دليل قاطع على أن هذا الشعر، كان معروفاً قبل حماد، ثم هي لا تترك مجالاً للشك في أن حماداً، كان يرويه رواية. وربما بلغت درجة توثيق حماداً حداً بعيداً، إذ

أخذ شعر الأعشى مشافهة عن راوية الأعشى نفسه سماك بن عبيد، كما سنرى.

ولكن هنا خمس ملاحظات لا بد من التنبه لهـا:

الأولى: التأكيد على الكثرة الهائلة من الأشعار التي يحفظها حماد، حتى إنه يعطي أرقاماً محددة لجزء من محفوظه مثل: «أنشدته نحواً من ألف قصيدة». وما ذلك إلا في جلسة استماع واحدة.

الثانية: تحديد أسماء الشعراء الذين يروي لهم، ومحافظته على هذا التحديد، مثل: الأفوه الأودي، وعدي بن زيد. وهو تحديد تتفق عليه معظم المصادر الأدبية.

الثالثة: أننا نكاد نطمأن شديد الاطمئنان إلى رواية حماد وحافظته التسجيلية تلك، فقد كان الخلفاء والأمراء يستنشدونه: **«أنشدني شعر هفان»**، **«استعادني قصيدة عمر...»**: **«أنشدني لجرير»**، **«بعثت إليك بسبب بيت...»**، **«استنشدني: أمن المنون...»**. وهذا يعني بشكل قاطع أن أولئك الذين استنشدوه، كانوا على علم بما يطلبون روايته. أي إنه لم يخترعها لهم أو يؤلفها من عنده.

الرابعة: أنه كان حافظة تسجيلية، متقدة الذكاء والحضور، بحيث تنقل صاحبها إلى مصاف العبقريات العالمية الخالدة في التاريخ، لولا التشويه ومحاولة الحط منها التي لحقتها على مر الزمان. وليس أدل على ذلك من حادثته مع الوليد بن يزيد. **«قال لي: يا حماد، قلت لبيك يا أمير المؤمنين، قال: ثم ثاروا، فلم أدر ما يعني، فقال: ويحك يا حماد! ثم ثاروا، فقلت في نفسي: راوية أهل العراق، لا يدري عما يسأل، ثم انتبهت، فقلت: ثم ثاروا...»**.

وهذه حالة مبكرة نوعاً ما، أما الحالة المتأخرة، فهي شبيهة بالأولى،

حينما طلب منه أبو مسلم الخراساني أن يأتيه بشعر فيه: «أوتاد»، وكلمح البرق تتبادر إلى ذهنه أبيات الأفوه الأودي.

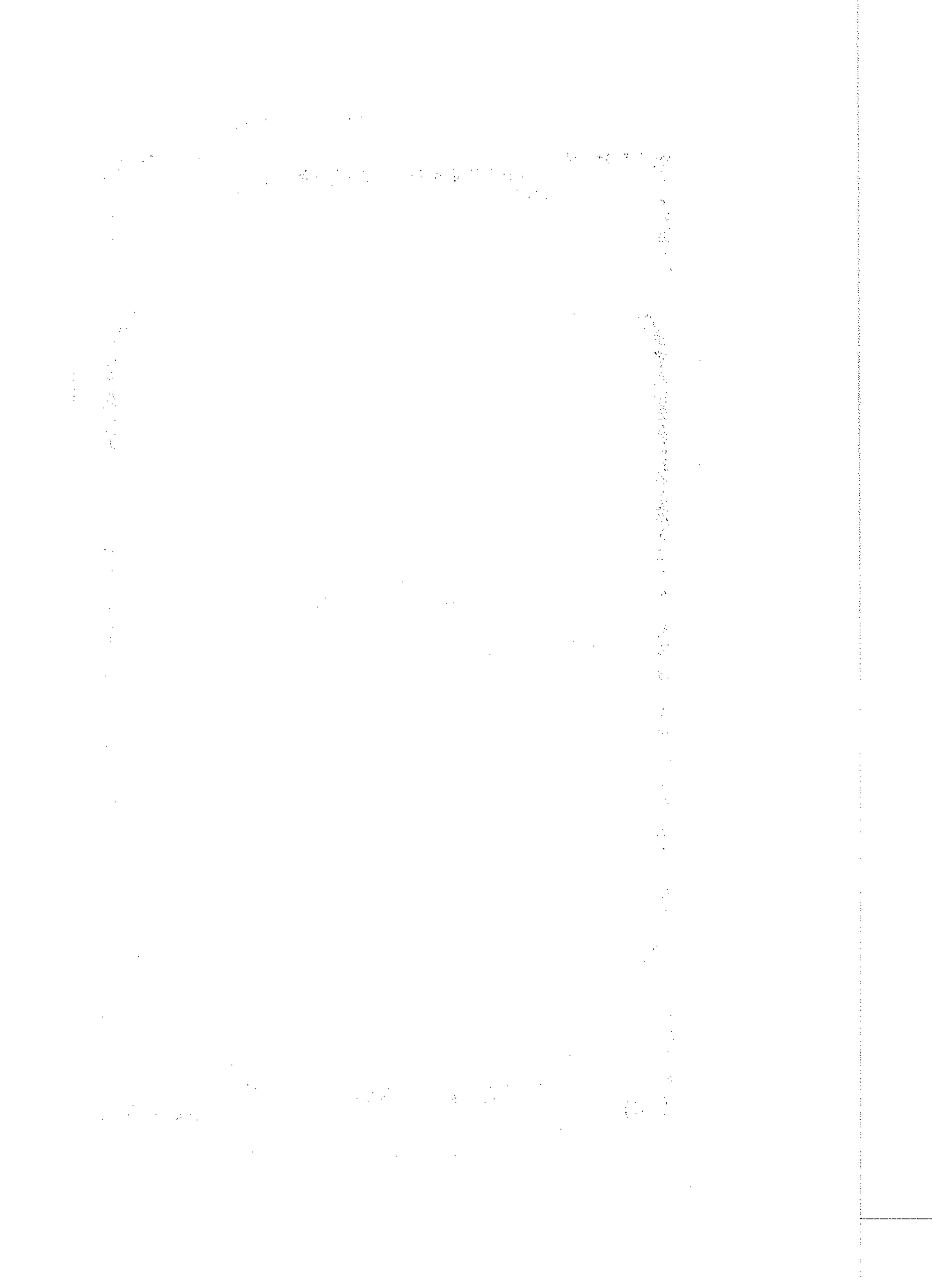
الخامسة: لقد أدى الخلط والتزيد في الأخبار، على أحسن الظنون، إلى تشويه واقع حماد والخلافة الأموية، وهذا ما تنبه له أبو الفرج حين رفض اتهام هشام بشرب الخمر ثم أكده ابن خلكان. وهذا ما تبين لنا هنا من رواية ابن عبد ربه، حين جعل الحادثة مع الوليد بن يزيد، وهو الموقف المناسب جداً.

والحقيقة أنه لو جاءت معلومات أقدم أو معاصرة لحماد، لاستطعنا أن نزيح كثيراً من الظلم الذي لحق بحماد وروايته، ولاستطعنا أن نرسم له صورة تعيده إلى طبيعته التي كان عليها، ليحتل مكانته التي يستحقها في الأدب العربي، بل لينتقل به الاستشهاد إلى أولئك الرواة العالميين الذين هم مضرب المثل والدراسة في الموروث الثقافي العالمي. وهو اتجاه ابتدأ يحتل موقعه في الميادين العلمية الشفوية والشعبية.



الباب التاسع

نماذج من رواية حماد للقصص والأخبار





الفصل الأول

نماذج من روايته للشعر

١ ــ «قال حماد الراوية: حدثني سماك بن عبيد راوية الأعشى عن الأعشى»[١].

٢ ــ «يُروى عن حماد الراوية، قال: قالت ليلى بنت عروة بن زيد الخيل لأبيها: أرأيت قول أبيك:

بني عـامـر هـل تعـرفـون إذا غـدا ... أبـو مكنـف قـد شـد عقـد الـدوابـر

بجيـش تضِـل البلـق فـي حجـراتـه ... تـرى الأكـم منـه سجـداً للحـوافـر

وجمعٍ كمثل الليل مرتجِس الوغى ... كثيـرٍ تـواليـه سـريـع البـوادر

أبـت عـادةٌ للـوَرد أن يكـرَه الـوغـى ... وحاجةُ رمحي في نمير بن عامر

فقلت لأبي: أحضرت هذه الوقعة؟ فقال: نعم.... فذكرت هذا لابن أُبَيّ الهذلي، فحدثني عن أبيه... قال وكان قد بلغ مائة سنة، وكان قد أدرك أيام الحجاج... قال: فحدثت بهذا الحديث الخثعمي، وكان راوية أهل الكوفة، فحدثني...»[٢].

٣ ــ «أخبرنا جعفر بن محمد، قال: أخبرنا محمد بن الحسن

---

(١) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، جـ ١، ص ٢٥٩.

(٢) المبرد، الكامل، جـ ٢، ص ص ٢٠٠ ـ ٢٠٠.

الأزدي، قال: أخبرنا أبو حاتم، قال: قال الأصمعي: كل شيء في أيدينا من شعر امرىء القيس، فهو عن حماد الراوية إلا نتفاً سمعتها من الأعراب وأبي عمرو بن العلاء»[1].

٤ ـ قال عامر بن الطفيل:

إِذَا خِفْتَ غَدْراً في فَزَارَةَ فَاسْتَجِرْ ... خِذَامَ بْنَ زَيْدٍ وَابْنِ عَمٍّ خَذَامِ
هُمَا مَنَعَانِي مِنْ عُيَيْنَةَ بَعْدَمَا ... أَشَارَ بِمَصْقُولٍ عَلَيَّ حُسَامِ

قال هشام: أصبتها في كتاب حماد الراوية خلاف روايتنا:

إِذَا شِئْتَ أَنْ تَلْقَى المَنَاعَةَ فَاسْتَجِرْ ... خِذَامَ بْنَ زَيْدٍ إِنْ أَجَارَ خَذَامُ
دَعَوْتُ أَبَا الْجَبَّارِ أَخْتَصُّ مالِكاً ... وَلَمْ يَكُ قِدْماً مَنْ أَجَرْتَ يُضَامُ
فَقَامَ أَبُو الجَبَّارِ يَهْتَزُّ لِلنَّدى ... كَمَا اهْتَزَّ عَضْبُ الشَّفْرَتَيْنِ حُسَامُ
وَكُنْتَ سَنَاماً مِنْ فَزَارَةَ نَامِياً ... وَفِي كُلِّ قَوْمٍ ذِرْوَةٌ وَسَنَامُ
فَنَكَّلْتَ عَنِّي الشَّارِعِينَ وَلَمْ أَكُنْ ... مَخَافَةَ شَرِّ الشَّارِعِينَ أَنَامُ[2]

ولعلنا نتنبه هنا إلى اختلاف المجرى، الأمر الذي يعني اختلاف المصدرين واختلاف الروايتين كل الاختلاف.

٥ ـ

«فأعددت عجلي لحسن الدواء ... لم يتلمس حشاهاها طبيب[3]

وروى الأصمعي: وأردفته كصفاة المسيل، يريد أتان السيل، وهي

---

(١) أبو الطيب اللغوي، مراتب النحويين، ص ٧٣.

(٢) ابن الأنباري المفضليات، ص ٣٣. خذام بن زيد، وكان شريفاً، وابن عمته جبار بن مالك أجارا عامر بن الطفيل بن عيينة بن حصن يوم الرقم بعد أن هزمت فزارة بني عامر.

(٣) ابن الأنباري، شرح المفضليات، ص ص ٥١٢ ـ ٥١٣.
وهي قصيدة لثعلبة بن عمير، أحد شعراء الجاهلية من ١٤ بيتاً.

صخرة، وهي أشد الصخر لأنها تشرب الماء وتصيبها الشمس فتصلبها. . . هذا كله قول الأصمعي. . . ويروى:

وأعددت عجلي ليوم اليهاج

وروى حماد:

وأعددت عجلي لنقع الصباح

النقع هنا الصوت، والاستغاثة في الصبح.

فتبّعنــــــه طعنــــــة ثـــــــرة يسيـل علـى الـوجـه منهـا صبيـب

هكذا رواه حماد وخالد وأبو عبيدة»[1].

٦ ــ «كان ابن الجصاص وحماد يرويان: ذهبت من الهجران لامرىء القيس، ورواها المفضل لعلقمة»[2].

٧ ــ «اختلفوا في جمع هذه القصائد السبع، فقيل، إن العرب كان أكثرها يجتمع بعكاظ ويتناشدون، فإذا استحسن الملك قصيدة، قال: علقوها وأثبتوها في خزانتي. وأما قول من قال: إنها علقت في الكعبة، فلا يعرفه أحد من الرواة، وأصح ما قيل في هذا: أن حماد الراوية، لما رأى زهد الناس في حفظ الشعر، جمع هذه السبع وحضهم عليها، وقال لهم: هذه المشهورات فسميت القصائد المشهورة لهذا»[3].

المناقشة:

هذه نماذج من الشواهد التي بقيت لنا مما يشير إلى رواية حماد. فهو جمع شعر امرىء القيس، وشعر زيد الخيل، وإلى جانب ذلك جمع السبع

---

(١) المصدر نفسه، ص ٥١٤. ورواها أيضاً الأصمعي. وخالد هو خالد بن كلثوم.

(٢) المصدر نفسه، ص ٧٦٥.

(٣) النحاس، شرح القصائد السبع، جـ ١، ص ١٨٢.

المعلقات، وشارك في بعض روايات شعر عامر بن الطفيل.

ومع أن الأصمعي يشكك في روايته، فإنه هو نفسه كان راوية لشعر امرىء القيس، وطبيعي أن يكون المجموع الذي رواه الأصمعي (صحيحاً) لأنه لا يعقل أن يروي الأصمعي هذا الشعر على أنه منحول. وقد تضافرت روايات أخرى إلى جانب رواية حماد، وهو أمر يحقق صدق روايته التي جاءت عن الأصمعي والتي كان مصدرها حماد. وما رواية الكلبي لأبيات عامر بن الطفيل، وقوله: «**خلاف روايتنا**»، إلا دليل على أن هناك روايات أخرى إلى جانب روايته، إما معاصرة له، أو سابقة عليه.

وهذا ما نلحظه في رواية السبع الطوال، فقولهم: «**جمع هذه السبع**»، يعني أن هذا الشعر كان موجوداً، وإنما اختار للناس أشهرها على ألسنة الرواة. وفي هذا الخبر ما يدل على أنه حافظة راوية للشعر ومهتم به، وقد سبق غيره في هذه القصائد السبع كما بيّنا قبل هذا.

ولا تدع الشواهد أي مجال للظن في تفرد حماد برواية الشعر، فابن الأنباري في شرحه للمفضليات، يذكر إلى جانب رواية الضبي، رواية حماد، وإلى جانبه رواية الأصمعي، وخالد بن كلثوم، وأبي عبيدة، وأغلبهم رواة بصريون ثقاة. وهذا ما نجده أيضاً في رواية المفضل لعلقمة، على حين أن ابن الجصاص وحماد يرويان لامرىء القيس.

فحماد، إذن أحد الرواة الذي يشترك معه آخرون، فلا يذكرون مايطعن فيه أو يجرحه، حتى ولو اختلفت نسبة الشعر.

وتبلغ درجة توثيق حماد في روايته لشعر زيد الخيل وابنه، فعلى الرغم من أن ابن الشجري، الذي نقل عن أبي حاتم شَكَّه في أبيات منسوبة للحطيئة، لم يذكر شيئاً هنا عن رواية حماد لأبيات عروة بن زيد الخيل،

وإن المبرد العالم البصري، الثقة المتشدد، ليأتي برواية أبيات زيد الخيل، فيسعفها بسند شديد التوثيق، بحيث يجعل الدارس يطمئن اطمئناناً شديداً إلى قوة ذاكرة حماد، على الرغم مما قد يكون شابهاً من خلل أو اضطراب.

الفصل الثاني

التفرد في الرواية ونماذج منه

أ ــ زهير:

١ ــ

فِيـمَ لَحَـتْ إِنَّ لَـوْمَهَـا ذُعُـرُ ‏ أَحْمَيْـتِ لَـوْماً كَـأَنَّـهُ الإِبَـرُ

مِـنْ غَيْـرِ مَـا تُلْصِـقُ الْمَـلاَمَـةَ إِلْـ ‏ ـلاسُخْـفُ رَأْيٍ وَسَـاءَهَـا عُصُـرُ

حَتَّـى إِذَا أَدْخَلَـتْ مَـلاَمَتَهَـا ‏ مِـنْ تَحْـتِ جِلْـدِي وَلا يُـرَى أَثَـرُ

قُلْـتُ لَهَـا يَـا أرْبَعِـي أَقُـلْ لَـكِ فـي ‏ أَشْيَـاءَ عِنْـدِي مِـنْ عِلْمِهَـا خَبَـرُ

قَـدْ يُقْبِـلُ الْمَـالُ بَعْـدَ حِيـنٍ عَلَـى الْـ ‏ مَـرْءِ وَحِينـاً لِهُلْكِـهِ دُبُـرُ

---

(١) شرح زهير، ص ص ٢٢٩ ـ ٢٣١. وجاء فيه: «لم يروها المفضل في كتاب حماد، وقرئت على أبي عمرو الشيباني». وهذا يعني أن مصدرها الأساسي هو حماد، ولذلك فإن عبارة «يروى»، التي جاءت في شرح شعر زهير هنا، تعني اختلاف هذه الرواية عن الرواية الأساسية، وهذا ما تدل عليه رواية الشطر الأول من البيت الأول، أي إن هذه الرواية ربما لم تكن هي الأصل الذي رواها فيه حماد، بل تعرضت إلى اختلاف، أو أن هناك رواة آخرين شاركوا حماداً في روايتها.

ويروى الشطر الأول من البيت الأول: «همت بلوم ولومها ذعر».

لحت: لامت. ذعر: مفزع. أحميت: جعلته حاراً. يقول لمت لوماً كأنه الإبر في الصدر.

من غير ما يلصق الملامة: من غير ما تلزم الملامة. يقول: اجتمعت علي خصلتان: الكبر والسخاء، فجعلت تعتل علي. =

وَالْمَـــالُ مَـــا خَـــوَّلَ الإِلَـــهُ فَـــلا بُـــدَّ لَـــهُ أَنْ يَحُـــوزَهُ قَـــدَرُ
وَالْجَـدُّ مِـنْ خَيْـرِ مَـا أَعَـانَـكَ أَوْ صُلْـتَ بِـهِ وَالْجُـدُودُ تُهْتَصَـرُ
قَـدْ يَقْتَنِـي الْمَـرْءُ بَعْـدَ عَيْلَتِـهِ يَعِيـلُ بَعْـدَ الْغِنَـى وَيَجْتَبِـرُ
وَالإِثْـمُ مِـنْ شَـرِّ مَـا يُصَـالُ بِـهِ وَالْبِـرُّ كَـالْغَيْـثِ نَبْتُـهُ أَمِـرُ
قَـدْ أَشْهَـدُ الشَّـارِبَ الْمُعَـذَّلَ لاَ مَعْـرُوفُـهُ مُنْكَـرٌ وَلاَ حَصِـرُ
فِـي فِتْيَـةٍ لَيِّنِـي الْمَـآزِرِ لاَ يَنْسَـوْنَ أَحْـلاَمَهُـمْ إِذَا سَكِـرُوا
يَشْـوُونَ لِلضَّيْـفِ وَالْعُفَـاةِ وَيُـو فُـونَ قَضَـاءً إِذَا هُـمُ نَـذَرُوا

٢ ـ

مَـرَجَ الـدِّيـنُ فَـأَعْـدَدْتُ لَـهُ مُشْـرِفَ الْحَـارِكِ مَحْبُـوكَ الثَّبَـجْ
يَـرْهَـبُ السَّـوْطَ سَـرِيعـاً فَـإِذا وَنَـتِ الْخَيْـلُ مِـنَ الشَّـدِّ مَعَـجْ
سَلِسَ الْمَـرْسِنِ مَمْحُوصَ الشَّوى شَنِـجَ الأَنْسَـاءِ مِـنْ غَيْـرِ فَحَـجْ[1]

= يا اربعي: يا هذه اربعي، أي كفي وانتظري ولا تتعجلي. خبر: علم. دبر: أدبار.
خول: أعطى. يحوز القدر: يجمعه القدر، يذهب به.
الجد: الحظ. صلت به: قويت به. تهتصر: تكسر وتعطف.
يقتني: يجمع ويستغني. عيلته: فقره. يعيل: يفتقر.
ما يصال به: ما يفتخر به. أمر: كثير يزداد.
المعذل: الملوم. حصر: ضيق.
ليني: أي إنهم ملوك ليست ثيابهم بغلاظ جافة.

(١) شرح شعر زهير، ص ٢٥٨.
مرج: اختلط، لم يكن لهم من يقيمهم على طاعة. الدين: الطاعة.
الحارك: موضع المنسج من البعير. محبوك: مفتول. الثبج: الوسط، أي الظهر.
ونت: فترت. معج: مر مراً سريعاً.
سلس: أي سلس القياد. المرسن: موضع الرسن من الأنف.
الممحوص: القليل اللحم. شنج الأنساء: منقبض فيه توتير، والأنساء: جمع نسا، وهو عرق من منشق ما بين الفخذين فيستمر في الرجل، وهما نسيان إثنان، =

٣ ــ «قال حماد: وفد رجل من بني عبس، يقال له شقيق، على النعمان بن المنذر، أو بعض الملوك، فأعطاه وحباه وأكرمه. وإنه لكذلك إذ طعن في جنازته، فواده، الملك وبعث بما كان معه إلى أهله. فقال في ذلك زهير:

لَقَدْ أَوْرَثَ الْعَبْسِيُّ مَجْداً مُؤَثَّلاً ... وَمَحْمَدَةً مِنْ بَاقِيَاتِ الْمَحَامِدِ

حِبَاءُ شَقِيقٍ عِنْدَ أَحْجَارِ قَبْرِهِ ... وَمَا كَانَ يُحْبَى قَبْلَهُ قَبْرُ وَافِدِ

أَتَى قَوْمَهُ مِنْهُ حِبَاءٌ وَكُسْوَةٌ ... وَرُبَّ امْرِىءٍ يَسْعَى لآخَرَ قَاعِدِ

حِيَاضُ الْمَنَايَا لَيْسَ عَنْهَا مُزَحْزَحٌ ... فَمُنْتَظِرٌ ظِمْئاً كَآخَرَ وَارِدِ

خَبَالٌ وَسُقْمٌ مُضْنِىءٌ وَمَنِيَّةٌ ... وَمَا غَائِبٌ إِلاَّ كَآخَرَ شَاهِدِ

فَلَوْ كَانَ حَيٌّ نَاجِياً لَوَجَدْتَهُ ... مِنَ الْمَوْتِ فِي أَحْرَاسِهِ رَبَّ مَارِدِ

أَوِ الْحَضْرِ لَمْ يَمْنَعْ مِنَ الْمَوْتِ رَبَّهُ ... وَقَدْ كَانَ ذَا مَالٍ طَرِيفٍ وَتَالِدِ

أَلَمْ تَرَ أَنَّ النَّاسَ تَخْلُدُ بَعْدَهُمْ ... أَحَادِيثُهُمْ وَالْمَرْءُ لَيْسَ بِخَالِدِ»(١)

= وإذا كان في نسا الفرس بعض التشنج والتقبض كان أنعت، وهو في القوائم الصافن. الفحج: تباعد ما بين الرجلين.

وانظر القصيدتين اللتين جاءتا عنه لزهير؛ الأولى:

لِمَنِ الدِّيَارُ غَشِيتَهَا بِالْفَدْفَدِ ... كَالْوَحْيِ فِي حَجَرِ الْمَسِيلِ الْمُخْلِدِ

(ص ص ١٩٤ ـ ٢٠٠).

التي يبدو أن الأصمعي رواها أيضاً، والثانية:

أَعَنْ كُلِّ أَخْدَانٍ وَإِلْفٍ وَلَذَّةٍ ... سَلَوْتَ وَمَا تَسْلُو عَنِ ابْنَةِ مُدْلِجِ

التي يبدو أن أبا عمرو الشيباني رواها كذلك.

شرح شعر زهير، ص ص ٢٣٦ ـ ٢٣٨.

(١) شرح شعر زهير، ص ص ٢٤١ ـ ٢٤٢.

وجاء فيه: وقال صعوداء: «ويقال: القصيدة للنابغة... وهذا غلط من الرواة».

وداه: أعطى ديته.

المؤثل: الراسخ الزاكي.

الحباء: العطاء.

=

ب ــ أعشى همدان:

عن أبي عبيدة والأصمعي قال ـ وافق روايتهم الهيثمُ بن عدي عن حماد الراوية ـ قال:

كان أعشى همدان، أبو المصبّح، ممن أغزاه الحجاج بلاد الديلم ونواحي دستَبى، فأسر، فلم يزل أسيراً في أيدي الديلم مدة، ثم إن بنتا للعلج الذي أسره هويته، وصارت إليه ليلاً، فمكنته من نفسها، فأصبح وقد واقعها ثماني مرات، فقالت له الديلمية: يا معشر المسلمين، أهكذا تفعلون بنسائكم، فقال لها: هكذا نفعل كلنا، فقالت له: . . . . ، أفرأيت إن خلصتك، أتصطفيني لنفسك؟ فقال لها: نعم، وعاهدها، فلما كان الليل، حلت قيوده، وأخذت به طرقاً تعرفها، حتى خلصته، وهربت معه. فقال شاعر من أسرى المسلمين:

فمن كان يفديه من الأسر مالها فهمدان تفديها الغداة أيورها»[1]

جـ ــ كثير عزة:

«حماد الراوية قال: قال لي كثير عزة: ألا أخبركما عما دعاني إلى ترك الشعر؟ قلت: نعم، قال: شخصت أنا والأحوص[2] ونصيب (ثم ذكر قصة طويلة جرت معهم والخليفة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، واستشهد فيها بأشعار لكثير والأحوص).

= الضمء: حبس الإبل عن الماء إلى غاية الورود.
الأحراس: جمع حرس. رب مارد: قصر باليمن.
الحضر: مدينة قديمة بإزاء تكريت. الطريف: المحدث.
التالد: القديم الموروث.
الأحاديث: جمع أحدوثة، وهي ما يتحدث به الناس من الأخبار.

(١) الأغاني، جـ ٦، ص ٣٥.

(٢) ابن عبد ربه، العقد، الأغاني، جـ ٢، ص ص ٨٦ ـ ٩١.

قال حماد الراوية: أتيت مكة، فجلست في حلقة عمر بن أبي ربيعة، فتذاكروا من العذريين، فقال عمر بن أبي ربيعة: «كان لي صديق من عذرة...»[1].

د ـ عمر بن عبد العزيز (رضي الله عنه):

«مما أثبته حماد الراوية من شعره (أي عمر بن عبد العزيز).

إِنَّهُ الْفُؤَادَ عَنِ الصِّبَا ... وَعَنِ انْقِيَادِكَ لِلْهَوَى
فَلَعَمْرُ رَبِّكَ إِنَّ فِي ... شَيْبِ الْمَفَارِقِ وَالْجَلَا
لَكَ وَاعِظاً لَوْ كُنْتَ تَتَّعِـ ... ـظُ اتِّعَاظَ ذَوِي النُّهَى
حَتَّى مَتَى لَا تَرْعَوِي ... وَإِلَى مَتَى؟ وَإِلَى مَتَى؟
بَلِيَ الشَّبَابُ وَأَنْتَ إِنْ ... عُمِّرْتَ رَهْنٌ لِلْبِلَى
وَكَفَى بِذٰلِكَ زَاجِراً ... لِلْمَرْءِ عَنْ غَيٍّ كَفَى[2]

هـ ـ امرؤ القيس:

«قال امرؤ القيس في رواية حماد:

تَطَاوَلَ اللَّيْلُ عَلَيْنَا دَمُّونْ
دَمُّونْ إِنَّا مَعْشَرٌ يَمَانُونْ
وَإِنَّنَا لِأَهْلِنَا مُحِبُّونْ»[3]

---

(١) الأغاني، جـ ١١، ص ١٥٧. وانظر بقية القصة ص ١٥٨ ـ ١٥٩.

(٢) ابن رشيق، العمدة، جـ ١، ص ٣٨.

(٣) البكري، معجم ما استعجم، جـ ٢، ص ٥٥٧.
وجاء في البغدادي الخزانة، جـ ٣، ص ٤٥٩.
«كان الفرزدق أروى الناس لأخبار امرىء القيس وأشعاره، ذلك لأن امرأ القيس كان مسترضعاً في بني دارم، فأقام فيهم وهم رهط الفرزدق».

و ــ عروة بن زيد الخيل:

«قال حماد الراوية كان عروة بن زيد الخيل فارساً شجاعاً، وشهد القادسية، فحسن بلاؤه وهو القائل:

بَـرَزْتُ لأَهْـلِ الْقَـادِسِيَّـةِ مُعْلِمـاً ... وَمَـا كُـلُّ مَـنْ يَغْشَـى الْكَـرِيهَـةَ يُعْلَـمُ

وَيَـوْمـاً بِـأَكْنَـافِ النُّخَيْلَـةِ قَبْلَهَـا ... شَهِـدْتُ فَلَـمْ أَبْـرَحْ أُدَمَّـى وَأُكْلَـمُ

وَأَرْدَيْـتُ مِنْهُـمْ فَـارِساً بَعْـدَ فَـارِسٍ ... وَمَـا كُـلُّ مَـنْ يَلْقَـى الْفَـوَارِسَ يَسْلَـمُ

وَأَيْقَنْـتُ يَـوْمَ الـدَّيْلَمِيِّـنَ أَنَّنِـي ... مَتَى يَنْصَرِفْ وَجْهِي عَنِ الْقَوْمِ يُهْزَمُوا

فَمَـا رُمْـتُ حَتَّـى مَزَّقُـوا بِـرِمَاحِهِـمْ ... قِبَـائِـي وَحَتَّـى بَـلَّ أَقْمُصِـيَ الـدَّمُ

مُحَـافَظَـةً إِنِّـي امْـرُوءٌ ذُو حَفِيظَـةٍ ... إِذَا لَـمْ أَجِـدْ مُسْتَـأْخَـراً أَتَقَـدَّمُ

قال: وشهد مع علي رضي الله عنه صفين، فأبلي جهاراً بين يديه»[1].

ز ــ ةأنشد حماد الراوية لخالد بن يزيد بن معاوية:

قَصْـرُ الجَـدِيـدِ بَلـىً وَقَصْـ ... ـرُ العَيْـشِ فِـي الـدُّنْيَـا انْقِطَـاعَـهْ

مَـنْ نَـالَ فِـي الـدُّنْيَـا مَتَـا ... عـاً ثُـمَّ طَـالَ بِـهِ مَتَـاعَـهْ؟

أَمْ أَيُّ مُنْتَفِـعٍ بِشَـيْ ... ءٍ ثُـمَّ دَامَ بِـهِ انْتِفَـاعَـهْ؟

أَمْ أَيُّ شِعْـبٍ ذِي التِئَـا ... مٍ لَـمْ يُشَتِّتْـهُ انْصِـدَاعَـهْ؟

وَالأَوَّلُ المَـاضِـي الَّـذِي ... حَـقٌّ عَلَـى البَـاقِـي اتِّبَـاعَـهْ

(١) ابن الشجري، الحماسة الشجرية، ص ص ٧٤ ـ ٧٥.

معلماً: الذي يعلم فرسه، أي يعلق عليه صوفاً ملوناً في الحرب، ليعلم الناس مكانه.

النخيلة: موضع بالبادية.

أرديت: قتلت.

قبائي: القباء مفرد أقبية، وهو

أقمصي: جمع قميص وهو الذي يلبس، وقد يعنى به الدرع فيؤنث.

قَــــدْ قَـــــالَ فِــــي أَمْثَـــــالِـــــهِ يَكْفِيــكَ مِــنْ شَــرٍّ سَمَــــاعَــــهْ[1]

المناقشة:

رأينا فيما سبق، مما يوثق رواية حماد، كيف كان أولئك الذين يطعنون في روايته، من أمثال المفضل الضبي، والأصمعي... إلخ، يروون عنه، أو يشتركون معه في روايته بعض الشعر، وكيف روى مشافهة عن رواة معتمدين أقدم منه، مثل سماك بن عبيد راوية الأعشى، وكيف أن رواة أعراباً مثل أبي حنش الهذلي، يؤيد ما يرويه حماد، بل إن رجالاً مسؤولين ولهم الشهرة، كانوا يستنشدونه مطمئنين إلى روايته.

ولدينا هنا، على سبيل المثال نماذج من الشعر الذي تفرد حماد بروايته. وإنه لمن التسرع أن نرفض هذه النماذج على أساس أنها من صنعة حماد، فإن قصيدة زهير:

لمــن الــديــار غشيتهــا بــالفــدفــد كالوحي في حجر المسيل المخلد

و:

أعــن كــل أخــدان وإلــف ولــذة سلـوت ومـا تسلـو عـن ابنـة مـدلـج

هما مما انفرد بهما حماد أيضاً، وإن كان هنا ما يوحي بأن الأصمعي روى الأولى، وأن أبا عمرو الشيباني روى الثانية. ويدل النقد الفني لهاتين القصيدتين على أنهما من الشعر الذي اختص بقول مثله زهير.

وهكذا، فإن النقد الفني نفسه يدل على أن الأبيات الجيمية، والدالية، هي من الأبيات التي تتسق فنياً مع أسلوب زهير وطريقته، وإذا كنا نلاحظ أن الأبيات الرائية تخرج نوعاً ما عن هذين المنحيين، فإن هذا الخروج، يجعلنا نذهب إلى ما لاحظناه من ظاهرة التداخل والاختلاط،

---

(١) البلاذري: أنساب الأشراف، جـ ٤، ص ٧١.

التي تنفي تهمة صناعة الشعر عنه - لأنه لم يصنع أياً من أبيات القصائد الماضية، لاختلاف الطريقة والنهج - وتنقلنا إلى أن هذا العدد المحدود، والمحدود جداً، مما انفرد حماد بروايته، إنما هو من موثقات روايته، فقد اشترك معه في رواية الكم الكبير من الشعر القديم (الجاهلي والإسلامي والأموي) رواة آخرون، بعضهم كان قريب العهد بالشاعر (الأعشى، زيد الخيل، مثلاً).

وإن اختلاف الأساليب في رواية القصائد، لهو الحجة الدامغة على أن كل قصيدة إنما تمثل صاحبها. وما اختلاف هذه الأبيات الرائية عما نسب إلى حماد من شعر قاله، أو «صحح» له قوله، إلا أحد جوانب تلك الحجة التي لا تدع حماداً أشخاصاً، بل شخصاً واحداً، إما راوية للشعر يروي لشخصيات متميزة، وإما شاعراً.

الفصل الثالث

نماذج من روايات حماد للقصص والأخبار

١ ـ «ذكر حماد عن سعيد بن عمرو بن سعيد، عمِّه:

أنه بلغه أنه كان يقول ـ وكان هجا أهل بيت من كلب من بني عُلَيم بن جناب، وكان بلغه عنهم شيء كرهه من وراءَ وراءَ. وكان رجل من بني عبد الله بن غطفان أتى بني عليم فنزل بهم، فأكرموه وأحسنوا جواره وواسوه. وكان رجلاً مولعاً بالقمار، فنهوه عنه، فأبى إلا المقامرة، فقمر مرة فردوا عليه، ثم قمر أخرى فردوا عليه، ثم قمر الثالثة فلم يردوا عليه. فرحل من عندهم وشكا ما صنع به إلى زهير، والعرب إذ ذاك يتقون الشعراء اتقاء شديداً، فقال يهجو عليماً، وقال: «ما خرجت في ليلة ظلماء إلا خشيت أن يصيبني الله بعقوبة، لهجائي قوماً ظلمتهم». فقال:

عفا من آل فاطمة الجواء فيمن فالقوادم فالحساء»[1]

---

(١) شرح شعر زهير، ص ٥٢، وانظر، ص ٥٢.
وجاء في الحاشية زاد الأعلم: «فزعم أنهم أغاروا عليه... ويقال إن ذلك الرجل لما خلع من ماله، رجا أن يحوز الخَصْلَ له، فرهن امرأته وابنته، فكان الفوز عليه».
الجواء: أرض.

٢ ــ «قــال (زهير) يمدح حصن بن حذيفة بن بدر بن عمرو الفزاري:

قال حماد: وكان عمرو بن هند حين قتل حذيفة وكانت الحرب بين غطفان، طمع في حصن وفي غطفان أن يصيب بهما حاجته، وكان حصن والحليفان لم يدينوا لملك قط. فأرسل إلى حصن: إني ممدك بخيل، فأدخل في مملكتي، واجعل لك ناحية من الأرض. فأرسل إليه حصن: ما كنت قَطُّ أفرغ لحربك مني الآن، ولا أكثر عدة. فإن كنت لا يكفيك ما جرب أبوك، فدونك لا تعتلل، فإنه ليس لي حصن إلا السيوف والرماح، وإنا لك بالفضاء. وأقبل حصن بالحليفين، أسد وغطفان، حتى نزل زبالة، فصد عنه عمرو بن هند وكره قتاله. فقال: زهير في ذلك:

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله وعـري أفـراس الصبا ورواحلـه»[1]

٣ ــ «قال حماد: وقال زهير وهو يذكر النعمان بن المنذر حين طلبه كسرى ليقتله، فخرج فأتى طيئاً، وكانت ابنة أوس بن حارثة بن لأم الطائية عنده. فأتاهم فسألهم أن يدخلوه جبلهم ويؤووه، فأبوا ذلك عليه. وكانت له في بني عبس يد، لأن مروان بن زنباع كان أُسر فأحسن في أمره، وكلم فيه عمرو بن هند عمه وتشفع له. على أن عوف بن محلم قد كان أمنه يومئذ وجاء به معه حتى وضع عوف يد نفسِه في يد عمرو بن هند، ثم وضع يد مروان على يده، ويومئذ قال عمرو بن هند: «لا حر بوادي عوف»، فحمله النعمان وكساه، فكانت بنو عبس تشكر ذلك النعمان. فلما هرب من كسرى، ولم تدخله طيىء جبلها لقيته بنو رواحة من عبس، فقالوا له: أقم فينا، فإنا نمنعك مما نمنع منه أنفسنا. فأثنى عليهم خيراً،

---

(١) شرح شعر زهير، ص ١٠١، وانظر بقية القصيدة، ص ١٠١.
أقصر: كف. الرواحل: الإبل. عري أفراس الصبا: ترك الصبا، وترك الركوب فيه.

وقال: لا طاقة لكم بكسرى، فقال زهير في ذلك...»[1].

٤ ــ «قال حماد: ذكروا أن بشامة بن الغدير أخو أم زهير بن أبي سلمى، وكان أشعر غطفان في زمانه، وكان يعجب زهيراً شعره، وكان رجلاً مقعداً، ولم يكن له ولد، وكان كثير المال ومن أحزم الناس رأياً. فكانت غطفان إذا أرادوا أن يغيروا أتوه، فأمروه واستشاروه فصدروا عن رأيه. فإذا انصرفوا قسموا له مثل ما يقسمون لأفضلهم. فمن أجل ذلك كثر ماله.

وكان أشعر غطفان في زمانه، فلما حضره الموت جعل يقسم ماله في أهل بيته وبني أخوته، فأتاه زهير، فقال: يا خالاه، لو قسمت لي من مالك. قال: قد، والله يابن أخت، قسمت لك أفضل ذلك وأجزله، قال: ما هو؟ قال: شعري ورثتنيه، وكان زهير قبيل ذلك قد قال الشعر، وكان أول ما قال. فقال له زهير: الشعر شيء ما قلته. فكيف تعتد به علي، قال: فمن أين جئت بهذا الشعر؟ لعلك ترى أنك جئت به من مزينة. قد علمت العرب أن حصاتها، وعين مائها في الشعر هذا الحي من غطفان.

ثم إن زهيراً تزوج امرأة من بني عبد الله بن غطفان. يقال لها كبشة بنت عمار بن عدي بن سحيم، وتكنى أم كعب، فهي أم ولده، ثم لم يزل فيهم، فلم يزل هو وأهل بيته في بني عبد الله بن غطفان حلفاء لهم. ومنزلهم بالحاجر إلى اليوم، كانوا ينزلونه في الجاهلية»[2].

٥ ــ قال حماد لم أدرك أحداً من أهل العلم من قريش يفضل على زهير أحداً من الناس في الشعر. وكان زهير يقول: ما أنا بأشعر من

(١) المصدر نفسه، ص ٢٠٦. وجاء فيه وزعم بعض الناس أنها لصرمة بن أبي أنس الأنصاري، وانظر، ص ص ٢٠٧ ـ ٢١٢، وجاء في الحاشية: «**وقال الأصمعي: وليست لزهير، وقال أبو رياش: هي لأنس بن صرمة الأنصاري**».
(٢) المصدر نفسه، ص ٢٣٩.

النابغة. والعرب يفضل كل قوم شاعرهم، غير أن قريشاً قد اتفقت على تفضيل زهير والنابغة»[1].

٦ ــ «قال حماد: أغار الحارث بن ورقاء الأسدي ثم الصيداوي، بأَحَد بني الصيداء بن عمرو بن قعين، على طائفة من بني سليم بن منصور، فأصاب سبياً ومالاً ثم انصرف راجعاً، فوجد غلاماً لزهير حبشياً يقال له يسار في إبل له، وهو آمن في ناحية أرضهم، فسأله: لمن أنت، فقال: لزهير بن أبي سلمى، فاستاقه، وهو يحرم ذلك عليه لحلف أسد وغطفان. فبلغ ذلك زهيراً، فأرسل إليه أن يرده فأبى، فقال في ذلك زهير:

بان الخليط ولم يأووا لمن تركوا ... وزودوك اشتياقاً أية سلكوا

فلما أنشد الحارث بن ورقاء هذا الشعر بعث بالغلام، فلامه قومه وقالوا:

اقتله ولا ترسل به إليه. فأبى عليهم. فقال في ذلك زهير:

ويوم تلافيت الصبا أن يفوتني ... برحب الفَروج ذي محال موثق»[2]

٧ ــ «عن حماد الراوية، قال:

حدثني معقل بن أبي بكر الهذلي الراوية، وكان قد بلغ مئة سنة، قال: حدثني أبي، قال: شهدت يوم جبلة يوم أقبل ابنا الجون، معاوية

---

(١) شرح شعر زهير، ص ص ٢٣٩ ـ ٢٤٠.

(٢) شرح شعر زهير، ص ٢٤٠.

وانظر القصيدة الكافية في المصدر نفسه، ص ص ١٢٧ ـ ١٣٨.

وهي التي يقول عنها الأصمعي: «**ليس للعرب قصيدة كافية أجود من هذه**».

ديوان زهير، ص ١٢٧.

والقصيدة القافية في المصدر نفسه، ص ص ١٧٦ ـ ١٨٦. ورواها كذلك أبو عمرو الشيباني والأصمعي.

قوله: «بأحد بني الصيداء..»، لعله: «أحد بني..» دون (باء)، ولكن المحقق أثبت الباء.

وحسان الكنديان، هذا في تميم، وهذا في قيس، وكان مُعَقِّر بن حمار البارقي في بني تميم، فقال هذا الشعر، فقلت لأبي: كم كانت خيل الحيّين مع ما يكثِّر معقر منها؟ قال: كان مع الفريقين نحو من أربعين فارساً»[1].

٨ ــ لما كثر أولاد معد بن عدنان... خرجوا يطلبون المتسع والريف.... وكان الذين أقبلوا... الحيقار بن الحيق... بن قنص بن معد بن عدنان، في قنص كلها... كان أول من طلع منهم الحيقار بن الحيق في جماعة قومه وأخلاط من الناس، فوجدوا الأرمانيين، وهم الذين بأرض بابل وما يليها إلى ناحية الموصل يقاتل الأردوانيين، وهم ملوك الطوائف، وهم فيما بين نفر، وهي قرية من سواد العراق إلى الأبله، وأطراف البادية، فلم تدن لهم، فدفعوهم عن بلادهم.

... وكان يقال لعاد إرم، فلما هلكت قيل لثمود إرم، ثم سموا الأرمانيين، وهم بقايا إرم، وهم نبط السواد...

... فارتفعوا عن سواد العراق، وصاروا أشلاء بعد في عرب الأنبار وعرب الحيرة، فهم أشلاء قنص بن معد، وإليهم ينسب عمرو بن عدي.. بن لخم.

وهذا قول مضر، وحماد الراوية، وهو باطل...»[2].

---

(١) ابن الجراح، من اسمه عمرو بن الشعراء، ص ٧١.

(٢) الطبري، تاريخ...، جـ١، ص ص ٦٠٩ ـ ٦١١. مضر: أي نسابة مضر. وقد أمدني أستاذنا المغفور له محمد صديق العوضي بالتالي:

«وروى العوفي (نور الدين بن محمد بن محمد العوفي البخاري ت ٦٣٥ هـ) في كتابه لباب الألباب (بالفارسية) في الجزء الأول أن لبهرام جور (ت ٤٣٩ م) شعر عربي رائع وأنه رأى ديوان بهرام في مكتبة سربَل بإزارجه تجاري وينقل العوفي من شعر بهرام.

يرومون تزويجي من الكفو طُلَّبا ... وما لي من جنس الملوك عديل =

٩ ــ «عن حماد الراوية قال:

دخل جرير والفرزدق على يزيد بن عبد الملك، وعنده بنية له يشمها، فقال جرير: ما هذه عندك يا أمير المؤمنين؟ قال: بنية لي، قال: بارك الله لأمير المؤمنين فيها، فقال الفرزدق: إن يكن دارم يضرب فيها، فهي أكرم العرب، ثم أقبل يزيد على جرير، فقال: ما لك والفرزدق؟ قال: إنه يظلمني ويبغي علي، فقال الفرزدق: وجدت آبائي يظلمون آباءه، فسرت فيه بسيرتهم، قال جرير: أما والله لئن شئت لتردن الكبائر إلى أسافلها اليوم، فقال الفرزدق: أما بك يا حمار بني كليب فلا، ولكن إن شاء صاحب السرير، فلا والله ما لي كفء غيره، فجعل يزيد يضحك»[1].

١٠ ــ «أمر النعمان فنسخت له أشعار العرب في الطنوج، قال: وهي الكراريس، ثم دفنها في قصرة الأبيض، فلما كان المختار بن أبي عبيد، قيل له: إن تحت القصر كنزاً، فاحتفره، فأخرج تلك الأشعار، فمن ثم أهل الكوفة، أعلم بالشعر من أهل البصرة»[2].

١١ ــ «عن حماد الراوية قال: كانت العرب تعرض أشعارها على قريش، فما قبلوا منه كان مقبولاً، وماردوا منه كان مردوداً، فقدم عليهم

= أرى مثلي كالمحال وجوده ... وليس إلى نيل المحال سبيل

و:

فقلت له لما نظرت جنوده ... كأنك لم تسمع بصولات بهرام

فإني لحامي ملك فارس كله ... وما خير ملك لا يكون له حامي

وقد روى حماد بن أبي ليلى شعراً فيه تفاخر وتكاثر بأهل الحيرة لبهرام بالعربية. المعجم في معايير أشعار العجم لشمر بن قيس الرازي».

(١) الأغاني، جـ ٢١، ص ص ٣١٠ ـ ٣١١.

(٢) ابن جني، الخصائص، جـ ١، ص ٣٩٢.

وقال شوقي ضيف، العصر الجاهلي، ص ١٤١: «نستطيع أن ندخل في هذا الباب باب الأساطير ما يروى عن حماد الراوية من أن النعمان...».

علقمة بن عبدة، فأنشدهم قصيدته التي أولها:

هل ما علمت وما استودعت مكتوم   أم حبلهـا إذ تـأتـك اليـوم مصـروم

فقالوا: هذا سمط الدهر، ثم عاد إليهم في العام القابل، فأنشدهم قوله:

طحا بك قلب في الحسان طروب   بعيـد الشبـاب عصـر حـان مشيـب

فقالوا: هذان سمطاً الدهر»[1].

١٢ ــ «كان حماد الراوية يقول: ثقيف من ولد أبي رغال، ورغال من بقية ثمود، وكان أخذ عنزاً ترضع صبياً يتيماً فهلك الصبي، ولم يرم مكانه حتى مات فرجم قبره»[2].

١٣ ــ «الأحابيش. . .

قال حماد الراوية: إنما سموا بذلك لاجتماعهم»[3].

١٤ ــ «ذكر حماد الراوية: أن الحجاج سهر ليلة بالكوفة. فقال لحرسه: ائتني بمحدث من المسجد، فأتاه بسبرة بن الجعد، فدخل وسلم بلسان ذلق، وقلب شديد، فقال له الحجاج: ممن الرجل؟ قال: من بني شيبان، قال: ما اسمك؟ قال سبرة بن الجعد، قال: يا سبرة، قرأت القرآن؟ قال: قد جمعته في صدري، فإن عملت به فقد حفظته، وإن خالفته فقد ضيعته، فاتخذه الحجاج سميراً، فما كان يتطلب شيئاً من الحديث إلا وجد عنده منه. وكان يرى رأي الخوارج، وكان من أصحاب قطري بن الفجاءة المزني التميمي. . . وكان قطري يومئذ يحارب المهلب، فبلغ قطري ما كان من سبرة مع الحجاج، فكتب إليه من جملة قصيدة:

---

(١) السيوطي، المزهر، جـ ٢، ص ٤٧٤.

(٢) البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ١، ص ٢٦.

(٣) ابن رشيق، العمدة، جـ ٢، ص ١٩٤.

لشتان ما بين ابن جعد وبيننا

فلما قرأ كتابه بكى وركب فرسه وأخذ سلاحه، ولحق بقطري، وطلبه الحجاج وَلم يقدر عليه، ولم يَرُع الحجاج إلا وكتاب فيه شعر قطري الذي كان كتب به إليه وفي أسفل الكتاب أبيات من جملتها:

فمن مبلغ الحجاج أن سميره قلى كل دين غير دين الخوارج

فطرح الكتاب إلى عنبسة بن سعيد، وقال: هذا من سميري الشيباني، وهو خارجي ولا نعلم به»[1].

المناقشة:

نستدل مما مر على أن حماداً كان يجمع بين رواية الخبر الشعبي والتاريخي. فالرواية عن أبي رغال من ثقيف، رواية دخلت في مجال الأحاديث الشعبية التي ترددت على الألسن وارتبطت بحادثة الفيل، وسياق الخبر الذي يحكيه حماد لا يخرج عما هو معروف حول هذه الشخصية، ولعل هذا يميل بالظن إلى أن حماداً ناقل للخبر وليس صانعه أو مفسره.

ويؤكد التزام حماد بالنص التاريخي تفسيره لمعنى «الأحابيش» من قريش وهو تفسير معروف متردد في كتب اللغة، فهو إذن يتفق مع الإجماع العام ولم يخرج عنه، وهذا الاتفاق يضيّق من دائرة إعمال الخيال لديه في تفسير المواد اللغوية، وإن كان يبين عدم خروجه على النهج العام.

وتأتي قصة الحجاج مع سبرة بن الجعد دليلاً قوياً على دقته في رواية الخبر التاريخي. فليس بين الألفاظ أية فجوات يمكن أن تظهر ميولاً ذاتية لديه، أو تدخلاً من أجل تحريف النص. وهو بروايته هذه يساير ما عرف عن علاقة الحجاج بالخوارج، وموقف الخوارج المذهبي ثم تعبيرهم نثراً

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ٢، ص ص ٣٦ ـ ٣٧.

وشعراً عن معتقداتهم، ويكشف عن وسائل اتصالهم بعضهم ببعض.

أما بقية الأخبار، فهي أخبار تجمع بين الخبر والحدث، وهي ليست غريبة عن مجال الرواية التي تحاول تفسير ذلك الخبر أو الحدث، ومهما بلغت درجة صحتها، فإن المرء يتوقع منها الحد الأدنى من اليقين، ولعل في عدم معارضتها أو الطعن فيها، ما يجعلها مادة إخبارية خاصة أنها تدور حول قصائد معروفة النسبة لزهير.

أما خبر كتابة النعمان أشعار العرب، فإن رأي شوقي ضيف فيه، قد يكون حجة على أنه، إما خبر داخل الرواية الشعبية، أو الرواية الشفوية، أو هو بدافع العصبية للإقليم.

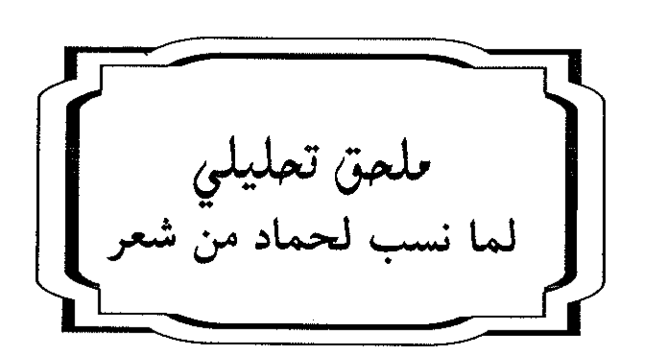
ويبقى بعد ذلك الخبر الذي أبطله الطبري. والواقع أن فعل الطبري هذا، هو نفسه مثار استغراب، فهو إذ يرجح رواية على رواية، يستند في ذلك إلى مرويات شفهية، وليست نقشية أو مكتوبة. وسواء جاءت هذه الرواية عن طريق رواة مضر (مع ملاحظة الجمع في رواة)، أو عن طريق حماد، أو عن سواهم، فإن الخبر مما يحتمل الصدق والكذب. أما فيما يخص حماداً، فإن هذا الخبر لا يقدح في أمانته، لأنه إنما يروي ما تلقاه من الرواة، أي رواة مضر، فإذا كان الطبري يرفضه، فإن آخرين يقبلونه، لا على أنه حقيقة علمية، وإنما على أنه مرويات شفهية عنده وعند غيره. ولكن الأهم من كل ذلك أن حماداً الذي طعن في روايته كثيراً، يرتفع جداً عن مستوى الرواة الشعبيين، وعلى سبيل المثال محمد بن إسحاق في بعض نقولاته. ونقطة ذات قيمة هنا، وهي أن حماداً لم يرو شعراً شعبياً كالذي يتداوله القصاصون. فهو من الناحية الأدبية راوية للشعر التقليدي، وليس للشعر المتعلق بالخرافات والأساطير والقصص الخرافي. أما ما ينسب إليه من رواية شعر لبهرام، فإن المصادر العربية لم تذكر ذلك، وإنما ذكرته

المصادر الفارسية، وهذا يعني احتياطنا الشديد في كل ما يضاف إلى حماد، خاصة أن كتب التاريخ العربية ذكرت شعراً لبهرام ولم تعزه لرواية حماد.

كما تجدر الإشارة إلى أنه سواء في روايته للخبر الشعبي، أو روايته للخبر الأدبي، إنما يعتمد في ذلك على مصادر عربية من كلا الجانبين، ففي الخبر الشعبي وجدنا رواة مضر، وفي الخبر الأدبي، وجدناه يقول: «**لم أدرك من أهل العلم من قريش. . .**»، وذلك فيما يتعلق بالشعر خاصة. وهذا القول هو سند من الأسانيد التي انقطعت في رواية كثير من الأشعار، أي إن حماداً كان يتلقى الشعر ممن سبقه، ومن مصادر موثقة.

وتجدر ملاحظة طالما ألححنا عليها فيما يخص تداخل الأسماء فشارح الديوان يقول:

«ذكر حماد عن سعيد بن عمرو بن سعيد، عمه». وهذا اسم لا يتطابق مع سلسلة نسبه التي مرت بنا. فهل حماد هذا غير حماد الراوية؟



١ ـ قال حماد الراوية، وذكر المرميّين بالخنّق من القبائل وأصحاب القبائل والنّحل، وكيف يصنع الخُنّاق، وسمى بعضهم، فقال:

إِذَا سِرْتَ فِي عِجْلٍ فَسِرْ فِي صحَابَةٍ ... وَكِنْدَةَ فَاحْذَرْهَا حِذَارَكَ لِلْخَسْفِ

وَفِي شِيعَةِ الأَعْمَى زِيَارٌ وَغيلَةٌ ... وَقَشْبٌ وَإِعْمَالٌ لِجَنْدَلَةِ الْقَذْفِ

وَكُلُّهُمُ شَرٌّ عَلَى أَنَّ رَأْسَهُمْ ... حميدَةُ وَالْمَيْلاَءُ حَاضِنَةُ الْكَسْفِ

مَتَى كُنْتَ فِي حَيَّيْ بَجِيلَةَ فَاسْتَمِعْ ... فَإِنَّ لَهُمْ قَصْفاً يَدُلُّ عَلَى حَتْفِ

إِذَا اعْتَزَمُوا يَوْماً عَلَى خَنْقِ زَائِرٍ ... تَدَاعَوْا عَلَيْهِ بِالنُّبَاحِ وَبِالْعَزْفِ[1]

---

(١) الجاحظ، الحيوان، جـ ٢، ص ٢٦٦. وفي جـ ٦، ص ٣٨٩، المرميون بالخنق من القبائل وأصحاب النحل والتأويلات، هم الذين ذكرهم أعشى همدان في قوله: «وأورد الأبيات الخمسة السابقة».
الأعمى: من موالي بني عجل، وهو المغيرة بن سعيد صاحب المغيرية. وهم ممن يمارسون الخنق كالمنصورية. الزيار: شناق يشد به البيطار جحفلة الدابة.
القشب: خلط السم بالطعام.
الجندلة: واحدة الجندل، وهي الحجارة.
حميدة: من أصحاب ليلى الناعطية، ولها رياسة في الغالية. الكسف: أبو منصور صاحب المنصورية. الميلاء: حاضنة الكسف. قوله: فإن لهم قصفاً...: أي أنهم كانوا يدقون الدفوف والطبول ويحدثون ضروباً من الجلبة، ليستروا أمرهم».

المناقشة :

١ ـ تعكس الأبيات طبيعة الشعر في العصر العباسي، فالقائل يتحدث عن أوضاع اجتماعية يعايشها، وهو لم يحصر حديثه عن قبيلة معينة، بل عدد أنماطاً معينة من المجتمع.

٢ ـ تتناول الأبيات تشخيص ظاهرة اجتماعية عرفت في العصر العباسي الأول مما له مساس بالمسائل الشخصية وتصادم المبادىء والأفكار نتيجة لظروف طائفية وسياسية.

٣ ـ تدور حول أفكار محددة مشدودة إلى بعضها، ثم تفرغ منها، وكأنها قد أدت غرضها.

٤ ـ إن صياغتها تعكس مستوى شاعرياً قادراً على التحكم في التعبير. ولذلك فإن نسبة هذه الأبيات إلى أعشى همدان، هي الصحيحة، أما نسبتها إلى حماد فهي عن طريق التمثل والاستشهاد.

٢ ـ

عَفَتْ دَارَ سَلْمَى بِمُفْضَى الرَّغَامِ ... رِيَاحٌ تَعَاقَبُهَا كُلَّ عَامِ

خِلَافَ الْحُلُولِ بِتِلْكَ الطُّلُولِ ... وَسَحْبِ الذُّيُولِ بِذَاكَ الْمَقَامِ

وَأُنْسِ الدِّيَارِ وَقُرْبِ الجِوَارِ ... وَطِيبِ الْمَزَارِ وَرَدِّ السَّلَامِ

وَدَهْرٍ غَرِيرٍ وَعَيْشِ السُّرُورِ ... وَنَأْيِ الْغَيُورِ وَحُسْنِ الْكَلَامِ[1]

المناقشة :

يلاحظ على المقطوعة السابقة ما يأتي:

١ ـ التقسيم الداخلي الناتج عن التقطيع والتقفية الداخلية.

---

(١) الأغاني، جـ٥، ص ١٩٢ وقال بعده: «الشعر لحماد الراوية، والغناء لابن جامع... وهذا الصوت عجيب الصنعة، كثير النغم، محكم العمل».

٢ ــ انحصار الأبيات في فكرة محددة اضطرته إلى تحديد الأبيات نفسها، وقد أدى التركيز على الفكرة إلى جمع المعاني في بوتقة واحدة.

٣ ــ لم يكن نَفَسه نفساً طويلاً في قول الشعر.

٤ ــ ضعف الخيال مما أعاق الاسترسال في الموضوعات الشعرية.

٥ ــ ضيق المعجم اللغوي لديه، مما يعكس طبيعة المقدرة الشعرية في استعمال ألفاظ اللغة.

٦ ــ حصر ثقافته في فكرة الطلل فقط، فليست لديه القدرة على التعبير عن وصف الخيل أو الثور الوحشي.

٧ ــ تخضع هذه الأبيات إلى متطلبات الغناء، على نمط يحاول أن يحتذي الشعر القديم، مما يعني أنه لو أخذ موضوعاً من موضوعات عصره مثل الخمر، فإنه لا بد أن يسير على منوال شعراء عصره من أمثال مطيع بن إياس ووالبة بن الحباب.

٨ ــ أن هذا ليس شعراً جاهلياً حسب المعايير المعروفة عن الشعر الجاهلي.

٣ ــ

وكتب حماد الراوية إلى بعض الأشراف الرؤساء قال:

إنَّ لِــي حَــاجَــةً فَــرَأْيُــكَ فِيهَــا ... لَــكَ نَفْسِــي فِــدىً مِــنَ الأَوْصَــابِ
وَهْــيَ لَيْسَــتْ مِمَّــا يُبَلِّغُهَــا غَـ ... ـيْــرِي وَلاَ يَسْتَطِيعُهَــا فِــي كِتَــابِ
غَيْــرَ أَنِّــي أَقُــولُهَــا حِيــنَ أَلْقَــا ... كَ رُوَيْــداً أُسِــرُّهَــا فِــي حِجَــابِ

فكتب إليه الرجل: اكتب إلي بحاجتك ولا تشهرني بشعرك، فكتب إليه حماد:

إنَّنِــي عَــاشِــقٌ لِجُبَّتِــكَ الــدَّكْنَـ ... ــاءَ عِشْقــاً قَــدْ حَــالَ دُونَ الشَّــرَابِ

فَـاكْسِنِيهَـا فَـدَتْـكَ نَفْسِـي وَأَهْلِـي أَتَبَـاهَـى بِهَـا عَلَـى الأَصْحَـابِ
وَلَـكَ اللَّـهُ وَالأَمَـانَـةُ أَنْ أَجْعَـ لَهَـا عَمْـرَهَـا أَمِيـرَ ثِيَـابِـي[1]

المناقشة:

تتسم هذه المقطوعات بالسمات الفنية والموضوعية التالية:

١ ــ بساطة التركيب، فالعبارات ليس فيها ما ألفناه من جزالة ومتانة في الشعر الجاهلي، مع وضوح الألفاظ وبعدها عن التعقيد.

٢ ــ تقترب لغتها من لغة الحديث اليومي لولا الصياغة والوزن، وذلك مثل قوله: «**وهي ليست مما يبلغها غيري ولا يستطيعها في كتاب**».

٣ ــ الخيال محدود بحيث يكاد يكون معدوماً هنا.

٤ ــ قِصر النَفَس جداً حتى جاءت كل ثلاثة أبيات على فترتين.

٥ ــ التوجه إلى المعنى مباشرة بتقريرية ساذجة.

٦ ــ أن القائل ذو نفسية بسيطة، أوصلته إلى درجة العشق لهذه الجبة، على حين أن الجاهلي كان يترفع باستعلاء في تعبيره عن مثل هذه المواقف حتى عند الصعاليك سواء أكانوا في عصره أم عند الجاهليين.

٧ ــ وبعد كل هذا، فكما رأينا من استبدال حماد عجرد بحماد الراوية كثيراً، فإننا هنا أيضاً نواجه الوضع نفسه؛ إذ إن الأبيات ليست لحماد الراوية، بل هي لحماد عجرد، يقول أبو الفرج في روايته:

«رأى حماد عجرد على بعض الكتاب جبة خز دكناء، فكتب إليه:

إننـي عـاشـق لجبتـك الـدكـ ـنـاء عشقـاً قـد هـاج لـي أطـرابـي
فبحـق الأميـر إلا أتتنـي فـي سَـرَاحٍ مقـرونـةً بـالجـواب

(١) الأغاني، جـ٦، ص ٧٩.

ولـــك الله والأمـــانـــة أن أجـ ـعَلهــا أشهُــراً أميــرَ ثيــابــي

فوجه إليه بها. . .»[1].

ولعل هذا الإيضاح لمثل هذا الموقف الشعري يلقي بظلاله وشكوكه على بقية ما نسب إليه من شعر.

٤ ــ قال حماد لأبي عطاء السندي:

أَبِــنْ لِــي إِنْ سُئِلْــتَ أَبَــا عَطَــاءٍ يَقِينــاً كَيْــفَ عِلْمُــكَ بِــالْمَعَــانِــي

فَمَــا اسْـمُ حَـدِيـدَةٍ فِـي رَأْسِ رُمْـحٍ دُوَيْـنَ الْكَعْـبِ لَيْسَـتْ بِـالسِّنَـانِ

فَمَــا صَفْــرَاءُ تُــدْعَــى أُمَّ عَــوْفٍ كَــأَنَّ رُجَيْلَتَيْهَــا مِنْجَــلاَنِ

أَتَعْــرِفُ مَسْجِــداً لِبَنِــي تَمِيــمٍ فُــوَيْــقَ الْمِيــلِ دُونَ بَنِــي أَبَــانِ[2]

---

(١) الأغاني، جـ ١٤، ص ٣٣٤.

(٢) المصدر نفسه، جـ ١٧، ص ٢٤٩ وجاء فيه:

(أخبرني) الحسن عن أحمد بن الحرث عن المدائني أن يحيى بن زياد الحارثي، وحماداً الراوية كان بينهما وبين معلى بن هُبيرة ما يكون مثله بين الشعراء والرواة من النفاسة، وكان معلى بن هبيرة يحب أن يطرح حماداً في لسان شاعر يهجوه، قال حماد الراوية: فقال لي يوماً بحضرة يحيى بن زياد: أتقول لأبي عطاء السندي أن يقول في زُجٍّ وجرادة ومسجد بني شيطان، قال: فقلت له: فما تجعله لي على ذلك؟ قال: بغلتي بسرجها ولجامها، قلت: فَعَدِّلْها على يدي يحيى بن زياد ففعل، وأخذت عليه موثقاً بالوفاء، وجاء أبو عطاء السندي فجلس إلينا وقال مرهباً مرهباً هياكم الله، فرحبت به وعرضت عليه العشاء، فقال: لا حاجة لي به، فقال: أعندكم نبيذ؟ فأتيناه بنبيذ كان عندنا، فشرب حتى احمرت عيناه واسترخت عَلابيه، ثم قلت يا أبا عطاء إن إنساناً طرح علينا أبياتاً فيها لغز، ولست أقدر على إجابته ألبتة ومنذ أمس إلى الآن ما يستوي لي منها شيء، ففرج عني، قال: هات، فقلت:

ابـــن لـــي إن سئلـــت أبـــا عطـــا يقينـــاً كيـــف علمـــك بـــالمعـــانـــي

فقال:

خبيـــر عـــالـــم فـــاســـأل تجـــدنـــي بهـــا طَبّـــاً وآيـــات المثـــانـــي =

المناقشة:

١ ـ يؤكد هذا النظم، أن القائل ذو عقلية منطقية منظمة تتقيد

= فقلت:

فما اسم حديدة في رأس رمح دُوَيْن الكعب ليست بالسنان

فقال أبو عطاء:

هو الزُّزُّ الذي إن بات ضيفاً لصدرك لم تزل لك عَولتان

قلت: فرج الله عنك، تعني الزُّج، وقلت:

فما صفراء تدعى أم عوف كأن رُجَيْلَتَيْهَا مِنجلان

فقال:

أردت زرادة وأُزُنُّ زنَّاً بأنك ما أردت سوى لساني

قلت: فرج الله عنك وأطال بقاءك، يريد جرادة وأظن ظناً، فقلت:

أتعرف مسجداً لبني تميم فويق المِيل دون بني أبان

فقال:

بنو سيطان دون بني أبان كقرب أبيك من عبد المدان

قال حماد: فرأيت عينيه قد احمرتا، وعرفت الغضب في وجهه وتخوفته، فقلت: يا أبا عطاء هذا مقام المستجير بك، ولك النصف مما أخذته، قال: فأصدقني، قال: فأخبرته، فقال: لي أولى لك، قد سلِمت وسلم لك جُعْلُك، خذه بورك لك فيه، لا حاجة لي فيه، فأخذته وانقلب يهجو معلى بن هبيرة.

وانظر الجاحظ، الحيوان، جـ ٥، ص ٥٥٨ اللسان جـ ٩، ص ٢٥٩. وجاء في القفطي، إنباه الرواة، ص ٣٣١:

«وكان حماد [عجرد] حلو المحاضرة، لطيف العبارة، ظريف المفاكهة والمداعبة. قال يوماً لحماد الراوية: إن أحسن أبو عطاء السندي أن يقول: «جرادة»، «زج» و «شيطان» فبغلتي وسرجها ولجامها لك.

قال حماد الراوية: ألست إنما تريد أن يتكلم بها؟ قال: بلى. فأتياه، فقال له حماد: يا أبا عطاء، كيف علمك بالأوابد، قال: سلني، قال:

وما صفراء تكنى أم عوف ... كأن رجيلتيها منجلان

قال أبو عطاء: هي «زرادة» فقال حماد:

أتعرف مسجداً لبني تميم فويق السال دون بني أبان

أم عوف: ضرب من الجعلان دويبة غبراء تحفر بذنبها وبقرنيها لا تظهر أبداً.

بظواهر الأشياء ثم تحاول التعليل لها، في حدود مؤطرة منسقة جداً، يثبتها هذا التوجه نحو التلغيز والإلغاز.

٢ ــ أنه ابن بيئته ومجتمعه في علاقاته وثقافته.

٣ ــ انعدام الطريقة القصصية الوصفية التي تعمد إلى السرد والحكاية والتفصيل في الحدث.

٤ ــ أن اللغة التي يستخدمها لغة حضرية مهذبة تخلصت من الحوشي والغريب.

أنه نوع من الدعابة في قول منظوم.

٥ ــ حماد في هشام بن عبد الملك بعد إنشاده شعر عدي بن زيد:

أَنْتَ الَّذِي تُنْزِلُ الأَيَّامَ مَنْزِلَهَا ... وَتَنْقُلُ الدَّهْرَ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالِ
وَمَا مَدَدْتَ مَدَى طَرْفٍ إِلَى أَحَدٍ ... إِلاَّ قَضَيْتَ بِأَرْزَاقٍ وَآجَالِ
تَرُومُ شُحّاً فَتُمْسِي الْبِيضُ [...] ... وَتَسْتَهِلُّ فَتَبْكِي أَعْيُنُ الْمَالِ

المناقشة:

١ ــ لا تخرج هذه الأبيات الثلاثة عما تَبَيَّن لنا من أن القائل يركز تركيزاً شديداً على فكرة معينة في أبيات محدودة جداً، وبمعاني محددة ضيقة كذلك.

٢ ــ ضيق المعجم اللغوي مع وضوح لا يهدف إلا إلى التعبير عن تلك الفكرة ونقلها إلى السامعين.

٣ ــ إذا وضعنا هذه الأبيات في إطارها التاريخي من حيث علاقة حماد بالخليفة هشام بن عبد الملك، فإنه يصعب قبول أن يمدح حماد

هشاماً بما يعبر عن اقتراب به، ولو كان ذلك في الوليد بن يزيد، لكان ذلك محتملاً.

٤ ــ في الأبيات غلو ومبالغة لا تتناسب مع ما عرفناه عن نظم حماد، ثم كيف يمكن أن يوجه أحد لهشام، بل شخص في منزل حماد، التهمة إلى الخليفة هشام بـ «تروم شحا»؟ أليس في التلاعب في رواية البيت الأخير، ما يشعر بأن هناك يداً ما هي التي حاولت إضافة ذلك إلى حماد؟.

٦ ــ ومما غني فيه من شعر حماد:

تَنَكَّرَ مِنْ سُعْدَى وَأَقْفَرَ مِنْ هِنْدِ ... مَقَامَهَا بَيْنَ الرَّغَامَيْنِ فَالْفَرْدِ
مَحَلٌّ لِسُعْدَى طَالَمَا سَكَنَتْ بِهِ ... فَأَوْحَشَ مِمَّنْ كَانَ يَسْكُنُهُ بَعْدِي

المناقشة:

١ ــ جمع الحديث عن محبوبتين في شطر واحد «سعدى/ هند».

٢ ــ الظاهر أن الشعر في سعدى لأنها هي التي تتكرر بعد ذلك.

٣ ــ التركيز الشديد من أجل التعبير عن فكرة واحدة.

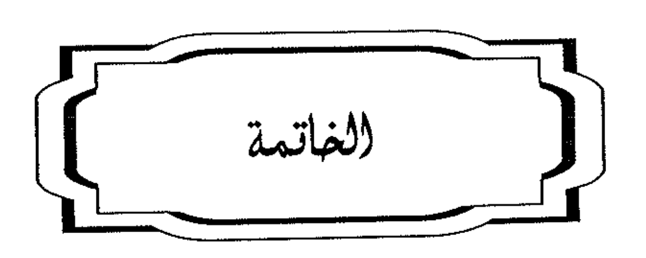
٤ ــ ضيق النَفَس، وعدم القدرة على الاسترسال في الشعر.

٥ ــ يبدو أن الهدف من قولهما في محاذاة للشعر القديم، هو الغناء فقط.

وأخيراً، هل تسمح لنا هذه الأمثلة بأن نعد حماد شاعراً، أو قادراً على النسيج على شعر قديم؟!!

---

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ٢، ص ٢٠٩.
(٢) مهذب الأغاني، جـ ٣، ص ٢٦٣.



الخاتمة

إنه من الصعب أن تأمل دراسة واحدة، في تغيير الإجماع الذي تراكم عبر القرون، ولكن يبقى بعد ذلك أننا أصبحنا ندرك في هذه الحقبة من الزمن قيمة التحقيق العلمي والبحث الأدبي، في أضواء جديدة تستفيد من الميادين العلمية المختلفة خاصة في مجال الرواية الشفوية وعلم النفس. كما أصبحنا أكثر اقتراباً من مادة البحث نفسها، بعد أن عدنا إلى تحكيم المنطق والعقل، وتطبيق المعايير النقدية الموضوعية، التي تحاول أن تبتعد، على قدر الإمكان، عن الدوافع الذاتية، أو الأهواء الشخصية الخاضعة للتيارات الاجتماعية والتقلبات الظرفية.

وقد تبين من تحليل المادة التي بين أيدينا أن نسبة الشعوبية إلى حماد، نسبة ليس لها سند تاريخي على الإطلاق. فليس في حياة حماد ولا في أفكاره، ما يوحي، مجرد إيحاء، بهذه النسبة، ولعلنا على العكس من ذلك تماماً، إنما نصف حماد بالتعصب للأدب العربي القديم. وما حِفْظُه لهذا الأدب، حتى كاد يكون الوحيد المنفرد أحياناً في رواية أجزاء منه، إلا دليل على حبه لهذا الأدب وعشقه له. ولعل مما يبطل هذه النسبة أن حماداً ليس من الجيل الذي عبّر عن الشعوبية، وإنما عاش الشطر الأكبر من حياته في ظل الدولة الأموية، وهي الدولة التي أجمع الدارسون على أنها الدولة العربية. وهذا ما عبّر عنه حماد عندما قال إنه من رجال تلك الدولة وليس

له نصيب مع هذه. ومعلوم أن الموالي كانوا ميّالين إلى الدولة العباسية، بل إنه قد يحق للمرء أن يقول: إن حماداً كان مضطهداً في ظل هذا العهد الجديد، وظاهرة الاضطهاد، أو القمع السياسي من الظواهر التي تؤثر كثيراً على مستوى التفكير عند الإنسان كما تؤثر تأثيراً سلبياً قوياً على سمعته وعلاقته بالآخرين، وإضافة إلى ذلك، فإنه فميا يخص حماداً هناك تأثير آخر على قواه العصبية التي تحكم نشاط ذاكرته.

ولم تكن تهمة الزندقة، بأقل خطراً من تهمة الشعوبية، والزندقة قضية سياسية ولم يعش حماد صراعاً سياسياً، بل كان مسالماً، يخشى على نفسه، ويحذر عليها. ولكن القدماء، ومن منطلقات خاصة، أدخلوه في زمرة الزنادقة، لأنه كان مقبلاً على الشراب، وهو مظهر من مظاهر بعض أولئك المتهمين بالزندقة. وما زالت الزندقة نفسها، كقضية سياسية، تحتاج إلى بحوث وافية، تَفْصِل بين أولئك المفكرين والمطبّقين عملياً، أي أولئك الذين يجمعون بين النظرية والتطبيق، وأولئك الذين كانوا يعيشون حياتهم الخاصة، ضمن رؤية محددة، خاصة بهم، وعامة في أمثالهم. والواقع أن أولئك الذين اتهموه بالزندقة، أغفلوا أنه يصلي الجمعة، وأن أحداً ممن نقل عنه، لم يورد له رأياً واحداً يعبّر عن مواقفه الفكرية أو السياسية.

أما فيما يخص نشأته، فإن الخبر الذي ورد في ممارسته اللصوصية يوماً ما، بدا لنا خبراً من الأخبار التي تأتي لتفسير ظهور العبقريات الإنسانية، فتتلمس بداياتها، وتخلق حولها الإشاعات والأوهام، أو الأساطير والخرافات؛ فظهور حماد ممتلكاً لتلك القوة التي عرفناها، كان في حد ذاته رفضاً للصوصية، لأنه إنما نشأ طفلاً فيافعاً، وهو يترعرع في أحضان بيت علم وأدب، وبين قوم ديوانهم الشعر الجاهلي، وسجلهم الأخبار والأنساب والأيام.

ولكن الأديب، مهما بلغ به الجد والنزاهة، فهو إنسان أيضاً، ولذلك

كان حماد، كأديب فنان، ينزع ذاتياً إلى ما عرف في الأدب بـ «المجون»، والمجون، كما تكشف لنا، كان الإقبال على شرب النبيذ، وهناك ملاحظة أثيرت في هذا الصدد، وهي أن مجونه كان مجوناً معتدلاً في عصر الدولة الأموية، عندما كان هناك استقرار سياسي نفسي واجتماعي حوله، وكان يعيش في أمن وحماية دولة يعمل لحسابها ويتبنى مواقفها، أما في عصر الدولة العباسية، فالصورة التي رسمت له فيها هي أنه كان يفرط في الشرب إلى حد السكر، ولعل ذلك كان تعويضاً عما لحقه من اضطهاد وأذى، أو هروباً من المآزق التي آل فيها حينذاك، هذا إذا قبلنا ذلك حقيقة:

وبعد أن عالجنا كل هذه المآخذ الشخصية على حماد، وجدنا أن التهمة التي أُتِي منها حماد، لا تقوم للجدل والنقاش، وما هي إلا مجرد ادعاء دفعت إليه ـ على الأرجح ـ خصومات شخصية. والظاهر أنه حتى هذه الخصومات الشخصية المزعومة، لا تستند إلى واقع جدلي. فالمفضل الضبي الذي شاءت الروايات أن تضعه في الصف المناوىء لحماد، روى عن حماد. وإذا كنا نتوقع المنافسة بين البصرة والكوفة، فإننا نتوقع في المقابل وقوف الرجلين: حماد والمفضل في صف واحد لمواجهة تلك المنافسة. ثم ما الذي دفع أصلاً بالمفضل إلى إشهار هذه المنافسة بينهما، والرجل ليس من جيله، أو ممن يعتد بنفسه أمامه، أو يقف في طريق وصوله. لقد رأينا حماداً في الفترة العباسية، لا يظهر للحكام والمسؤولين إلا حينما يستدعونه. وحينما يأتي، يأتي على توجس وتهيب. وفجأة تطالعنا إحدى القصص بلقاء الرجلين عند المهدي، ولعل ذلك كان لدوافع سياسية أو اجتماعية أو عرقية أو شخصية. وقد ثبت لنا أيضاً أن أصل الخلاف على قصيدة زهير، لا حقيقة له، لأن المهدي كان ممن يعلم مطلع القصيدة، وذلك في مصدر سابق على المصدر الذي أورد الحكاية نفسها، وهكذا تصبح القصة من الحكايات القابلة للحشو والتبديل إلى درجة التغيير

كلية، أو أنها كانت نتيجة مواقف مسبقة من حماد، شارك فيها كثيرون إلى جانب المفضل، ولعبت فيها الأهواء دوراً فعالاً جداً.

ولم تكن تهمة صناعة الشعر من أبي حاتم تهمة ذات تأثير، فليس زيادة بيت أو أكثر بذات قيمة في أية رواية شفوية، ولو أحصى المرء الزيادات أو الاختلافات في أية قصيدة جاهلية لاتهمها بأنها مصنوعة، حتى تتشوه الصورة كلية، وهذا واقع ثبت لنا في همزية الحطيئة وفي لاميته، بقدر ما ثبت لنا أيضاً في رائية زهير، وهذا يدخل ضمن ما يعرف بظاهرة التداخل والاختلاط.

وإزاء هذه الصورة المبعثرة الأجزاء والألوان عن حماد، تناولت الدراسة مكانته العلمية، فبينت ما يتمتع به الرجل من قدرة نقدية تولدت لديه مع الممارسة والزمن والمعايشة، فكان صدى للموروث النقدي من جهة، وكان من جهة أخرى، نابعاً من تكوينه الفكري والمعرفي، فعلمه بالشعر كان كبيراً جداً بحيث يتباهى به أمام الآخرين، وهو ما اعترف له علماء عصره به، ولم يكن علمه باللغة بأقل من علمه بالشعر، فالاثنان متلازمان حتى غدت تهمة اللحن الموجهة له، تهمة مستهدفة، يقصد من ورائها إظهاره بمظهر الضعيف الجاهل. ولهذا كانت تهمة التصحيف أيضاً، أضعف من أن تثبت للنقد، وما المآخذ اللغوية عليه، إلا مآخذ أسيء تفسيرها، أو لم يلتفت إلى طبيعتها، وبهذا بَعُدَ أيضاً أن يصحف حماد في قراءة القرآن الكريم، وحيث إن التهمة جاءت من بشار، وفي العصر العباسي، فإنها في حقيقتها موجهة ضد حماد عجرد، خصم بشار العنيد، ورجل العصر العباسي.

ومن الطبيعي أن تتضح ميول حماد، فهو قد نشأ في أجواء تراثية، وتعمقت لديه الرؤية الشعرية المستوحاة من العصر الجاهلي، الذي تكيفت لغته وفق تعابير وأطر خاصة، وتجانست فيه الصور والأخيلة حتى أصبح

التقليد والمتابعة هما تبني الشعرية التي تتأقلم في حدودها الشاعرية نفسها. لقد كان حماد شديد الإعجاب بالأعشى، وكان يساير الرأي العام حول مكانة امرىء القيس والنابغة وزهير، ثم كان شعراء العصر الأموي، فبدا الأخطل أقرب الناس إلى نفسه، وتدل مقولاته في عدد من الشعراء، على أنه كان يعبر في نقده عن علم ومعرفة وإدراك، بل كان يدرك بعض العناصر الفنية التي تميز شاعراً عن شاعر، ولهذا كان يحس بمدى البون بين جرير والفرزدق مثلاً، وإن كان مثل هذا الإحساس، إحساساً عابراً غير متعمق، وليس هو بمطالب في ذلك الوقت المبكر، أن يأتي فيه بتفصيل وعمق.

ومثلما أدت النتائج إلى كشف طبيعة لقاء حماد بالمفضل، أدت أيضاً إلى الكشف عن حقيقة اتهامه بصناعة الشعر. فالقصة التي انطلقت منها التهمة تنحصر في قصيدة الحطيئة، ولكن تعقُّب الروايات كشف عن أن هذه التهمة، مثل بقية التهم التي تدور حول هذا الجانب، لا تخرج عما هو معروف عند جميع الباحثين في ميدان الآداب الشعبية، والروايات الشفهية بتعدد الروايات. وما إصدار تلك الأحكام عليه، إلا نتيجة انتقال الرواية من ميدان الشفوية إلى ميدان الكتابة. فمحمد بن سلام الجمحي، الذي لم يعاصر حماداً، كان يُطبّق معايير مدرسة أخذت بمنهج الدراسة العلمية، وهو منهج يتجاوز المرحلة الشفوية للأدب، وذلك على الرغم من أن المدرسة البصرية نفسها، ظلت تحافظ على الموروث الشفوي إلى جانب استعمال التدوين وتطبيق معايير نقدية مستمدة من علوم حديثة، خاصة بمجال علم الحديث والقراءات القرآنية.

ولقد توقفنا ملياً عند قصته مع الطرماح، لأن هذه القصة كانت تُحرِّض على إساءة سمعته، وعرضنا فيها ثلاثة احتمالات: يدخل الأول

ضمن ظاهرة التوارد، والثاني ضمن الشك في القصة، والثالث يقلب التهمة ضد الطرماح نفسه، وبدا أننا نميل إلى الاحتمال الثاني.

وهكذا عدنا لنرى حماداً يحتل مكانته اللائقة به في ميدان الشفوية، فاستحق بذلك لقبه «الراوية»، الذي جرده من أي لقب آخر سواه، حتى من حمله اسمَ عائلته أو مواليه. وقد دلت الدراسة على أنه حفظ فأوعى، ونقل فأخلص النقل، حتى مع إشهار تهمة ادعاء الشعر ضده، تلك التهمة التي لم تجعله بأي حال من الأحوال شاعراً، بل راوية، أي إن الآخرين كانوا يتصورون أن قصيدة ما هي من صنعه، وهذا ما حدث جلياً مع بلال بن أبي بردة، فهو لم يقل شعراً، وإنما رواه، حتى تبين لمن عاصروه ـ ذو الرمة ـ أن هذا الشعر شعر قديم وما هو له.

أما الجانب الآخر من حياة حماد الثقافية، فهي رواية الأخبار، ويبدو أن حماداً سعى شخصياً إلى الحصول على الخبر، ولم يكن يقتصر على علمه بالشعر، ومن هنا وجدنا العلماء يقرنون علم الشعر بعلم الخبر عنده، وليس بالإمكان تكذيب أو تصديق خبر ما، لأن الخبر الشفوي لا بد له أن يتغير ويتحرف، خاصة إذا اختلفت مصادره، وربما كان من حسن حظ الأدب العربي أن حَفِظ التراثُ بعضَ الأخبار التي رواها، فأتاح فرصة مقارنتها بالأخبار الأخرى، ثم استكشاف بعض الحقيقة منها. ولكن فائدة ما بقي من أخبار نسبت روايتها إليه، هي أنها أطلعتنا على ذلك الجانب الآخر من ثقافة حماد. وبهذا يحق للمرء أن يتساءل، وقد رأى جانباً ثرياً من علمه بالشعر، ثم رأى جانباً باهتاً من علمه بالخبر، أين علمه باللغة؟ وأين علمه بالأنساب؟ بل هل الجانب الأول، الذي نصفه بالثراء، هو كل علم حماد؟ أليس هو الرجل الذي كان يوماً إليه بالبنان في أوج تألقه، ثم راح يخمد شيئاً فشيئاً؟ ألم يكن ممكناً أن نحصل على معلومات أوسع، لو بقي من علمه أكثر مما جاءنا عنه؟.

وقد بلغ حماد من الشهرة وبعد الصيت في مجال الرواية الشفوية حداً جعله يتباهى بنفسه فيقول إنه ينشد على كل حرف من حروف المعجم مائة قصيدة كبيرة سوى المقطعات من شعر الجاهلية، دون شعر الإسلام، وهذا هو أحد المَرشِّحات القوية لحالات التداخل والاختلاط التي كان يمر بها حماد ومن هو في منزلة حماد.

ولكن ما ينبغي الالتفات إليه هنا، هو أنه على الرغم من وقوع ذلك في أية مرحلة من مراحل حياته، فإنه من المرجح أن بداياته الأولى كانت أقرب إلى التمييز والتعيين، ولذلك أنشد الوليد بن يزيد «ألفين وتسعمائة قصيدة للجاهليين»، ثم إنه مع تقدم الزمن به وترافد المحفوظ الجديد عليه، أصبح يخلط شيئاً فشيئاً بين الأشعار ولعل ذلك هو ما جعله يتدارك ما هو فيه، فيملي بعض محفوظه على تلاميذه، وذلك في حالة الإصرار على مسايرة اتهامه والطعن فيه.

وهكذا تأتي شهادات العلماء له بهذا التفوق في الرواية الشفوية فيطلق عليه لقب «الراوية» وينص على أنه «يروي جل أشعار الراوية العرب»، ويبلغ من الشهرة والتوثيق حداً يصل به إلى أن «ملوك بني أمية تقدمه وتؤثره وتستزيره». وحتى أدرك هو من نفسه تلك الموهبة، فوقف بكل ثقة أمام الكميت فقال: «وما هو إلا الظن؟ هذا والله هو اليقين».

ومهما بالغنا في تكذيب هذه الحقيقة التي يتمتع بها بعض الأشخاص في المجتمعات البشرية المختلفة، وفي كل زمان، خاصة في المجتمعات التي تعتمد على الكلمة المسموعة، وحيث يقام للحافظة وزن كبير، فإن الشواهد العملية والعلمية تثبتها وتبرهن على وجودها.

ومع ذلك، فإن اعتبار حماد راوية شفوياً سبق التدوين، أو مقارنته كثيراً برواة متأخرين، من أمثال يونس، وخلف الأحمر، وابن سلام وأبي عبيدة، وأبي عمرو الشيباني، ومن سواهم، لا يعني الغض من رواية

حماد، أو التقليل من شأن هؤلاء، فهم كلهم جميعاً يشكلون مسيرة واحدة من مسيرة رواية الشعر العربي القديم، وإنما يعني أن رواية حماد كانت ذات نمط خاص، نمط يعتمد على المسموع وليس المقرؤ، وفي المسموع تداخل، وتماثل، وتسامح، أي هناك خلط وزيادة وتزيد، غير مقصودة، بل هناك إدخال وضم وتجاوز، أي عَدُّ قصيدة ما لزهير مثلاً، بينما هي لأبي صِرمة الأنصاري، أو تَوَهُّم أن هذه الأبيات لطرفة، على حين أنها لشاعر مجهول وهلم جراً. ولذلك كانت مقارنة الروايات مطلباً رئيساً للتعرف على بعض الحقيقة في الرواية الشفوية، وهذه مهمة شاقة بدأها علماء البصرة، وأفادت فيها الإفادات المتأخرة، وما زال النقد يسعى إلى تحصيل بعض ملامحها وخصائصها.

وإن هذا البحث ليأمل أن نعاود النظر في أحكامنا، وأحكام من سبقونا، لإنصاف الرجل، وإعادة الاعتبار إليه، بعد أن مضى زمن والناس يرجمونه بشتى التهم، حتى أصبح شراً يستعاذ به. ولقد كان هذا الأمل، وراء إفراد حماد بهذا الكتاب، خاصة أن الدراسات الجامعية، والمباحث الأدبية، تَرْجِع إليه على أنه: «ما يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل، ويدخله في شعره».

والواقع أنه لم يكن بالإمكان اتخاذ موقف من رواية حماد، لولا الاعتماد على ما توصلت إليه الدراسات العلمية الحديثة في ميداني الرواية الشفوية والذاكرة، بحيث كان من المحتم الآن إعادة النظر في تقويم كثير من الشخصيات الأدبية، وإفساح المجال للأعمال المقارنة، لتأخذ طريقها في تحليل كثير من المعطيات النقدية، التي ذهبت طولاً وذهبت عرضاً في تناول مشروع البحث، فمضى الزمن حثيثاً ونحن مترددون في أمر هذه الشخصية.

المصادر

أ ـ الكتب:

* أبكاريوس، إسكندر آغا، تزيين نهاية الأرب في أخبار العرب (بيروت: المطبعة الوطنية ١٨٦٧ م).

* أبو أحمدالعسكري، الحسن بن عبد الله بن سعيد، شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف تحقيق عبد العزيز أحمد (مصر: مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط أولى ١٣٨٣ هـ/ ١٩٦٣ م).

* ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي مكرم، الكامل في التاريخ (بيروت: دار صادر، ١٣٨٥ هـ/ ١٩٦٥ م).

* الأصفهاني، حمزة بن الحسن، التنبيه على حدوث التصحيف، تحقيق محمد أسعد طلس (دمشق: مجمع اللغة العربية، ١٣٨٨ هـ/ ١٩٦٨ م).

* الأصمعي، عبد الملك بن قريب، تاريخ العرب قبل الإسلام، تحقيق محمد حسن آل ياسين (بغداد: المكتبة العلمية، ١٩٥٩ م).

فحولة الشعراء، تحقيق ش تورّي (بيروت: دار الكتاب الجديد، ط أولى ١٣٨٩هـ/ ١٩٧١ م).

* ابن الأنباري، أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد، نزهة

الألباء، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة: مط المدني، ١٣٨٦ هـ/ ١٩٦٧ م).

* ابن الأنباري، أبو محمد القاسم بن محمد بن بشار، شرح المفضليات، تحقيق كارلوس يعقوب لايل (بيروت: مطبعة الآباء اليسوعيين، ١٩٢٠ م).

* البغدادي، عبد القادر بن عمر، خزانة الأدب، تحقيق عبد السلام محمد هارون (القاهرة: مط الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٩ م).

* البلاذري، أحمد بن يحيى، أنساب الأشراف جـ ١، تحقيق محمد حميد الله (مصر: دار المعارف، ١٩٥٩ م).
ج ٤، تحقيق ماكس شلوسنجر (القدس: مطبعة جامعة القدس، ١٩٣٨ م).

* الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون (مصر: مطبعة السعادة، ط ٣، د ـ ت).

الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون (بيروت: المجمع العلمي العربي الإسلامي، ط ٣، ١٣٨٨ هـ/ ١٩٦٩ م).

رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون (مصر: الخانجي، ط أولى ١٣٩٩ هـ/ ١٩٧٩ م).

* الحاتمي، أبو علي محمد بن الحسن بن المظفر، حلية المحاضرة، تحقيق جعفر الكتاني، ج ٢ (بغداد: دار الرشيد، ١٩٧٩ م).

* ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس (بيروت: دار الثقافة ١٩٦٩ م).

* ابن رشيق، أبو علي الحسن، العمدة، شرح محمد محيي الدين عبد الحميد (بيروت: دار الجيل، ط ٤، ١٩٧٢ م).

* الحلي، أبو البقاء هبة الله، المناقب المزيدية في أخبار الملوك الأسدية، تحقيق صالح موسى دراكه، ومحمد عبد القادر خريسات (عمّان: مط الشرق، ط أولى، ١٩٨٤ م).
* الزبيدي، أبو بكر محمد بن الحسن، طبقات النحويين واللغويين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (مصر: دار المعارف ١٩٧٣ م).
* الزبيدي، محمد مرتضى، تاج العروس، (مصر: المطبعة الخيرية، ط أولى، ١٣٠٦ هـ).
* الزجاجي، أبو القاسم عبد الرحمٰن بن إسحاق، مجالس العلماء، تحقيق عبد السلام هارون (الكويت: مطبعة الحكومة، ١٩٦٢ م).
* الزركلي، خير الدين، الأعلام (بيروت: ط ٣، ١٣٨٩ هـ/ ١٩٦٩ م).
* ابن سعيد، أبو الحسن علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك، نشوة الطرب، تحقيق نصرت عبد الرحمٰن، (عمَّان: المطابع التعاونية، ١٩٨٢ م).
* السكري، أبو سعيد الحسن بن الحسين، شرح أشعار الهذليين، تحقيق عبد الستار أحمد فراج (القاهرة: مطبعة المدني، د ـ ت).
* ابن سلام، محمد (بن سلام) الجمحي، طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود محمد شاكر (مصر: دار المعارف، ١٩٥٢ م).
* السيرافي، أبو سعيد الحسن بن عبد الله، أخبار النحويين البصريين، تحقيق محمد الزيني، ومحمد عبد المنعم خفاجي (مصر: مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط أولى، ١٣٧٤ هـ/ ١٩٥٥ م).
* السيوطي، عبد الرحمٰن جلال الدين، شرح شواهد المغني، شرح محمد محمود الشنقيطي (بيروت: لجنة التراث العربي، د.ت).

المزهر في علوم اللغة، تحقيق محمد جاد المولى وآخرين (مصر: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط ٤، ١٣٧٨ هـ/ ١٩٥٨ م).

* ابن الشجري، هبة الله بن علي بن حمزة، الحماسة الشجرية، تحقيق عبد المعين الملوحي ـ و ـ أسماء الحمصي (دمشق: مطبعة وزارة الثقافة، ١٩٧٠ م).

مختارات ابن الشجري، تحقيق علي محمد البجاوي (القاهرة: مطبعة نهضة مصر، ١٩٧٥ م).

* الشريف المرتضى ـ ، الأمالي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (بيروت: دار الكتاب العربي، ط ٢، ١٣٨٧ هـ/ ١٩٦٧ م).

* الصفدي، صلاح الدين خليل أيبك، تصحيح التصحيف وتحرير التحريف، تحقيق السيد الشرقاوي (القاهرة: مطبعة المدني ط أولى ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٧).

فض الختام عن التورية والاستخدام، تحقيق المحمدي عبد العزيز الحناوي (مصر: دار الطباعة المحمدية، ط أولى ١٣٩٩ هـ/ ١٩٧٩ م).

* الصولى، أبو بكر محمد بن يحيى، أخبار أبي تمام، تحقيق خليل محمود عساكر وآخرين (بيروت: المكتب التجاري، د. ت).

* الطبري، أبو جعفر محمد، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (مصر: دار المعارف، ١٩٦٠ م).

* طيفور، أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر، المنثور والمنظوم، تحقيق محسن غيَّاض (بيروت: مطبعة الهدف، ١٩٧٧ م).

* أبو الطيب اللغوي، ـ عبد الواحد بن علي ـ ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة: مطبعة نهضة مصر، ١٩٥٤ م).

* العباسي، بدر الدين أبو الفتح عبد الرحيم، معاهد التنصيص تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد (القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٤٧ م).

* ابن عبد ربه، أبو عمر أحمد بن محمد، العقد الفريد، تحقيق أحمد أمين وآخرين (القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط ٣، ١٣٨٤ هـ/ ١٩٦٥ م).

* أبو عبد الله محمد بن داود بن الجراح، من اسمه عمرو من الشعراء، تحقيق عبد العزيز بن ناصر المانع (القاهرة: مطبعة المدني ط أولى، ١٤١٢ هـ/ ١٩٩١ م).

* العسكري، أبو هلال، كتاب الصناعتين، تحقيق علي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم (مصر: مط عيسى البابي الحلبي، ١٩٧١ م).

* ابن علي، محمد بن عثمان، مختصر في شواذ القرآن من كتاب البديع لابن خالويه، تحقيق برجستراسر (مصر: المطبعة الرحمانية، ١٩٣٤ م).

* أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني (بيروت: دار الثقافة، ط ٣، ١٣٨١ هـ/ ١٩٦٢ م).

* القاضي الجرجاني، علي بن عبد العزيز، الوساطة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي (مصر: مط. عيسى الحلبي، ط ٤، ١٣٨٦، ١٩٦٦ م).

* ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم، الشعر والشعراء، تحقيق أحمد محمد شاكر (مصر: دار المعارف، ١٩٦٦ م).

* المعارف، تصحيح محمد إسماعيل الصاوي (بيروت: شركة علاء الدين، ط ٢، ١٣٩٠ هـ/ ١٩٧٠ م).

تحقيق ثروت عكاشة (مصر: مطبعة دارالكتب، ١٩٦٠ م).

* القرشي، أبو زيد محمد بن الخطاب، جمهرة أشعار العرب، تحقيق محمد علي الهاشمي (الرياض: مط. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤٠١ هـ/ ١٩٨١ م).

* القفطي، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف، إنباه الرواه تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، ١٣٦٩ هـ/ ١٩٥٠ م).

* المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد، الكامل، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة: مطبعة نهضة مصر، ١٩٨١ م).

* المرزباني، أبو عبيد الله محمد بن عمران، الموشح، تحقيق محيي الدين الخطيب (القاهرة: المطبعة السلفية ط ٢، ١٣٨٥ هـ).

نور القبس، تحقيق رودلف زلهايم (فيسباداان: فرانتس شتايز، ١٣٨٤ هـ/ ١٩٦٤ م).

* ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، أخبار أبي نواس (مصر: مط الاعتماد، ١٩٢٤ م).

لسان العرب (بيروت: دار صادر، د ـ ت).

* ابن النديم، أبو الفرج محمد بن يعقوب بن إسحاق، الفهرست، تحقيق رضا تجدد (طهران: ١٣٩١ هـ/ ١٩٧١ م).

* ابن النحاس، أبو جعفر أحمد بن محمد، شرح القصائد التسع المشهورات ـ تحقيق أحمد خطاب (بغداد: دار الحرية، ١٣٩٣ هـ/ ١٩٧٣ م).

* النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، نهاية الأرب (القاهرة: مط دار الكتب، ١٩٣٥ م).

* ابن هشام، أبو محمد عبد الملك، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وآخرين (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط ٣، ١٣٩١ هـ/ ١٩٧١ م).

* ياقوت، شهاب الدين(ياقوت) بن عبد الله الحموي، الإرشاد، تحقيق د ـ س ـ مرجليوث (مصر: مطبعة هندية، ط ٢، ١٩٢٣ م).

ب ــ الدواوين:

الأعشى، ميمون بن قيس، ديوان الأعشى، تحقيق محمد محمد حسين (مصر: المطبعة النموذجية، ١٩٥٠ م).

* الحطيئة، جرول بن أوس، ديوان الحطيئة، تحقيق نعمان أمين طه (مصر: مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط أولى، ١٣٧٨ هـ/ ١٩٥٨ م).

* ذو الرمة، غيلان بن عقبة، ديوان ذي الرمة، تحقيق عبد القدوس أبو صالح (بيروت: مؤسسة الإيمان، ١٤٠٢ هـ/ ١٩٨٢ م).

* زهير، (زهير) بن أبي سلمى، شرح شعر زهير، تحقيق فخر الدين قباوة (بيروت: دار الآفاق، ط أولى ١٤٠٢ هـ/ ١٩٨٢ م).

* ابن مقبل، تميم بن أبي، ديوان ابن مقبل، تحقيق عزة حسن (دمشق: مط مديرية إحياء التراث القديم، ١٣٨١ هـ/ ١٩٦٢ م).

* النابغة، زياد بن معاوية، ديوان النابغة الذبياني، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (مصر: دار المعارف، ١٩٨٥ م).

* طرفة، (طرفة) بن العبد، ديوان طرفة، تحقيق الشنقيطي (قزانده: مط سي، ١٩٠٩ م).

ديوان طرفة، تحقيق درية الخطيب ولطفي الصقال (دمشق: مط مجمع اللغة العربية، ١٣٩٥ هـ/ ١٩٧٥ م).

المراجع العربية

أ ـ الكتب:

* إبراهيم، طه أحمد، تاريخ النقد الأدبي عند العرب (بيروت: دار الحكمة، ١٩٣٧ م).

* الأسد، ناصر الدين، مصادر الشعر الجاهلي (مصر: دار المعارف، ط ٦، ١٩٨٢ م).

* أسعد، يوسف ميخائيل، سيكولوجية)الإبداع في الفن والأدب (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٨٤ م).

* بدوي، عبد الرحمٰن، دراسات المستشرقين، (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٦ م).

* بيومي، محمد رجب، موقف النقد الأدبي من الشعر الجاهلي (الرياض: مط. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، د ـ ت).

* جواد علي، ـ ، المفصل في تاريخ العرب (بيروت: دار العلم للملايين، ط أولى، ١٩٦٨ م).

* الجوزو، مصطفى، صناجة العرب (بيروت: دار الطليعة، ط أولى، ١٩٧٧).

* حاوي، إيليا، الأخطل في سيرته ونفسيته وشعره (بيروت: مؤسسة خليفة، د ـ ت).
* حسين، مصطفى، رواية الشعر العربي من بداية القرن الرابع الهجري حتى نهاية السابع (مصر: دار النهضة العلمية، ١٩٧٨ م).
* حسين، محمد محمد، أساليب الصناعة في شعر الخمر والأسفار (مصر: دار النهضة العربية ١٩٧٢ م).
* أبو خشب، إبراهيم، تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الأول (مصر: مطبعة الحمامي، ١٩٧٤ م/ ١٩٧٥ م).
* خليف، يوسف، حياة الشعر في الكوفة (القاهرة: دار الكاتب العربي، ١٣٨٨ هـ/ ١٩٦٨ م).
* الرافعي، مصطفى صادق، تاريخ آداب العرب، (بيروت: دار الكتاب العربي، ط ٤، ١٣٩٤ هـ/ ١٩٧٤ م).
* سعيد، جميل، تطور الخمريات في الشعر العربي (القاهرة: مكتبة النهضة، ١٩٥٤ م).
* ضيف، شوقي، العصر الجاهلي (مصر: دار المعارف، ط ٥، ١٩٧١ م).
* طه حسين، في الأدب الجاهلي (مصر: دار المعارف، ١٩٢٧ م).
* طبانة، بدوي، معلقات العرب (بيروت: دار الثقافة، ط ٣، ١٣٩٤ هـ/ ١٩٧٤ م).
* عطوان، حسين، الشعراء من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية (بيروت: دار الجيل، ١٩٧٤ م).
* عطية الله، أحمد، الذاكرة والنسيان (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ط ٢، ١٩٨٠ م).

* فهمي، عزيز، المقارنة بين الشعر الأموي والشعر العباسي، (مصر: دار المعارف، ١٩٨٠ م).
* محمد، سنية أحمد، النقد عند اللغويين في القرن الثاني (بغداد: دار الرسالة ١٩٧٧ م).
* مصطفى، عبد الحكيم، حماد الراوية (١٤٠٠ هـ/ ١٩٨٠ م) دار الكتب، رقم ٢٥٣/ ١٩٨١، الرقم الخاص ٨١٢٠٦ (دراسة غير منشورة).
* المطلبي، عبد الجبار، دراسات في الأدب الإسلامي والأموي (بغداد: دار الشؤون الثقافية، ط أولى، ١٩٨٦ م).
* مكي، الطاهر أحمد، مصادر الأدب (مصر: دار المعارف، ط ٣، ١٩٧٦ م).
* موافي، عثمان، الخصومة بين القدماء والمحدثين (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٤ م).
* نالينو، كارل، تاريخ الآداب العربية (مصر: دار المعارف، ط ٢، ١٩٧٠ م).
* هدارة، محمد مصطفى، اتجاهات الشعر العربي (مصر: دار المعارف، ١٩٦٣ م).

ب ـ المجلات:

* الحاجري، طه، أبو عبيدة، مجلة الكتاب المصري م ٢، ع ٦ (مارس ١٩٤٦ م)، ع ٧ (إبريل ١٩٤٦ م).

المراجع الأجنبية

* *Higbee, Kenneth. Your Memory (Englood Cliffs, N. J. Prentice, Hall. 1977).*
* *Howe, Michael J. A. Introduction To The Psychology of Memory, (Harper & Row, 1983).*
* *Hunter, Län, M. L. Memory facts and fallacies (London: The Whitefriars Press htd, 1957).*
* *Lyall, C.J. The Mufaddaliy a t, V.2 (Oxford Univ. press, 1921.*
* *Taheri A. Zandaga in The Early Abbasid Period with Special reference To The Poetry, umpublished PHD Thesis, Edinburg Univ. 1982.*
* *Zwettler, M. The Oral Tradition (ohio, Ohio Univ. Press, 1978).*

المراجع الأجنبية

* *Higbee, Kenneth. Your Memory (Englood Cliffs, N. J. Prentice, Hall. 1977).*
* *Howe, Michael J. A. Introduction To The Psychology of Memory, (Harper& Row, 1983).*
* *Hunter, Län, M. L. Memory facts and fallacies (London: The Whitefriars Press htd, 1957).*
* *Lyall, C.J. The Mufaddaliy a t, V.2 (Oxford Univ. press, 1921.*
* *Taheri A. Zandaga in The Early Abbasid Period with Special reference To The Poetry, umpublished PHD Thesis, Edinburg Univ. 1982.*
* *Zwettler, M. The Oral Tradition (ohio, Ohio Univ. Press, 1978).*

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

كتب للمؤلف

ـ نظرية الرواية الشفوية للشعر الجاهلي (ترجمة) ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م.

ـ الشعر والغناء في ضوء نظرية الرواية الشفوية ١٤١٤ هـ/ ١٩٩٤ م.

ـ ابن مقرب وتاريخ الإمارة العيونية في بلاد البحرين ١٤١٤ هـ/ ١٩٩٤ م.

ـ التراث الشفوي للشعر العربي القديم (ترجمة) ـ تحت الإصدار.

ـ خلف الأحمر الشاعر ـ الراوية ـ تحت الإصدار.

ـ الأسس الموضوعية لدراسة الشعر الجاهلي ـ تحت الإصدار.

ـ الأسس الفنية لدراسة الشعر الجاهلي ـ تحت الإصدار.

ـ الذئب ـ تحت الإصدار (عدة كتب).

ـ الرؤية العرقية ـ تحت الإصدار.

ـ التاريخ السياسي للجزيرة العربية تحت الإصدار.

ـ تحليل النصوص.